الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الإخوة منتوري قسنطينة1
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة العربية والآداب

مطبوعة بيداغوجية موجهة لطلبة السنة الأولى ليسانس ميدان لغة وأدب عربي بنظام (ل.م.د)

بعنوان:

محاضرات في النص الأدبي القديم

إعداد الأستاذ:

عبد العزيز نقبيل (أستاذ محاضر صنف" ب")

دكتوراه العلوم (تخصص أدب مغربي وأندلسي)

السنة الجامعية:1440هـ-1441هـ/2019- 2020م

بسم الله الرحمن الرحيم

عنوان الليسانس: الأدب العربي -السداسي الأول-

المادة المقدمة: نص أدبي قديم (شعر) محاضرة.

مفردات مقياس المادة:

المحاضرة الأولى: الشعر العربي القديم تاريخيا وجغرافيا.

المحاضرة الثانية: المعلقات مضامينها وأساليبها(نصوص من معلقة زهير، نصوص من معلقة امرئ القيس، نصوص من معلقة عنترة).

المحاضرة الثالثة: شعر الصعاليك(نصوص...لامية الشنفرى).

المحاضرة الرابعة: الشعر في صدر الإسلام، شعر الفتوحات(نصوص...).

المحاضرة الخامسة: المراثي النبوية(نصوص لمراثي الصحابة، نصوص لحسان بن ثابت).

المحاضرة السادسة: شعر النقائض(نصوص من نقائض جرير، الأخطل، الفرزدق).

المحاضرة السابعة: الشعر العذري والشعر العمري(نصوص من شعر جميل بن معمر، نصوص من شعر عمر بن أبي بيعة).

المحاضرة الثامنة: شعر الزهد والتصوف(نصوص من المشرق والمغرب، أبو العتاهية، ابن الفارض).

المحاضرة التاسعة: شعر الحماسة(نصوص لأبي تمام، نصوص للبحتري، نصوص للزوزني، نصوص للشاطبي، الحماسة المغربية لأبي الحجاج يوسف البياسي، نصوص للكوراني).

المحاضرة العاشرة: الشعر السياسي في المشرق والمغرب(الفتوحات، الشيعة، الخوارج، شعر السجون، رثاء المدن).

المحاضرة الحادي عشر: الشعر الفلسفي وشعر الحكمة(نصوص لأبي العلاء المعري، نصوص للمتنبي، نصوص لأبي تمام).

المحاضرة الثاني عشر: الموشحات والأزجال (نصوص لابن زمرك، نصوص للسان الدين بن الخطيب).

المحاضرة الثالثة عشر: الأدب الأندلسي(نصوص من أشعار ابن زيدون).

المحاضرة الرابع عشر: نصوص من الشعر الجزائري القديم(بكر بن حماد التيهرتي).

مقدمة

هذه محاضرات النص الأدبي القديم موجهة لطلبة السنة الأولى ليسانس القادمين من المرحلة الثانوية فقد حاولنا بقدر الإمكان تبسيط تقديمها للطلبة حتى يسهل الاستيعاب، باعتبار الطلبة حديث عهد بالجامعة، ومحاضرات الأدب العربي القديم غزيرة في مادتها، ومصطلح القديم يمتد من العصر الجاهلي(ما قبل 622هـ) إلى العصر الذي يوصف بعصر الانحطاط (923هـ-1798م) وعليه فالإطار الزماني للمقياس يشمل العصر الجاهلي، وعصر صدر الإسلام، والعصر الأموي، والعصر العباسي، والعصر المغربي والأندلسي وصولا إلى عصر الانحطاط.

تناولت المحاضرات الثلاثة الأولى الشعر الجاهلي بداية من إطاره الزماني والجغرافي وظواهره البارزة كشعر المعلقات وشعر الصعاليك، ثم عصر صدر الإسلام برمج فيه فريق التكوين محاضرتين تناولتا الشعر في صدر الإسلام، وشعر الفتوحات وشعر المراثي النبوية، ثم محاضرتين في العصر الأموي، أين تطرق المقرر لشعر النقائض الذي برز في العصر الأموي، واختص به كفن اتسم بميسم الأمويين وخاصة مع مثلث فن النقائض الأخطل وجرير والفرزدق، ثم محاضرة أخرى وهي الشعر العذري والشعر العمري، وهي أيضا موضوعات سجلت حضورها وأشعارها بأعلام أمويين على غرار الشاعر جميل من معمر جميل بثينة، والشاعر عمر بن أبي ربيعة صريع الغواني.

وبعد ذلك تناول المقرر محاضرات حول ظواهر شعرية مختلفة كالتصوف، والزهد، وشعر الحماسة، وموضوع الشعر السياسي في المشرق والمغرب وما يدور في فلكه من شعر الفتوحات، وشعر الفرق والمذاهب، وشعر السجون، وشعر رثاء المدن والممالك الزائلة خاصة في الشعر المغربي والأندلسي. كما عالجت هذه المحاضرات أيضا الشعر الفلسفي وشعر الحكمة من خلال نماذج شعرية لشعراء مثل أبي تمام والمتنبي وأبي العلاء المعري، ولم يغفل مقرر النص الأدبي القديم عن الشعر الأندلسي والمغربي، فتطرق إلى ظواهره الشعرية التي خلفتها قرائح الأندلسيين بمختلف إبداعاتهم، ومنها فن الموشحات والأزجال، ونصوص من أشعار ابن زيدون، كما تناولت المحاضرة الأخيرة من هذا المقرر نصوصا من الشعر الجزائري القديم، وذكر بعض أعلامه من الشعراء وخاصة ما تركه لنا الشاعر المطبوع بكر بن حماد التاهرتي.

وبعد أن أعددنا وقدمنا هذه المحاضرات ارتأينا أن نقدم بعض الملاحظات أهمها:

في العصر الجاهلي مثلا كان على أصحاب هذا المقرر أن يدرجوا فترة المخضرمين، وفي العصر الأندلسي تغافل المقرر عن شعر الطبيعة الذي يعد ظاهرة شعرية أندلسية وهو إيقونة الشعر الأندلسي، وفي المحاضرة الثالث عشر الموسومة بـ: الأدب الأندلسي نصوص من أشعار ابن زيدون، فهذا النموذج وإن كان يحفل بشاعر كبير إلا أنه لا يمثل الشعر الأندلسي، ففي الأدب شعراء أعلام وقضايا أخرى كان بالإمكان إدراجها في هذه المحاضرة، وفي المحاضرة الأخيرة التي تحمل عنوان: نصوص من الشعر الجزائري القديم بكر بن حماد التاهرتي، فبرأينا الشعر الجزائري لا يقتصر على دولة واحدة، فالتراث الشعري الجزائري بنصوصه وشعرائه حاضر في كل العصور الأدبية وفي كل الدول التي قامت على أرض الجزائر، بدءا من الرستميين حتى فترة الزيانيين التي أنتجت الكثير من الشعراء.

وتحضيرا لهذه المحاضرات اعتمدنا على عدد من المصادر والمراجع المختلفة واستقينا منها المعارف والمعلومات التي تفي بالغرض لمعالجة كل ما يتعلق بمحاورها التي تبحث في قضايا ونصوص الشعر العربي القديم، فكانت المعين لنا في استخراج الكثير من النماذج والشواهد المختلفة خدمة لمعلومات للمحاضرة، واعتمدنا أيضا في ذلك على مصادر ومصنفات أدبية تاريخية. كما استأنسنا بمجموعة من الدواوين الشعرية التي تعد مصدرا للشعر العربي القديم، وجمعنا كل ذلك في قائمة فهرس المصادر والمراجع.

ولا يفوتنا أن نذكر بعض الصعوبات التي واجهتنا أثناء إعداد هذه المحاضرات وهي صعوبات تعترض أي باحث، نذكر منها مشكلة العثور على بعض المصادر والمراجع، وضيق الوقت في انجاز المحاضرات وتقديمها للطلبة، فوقت السداسي المخصص لمقياس للنص الأدبي القديم لا يمكن تقديم فيه كل المحاور الكبيرة من الأدب العربي القديم، كما نعلم أن مادته ثرة غزيرة لا يكفيها من الزمن سداسي واحد، مما يضطر الأستاذ إلى اختصار المعلومات أحيانا تماشيا مع سلطان الوقت

المفروض بيداغوجيا، ولا سيما أن هذه المادة الأدبية نفسها لهذه العصور الأدبية كانت تدرس في زمن غير بعيد على مدار ثلاث سنوات.

وفي الختام أرجو أنني وفقت ولو بشكل يسير في إعداد هذه المحاضرات خدمة لطلبتنا، ولا يفوتني أن أقدم شكري إلى كل من قدم لي يد المساعدة من قريب أو بعيد وبالله التوفيق.

المحاضرة الأولى: الشعر العربي القديم تاريخيا وجغرافيا.

كلمة أدب:

كلمة أدب من الكلمات التي يتطور معناها في حياة العرب من البداوة إلى المدينة والحضارة، وقد اختلفت معانيها حتى أخذت معناها الذي يتبادر إلى أذهاننا اليوم الذي "هو الكلام الإنشائي البليغ الذي يقصد به التأثير في عواطف القراء والسامعين سواء أكان شعرا أم نثرا"[1] ففي العصر الجاهلي لم تجر الكلمة على ألسنة الشعراء وإنما نجد لفظة أدب بمعنى الداعي إلى الطعام، ومن ذلك قول الشاعر طرفة بن العبد[2]:

نحن في المشتاةِ ندعُو الجَفَلَى لا ترى الأدبَ فينا يَنْتَقِرْ

حينَ قالَ الناسُ في مجلسِهِم: أقتارٌ ذاك أم ريحُ قُطُرْ

ومن ذلك المأدبة بمعنى الطعام الذي يدعى إليه الناس، وأدب يأدب بمعنى صنع مأدبة أو دعا إليها[3] واستخدمت الكلمة على لسان رسول –الله صلى الله عليه وسلم– في معنى تهذيبي خلقي كما جاء في قوله: ((أدبني ربي فأحسن تأديبي))[4] إذن فانتقال الكلمة من معنى حسي وهو الدعوة إلى الطعام إلى معنى ذهني وهو الدعوة إلى المحامد والمكارم.

وفي العصر الأموي توظف الكلمة في المعنى الخلقي التهذيبي وتضيف إليه معنى جديدا يتعلق بالتعليم، فقد وجدت طائفة من المعلمين تسمى بالمؤدبين كانوا يعلمون أبناء الخلفاء ما تطمح إليه نفوس آبائهم من معرفة وثقافة؛ فكانوا يلقنونهم الشعر والخطب وأخبار العرب وأنسابهم وأيامهم في الجاهلية والإسلام.

1–شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط24، 2003، ص7.

2–طرفة بن العبد: الديوان، شرح محمد مهدي ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 2002، ص43.

المشتاة: أوقات الشتاء، الجفلى: الذين يدعون كل الناس إلى الطعام دون تسمية، الأدب: الذي يخص في دعوته إلى الطعام ينتقر: يتذمر، القتار: رائحة الشواء، القطر: العود الذي يتبخر به.

3–ابن منظور: لسان العرب، دار الحديث، القاهرة، مصر، دط، 2003، مادة (أدب).

4–رجاء أحمد مصطفى المبلغ: نداء المؤمنين في القرآن الكريم، المكتبة الأكاديمية للنشر، ط1، 2003، ج2، ص325.

وإذا انتقلنا إلى العصر العباسي وجدنا المعنيين التهذيبي والتعليمي يتقابلان في استخدام الكلمة، فقد سمى ابن المقفع رسالتين له تتضمنان ضروبا من الحكم والنصائح الخلقية والسياسية باسم الأدب الصغير، والأدب الكبير[1] وفي القرنين الثاني والثالث الهجريين وما تلاهما كانت كلمة أدب تطلق على معرفة أشعار العرب وأخبارهم، فأخذ الكتاب يؤلفون بهذا المعنى كتبا سموها كتب أدب على نحو كتاب البيان والتبيين للجاحظ(ت255هـ) وكتاب الكامل في اللغة للمبرد(ت285هـ) الذي جاء في مقدمته: "هذا كتاب ألّفناه يجمع ضروبا من الآداب ما بين كلام منثور وشعر مرصوف ورسالة بليغة"[2] وهناك كتب عديدة ألفت بهذا المعنى مثل كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة(276هـ) وكتاب العقد الفريد لأحمد بن عبد ربه الأندلسي(ت328هـ) وكتاب زهر الآداب وثمر الألباب للحصري(453هـ).

كما ألفت كتب تدل على قوانين وسنن تراعي الأدب عند طبقة خاصة منها: كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة، وأدب ابن النديم لابن كشاجم(350هـ)...

وفي العصر الحديث أصبحت تدل كلمة أدب على معنيين: معنى عام يقابل كلمة Litterature الفرنسية، والتي تطلق على كل ما يكتب في اللغة سواء كان علما أو فلسفة وكل ما ينتجه العقل والشعور يسمى أدبا، ومعنى خاص هو الأدب الخالص الذي يؤثر في عواطف القارئ والسامع على نحو ما هو معروف في صناعة الشعر وفنون النثر الأدبية كالخطابة والأمثال والقصص والمسرحية والمقامة وغيرها من الأجناس الأدبية.

الإطار الجغرافي للشعر العربي:

الشعر العربي هو الشعر الذي قاله العرب الذين يسكنون شبه الجزيرة العربية، وهو موطن العرب في جاهليتهم يمتد في رقعة واسعة ذات بقاع متباينة، يحدده علماء الجغرافيا بأنه مساحة مابين البحر الهندي في أقصى الجنوب إلى ما بعد دمشق في أقصى الشمال، ومابين بحر فارس

1-ينظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، ص8، 9.

2-المرجع نفسه، ص9.

ونهري دجلة والفرات في الشرق إلى البحر الأحمر بل إلى نهر النيل في الغرب، وبإيجاز نقول: هو موطن واسع تقارب مساحته ثلاثة ملايين كيلومتر مربع تحيط به المياه من ثلاث جهات، من الشرق الخليج الفارسي وبحر عمان، ومن الجنوب المحيط الهندي ومن الغرب البحر الأحمر[1]. في هذه الرقعة كانت تعيش الأمة العربية، ويختلف مناخها باختلاف طبيعة أرضها، ففيها شواظ من لهيب الحر يشوي الوجوه، وسموم تلوّح الأبدان، وفيها ثلوج تكلل الجبال، وصقيع يجمد الماء في أطراف الأحياء، وفيها مابين هذا وذاك مناخ معتدل، وفيها أمطار غزار تنساب أنهارا وجداول تقوم على ضفافها مدن وقرى، وتهتز الأرض فتخرج من ثمرها وبقلها وفاكهتها ما شاء الله لها.

هذا التنوع في المناخ وفي التضاريس حكم على العرب وأنشطتهم بالتنوع، ووجّه أساليب الحياة عندهم، فعرف قطانها العديد من الأنشطة كالزراعة والرعي والصيد والتجارة وبعض الحرف والصناعات، كما تذكر المصادر التاريخية أن للعرب قديما إمارات منها: التبابعة الذين سكنوا صنعاء، وأشهر ملوكهم بلقيس معاصرة النبي سليمان بن داود–عليه السلام– وإمارة المناذرة الذين كانوا بالعراق وعاصمتهم الحيرة، ومن ملوكهم عمرو بن هند، والنعمان الرابع ممدوح النابغة، والمناذرة غير مستقلين يخضعون لدولة الفرس، وإمارة الغساسنة وعاصمتهم دمشق والبلقاء ويخضعون للروم خضوع المناذرة للفرس، وغيرها من الإمارات مثل إمارة كندة وتغلب وبكر وعبس، وكانت الإمارة تتناول أكثر من قبيلة، والإمارات عربية في أخلاقها وعاداتها ولغتها[2]. يقسم النسابون القبائل العربية إلى قسمين كبيرين هما: – قسم عدناني مضري وهم عرب الشمال المنحدرون من عدنان ونزار ومضر.

– قسم قحطاني ينحدر من قحطان وهم عرب الجنوب.

1–عبد الرحمن عبد الحميد علي: تاريخ الأدب في العصر الجاهلي، دار الكتاب الحديث، القاهرة، مصر، دط، 2008، ص11.

2–ينظر: مارون عبود، أدب العرب مختصر تاريخ نشأته وتطوره وسير مشاهير رجاله وخطوط أولى من صورهم، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، دط، 2014، ص15.

ومن يرجع إلى مصادر الشعر الجاهلي يجد فيه الغمز باليمنية القحطانية والعدنانية والمضرية كما يجد فيه العصبيات مشتعلة بين القبائل على أساس الاشتراك في رابطة الدم[1].

هذه القبائل جميعها المتبدية منها والمستقرة في مدن كمكة والحيرة كانت تتحد في نظمها وقوانينها وتقوم على أساس القبيلة واشتراك أبنائها في أصل واحد وموطن واحد كما تشترك في تقاليد وأعراف تتمسك بها تمسكا شديدا، والرباط الذي يوثق الصلة بين أفراد القبيلة الواحدة هو العصبية القبلية، كما عرف أيضا المجتمع الجاهلي ظاهرة الأحلاف؛ والحلف هو إتحاد كبير يضم عدة قبائل، وكان للقبائل المتحالفة مجلس يضم شيوع عشائرها يطلق عليه اسم الندوة وهذا المجلس ينعقد مساء كلما دعا إلى ذلك أمر، فيتناقشون ويخطبون ويسمعون إلى ما ينظمه شعراؤهم كما ينظر في مختلف شؤون قبائلهم، يشير إلى ذلك زهير بن أبي سلمى في مدح هرم بن سنان[2]:

رأيتُ ذوي الحاجاتِ حول بيوتِهِم قطيناً بها حتّى إذا نَبـتَ البــقلُ

وفيهم مقامات حسان وجوهــهم وأندية ينتابها القول والفــعلُ

وإن جئتهم ألفيتَ حول بيوتــهم مجالسَ قد يُشفى بأحلامه الجهلُ

وما يك من خير أتوه فإنـــــما توارثه آباء أبائـهم قبـــــلُ

كانت قرارات هذه المجالس نافذة وجميع أفراد القبيلة تذعن لها ولا تشذ عليها وكل الأفراد يضعون أنفسهم في خدمتها وخدمة حقوقها، وعلى رأسها الأخذ بالثأر، وهي عصبية سيطرت على نفوسهم وقدسوها تقديسا، يصور الشاعر دريد بن الصِّمة هذا الموقف بقوله[3]:

وما أنا إلاّ من غَزيّةَ إن غَوَتْ غويتُ وإنْ تَرشَدْ غزيةُ أرشَدِ

فغيّه ورشده يرتبط بعشيرته غزية، فإن ضلت ضلّ معها، وإن اهتدت اهتدى معها وهو موقف يصور العصبية القبلية أيما تصوير.

1-ينظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، ص55،56.

2-زهير بن أبي سلمى: الديوان، شرح علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1988، ص7.

3-دريد بن الصمة: الديوان، تحقيق عمر عبد الرسول، دار المعارف، القاهرة، مصر، دط، 1985، ص62.

الشعر الجاهلي:

الشعر الجاهلي هو كل شعر قيل قبل فترة الإسلام، المنظوم على شكل أراجيز أو قصائد أو مقطوعات، يضم قصائد الفحول من الشعراء المعروفة بالمعلقات، وقد عبّر كله عن حياة العرب في الجاهلية، باعتباره مرآة الحياة العربية والصورة الصادقة لعاداتهم وتقاليدهم ومثلهم وفيه الكثير من القيم الفنية والصور الجميلة والمعاني الدقيقة، وهو النموذج المحتذى في العصور الأموية والعباسية يسعون إلى تقليده ومحاكاته، وقد بقي أثره واضحا في شعر العصور المتأخرة[1].

والشعر ديوان العرب وجامع أيامهم وأخبارهم "وكان الشعر في الجاهلية ديوان علمهم ومنتهى حكمهم به يأخذون وإليه يصيرون"[2] ويقول أبو هلال العسكري: "لا نعرف أنساب العرب وتواريخها وأيامها ووقائعها إلا من جملة أشعارها، فالشعر ديوان العرب وخزانة حكمتها ومستنبط آدابها ومستودع علومها"[3] وقد حمل الرواة الشعر القديم إلى عصر التدوين كما حافظت عليه القبائل وكثير من الأفراد وخاصة الشعراء والرواة وإن كان قد شابه شيء من الانتحال والوضع "فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر فلم يئلوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب فألفوا ذلك وقد هلك من العرب بالموت والقتل فحفظوا أقل ذلك وذهب عنهم منه أكثره"[4] ولم يقف هؤلاء الرواة عند رواية الشعر القديم؛ بل كانوا يجمعون كثيرا من الأخبار عن الجاهلية وأيامها ومن هؤلاء أبوعمرو بن العلاء(ت154هـ) وحماد الراوية(156هـ) وخلف الأحمر(180هـ) ومحمد بن السائب الكلبي(146هـ) والمفضل الضبي(ت170هـ) وقد استقوا رواياتهم من القبائل والأعراب والبدو[5].

1-ينظر: يحي الجبوري: الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط5، 1986، ص121.

2-ابن سلام الجمحي: طبقات الشعراء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، 2001، ص34.

3-أبو هلال العسكري: الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، 1952، ص138.

4-ابن سلام الجمحي: طبقات الشعراء، ص34.

5-ينظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، ص148.

بدايات الشعر الجاهلي:

لاشك أن المراحل التي قطعها الشعر العربي حتى استوفى في صورته الجاهلية غامضة فليس لنا أشعار تصور أطواره الأولى، وإنما مابين أيدينا هذه الصورة التامة لقصائده بتقاليدها الفنية في الوزن والقافية وفي المعاني والموضوعات وفي الأساليب والصياغة المحكمة، وهي تقاليد تلقي ستارا بيننا وبين طفولة هذا الشعر ونشأته الأولى، فقد حاول ابن سلام الجمحي الحفر في بدايات الشعر العربي في قوله: " لم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل في حادثة، وإنما قصدت القصائد وطول الشعر على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف"[1] وهناك نص للجاحظ أيضا يقول فيه: "وأما الشعر فحديث الميلاد وصغير السن أول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه امرؤ القيس بن حجر ومهلهل بن ربيعة... فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له –إلى أن جاء الله بالإسلام– خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام"[2]. وفي دواوين الشعر الجاهلي هناك ما يدل على محاكاة نماذج سابقة من الشعر العربي، ومنها ما نقرأه في ديوان امرئ القيس[3]:

عُوجاَ على الطللِ المحِيلِ لعلَّنَاَ نبكي الديّارَ كما بكى ابن خذامِ

وابن خذام أول من بكى الديار ووقف على الأطلال، وفي نفس الموضوع يقول عنترة[4]:

هل غادر الشعراءُ من متردّمِ أم هل عرفتَ الدارَ بعد توهُّمِ

فنون الشعر القديم:

1-الغزل:

يقوم أكثر الغزل على الوصف والتشبيب يحمل بعضه ذكريات عن المحبوب ويتخلله الحوار أحيانا لكنه لم يظهر فنا مستقلا بذاته، فقد كان في القصيدة الجاهلية غرضا من الأغراض المتعددة

1-ابن سلام الجمحي: طبقات الشعراء، ص35.

2-الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر: كتاب الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط2، 1965، ج1، ص74.

3-امرؤ القيس: الديوان، ضبط وتصحيح مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط5، 2004، ص156.

4-عنترة بن شداد: الديوان، تحقيق محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، القاهرة، مصر، دط، دت، ص88.

التي تتضمنها، إذ تستهل به ثم ينتقل الشاعر إلى غيره من المعاني، جعله الشعراء مطلع قصائدهم ليلفتوا إليهم الأسماع، فربطوا الطلل بالمحبوبة، وكان هذا الربط يترجم صدقهم للوطن والسكن، فجعلوا المرأة أقوى الوشائج التي تشدهم إلى منابتهم في حلهم وترحالهم، وكان وصفهم للجمال الخارجي شائعا، فتغزل الشعراء بأوصاف المرأة كالوجه والجسم، ومن نماذج وصف المحبوبة حبّ المرقش الأكبر لأسماء، والأصغر لفاطمة بنت المنذر، وقصيدة المنخل اليشكري التي فيها غزل صريح يبدو أنه قالها في هند بنت المنذر[1]:

ولقد دخلت على الفتا ةِ الخِدْر في اليوم المطـيرِ
الكاعبِ الحسناء تَرْ فُلُ في الدِّمَقْسِ وفي الحريرِ
فدفعتُـها فتدافعَـت مـشيَ القطاةِ إلى الغـديرِ

ويقول بشر بن خازم[2]:

دارٌ لبيضاء العـوارضِ طــفلةٍ مهضومةِ الكشْحَينِ ريَّا المِعْصَمِ
فَظللْتَ من فرطِ الصبابةِ والهوىَ طَرِفاً فؤادُكَ مثل فـعل الأهْيَـمِ

ويذكر النقاد أن امرئ القيس تغزل بالنساء وأكثر منه، وتحرر من العادات الاجتماعية حتى عدّ أول من تعهر بالنساء من الشعراء "وكان العرب عموما في الجاهلية ما عدا النابغة وامرؤ القيس على سنة أقوامهم من الغيرة والأنفة، لذلك ظهر النسيب فيهم طبيعيا فقامت فيه الطلول والآثار، وتشوقوا بالرياح العاتية والبروق اللامعة والحمائم الهاتفة والخيالات الطائفة، وبكوا على آثار الديار العافية وأشخاص الأطلال الدائرة"[3]. يقول امرؤ القيس[4]:

إذا التفتتْ نحوي تَضوَّع ريحُها نسيمَ الصِّبا جاءتْ بريَّا القرنفلِ

1-عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط4، 1981، ج1، ص169.
2-بشر بن أبي خازم: الديوان، شرح مجيد طراد، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط1، 1994، ص141.
3-ينظر:الرافعي: تاريخ آداب العرب، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، دط، 2012، ص807.
4-امرؤ القيس: الديوان، ص115.
تضوّع: فاح وانتشر، ريا القرنفل: ريح زهر، نولييني: أعطيني، هضيم الكشح: ضامرة الوسط، ريا المخلخل: ملأى الساق وهو مكان الخلخال، مهفهفة: خفيفة اللحم، مفاضة: مسترخية البطن، الترائب: موضع القلادة من الصدر، مصقولة: مجلوة، السجنجل: المرآة الصافية.

إذا قلتُ هاتي نُوِّليني تمايلتْ عليَّ هضيم الكشح ريَّا المخلخلِ

مهفهفةٌ بيضاءُ غيرُ مُفَاضـةٍ ترائبُها مصقولةٌ كالسَّـــــجَنْجَلِ

تَصدُّ وتُبْدي عن أسيلٍ وتَتَّقي بناظرة من وحش وَجْرَةَ مطــفلِ

تطور هذا الفن بعد ذلك في العصور التي تلت العصر الجاهلي خاصة في العصر الأموي والعصر العباسي وشهد ظهور شعراء كعمر بن أبي ربيعة، كما ظهر الشعر العذري بأعلامه مثل جميل بن معمر في العصر الأموي، وظهر أبو نواس وبشار بن برد وغيرهما في العصر العباسي.

2-المدح:

يعد المدح من أهم الأغراض التي قال فيها شعراء الجاهلية؛ ذلك أن الإعجاب بالممدوح والرغبة في العطاء تدفعان الشاعر إلى إتقان هذا الفن من القول، فيسعى الشاعر إلى قول الشعر الجيد الذي يتضمن الشكر والثناء، وقد يكون المديح وسيلة للكسب، والصفات التي يُمْدَحُ بها الممدوح هي: الكرم والشجاعة ومساعدة المحتاج والعفو عند المقدرة وحماية الجار، فمدح الشعراء ملوك المناذرة في الحيرة أو ملوك الغساسنة بالشام وأخذوا عطاءهم وجوائزهم، وكانت صلة طرفة بن العبد والمتلمس والنابغة الذبياني وثيقة بملوك الحيرة، وصلة النابغة بالنعمان بن المنذر أقوى من غيره من الشعراء وهذا يدل على أن قوة الشاعر في الجاهلية مرتبطة بتقدمه في هذا الغرض الذي هو غرض المدح، ولا يقل بلاط الغساسنة عن بلاط المناذرة في استقبال الشعراء فهم (أي الغساسنة) يغدقون المال الوفير على من يمدحهم من الشعراء، ومن أشهر الشعراء الذين يفدون على ملوك غسان حسان بن ثابت، ومن فحول الشعراء من جعل غُرَّ قصائده في رؤساء قومه كما فعل زهير بن أبي سلمى.

وإذا رجعنا إلى دواوين الشعر الجاهلي وجدنا المدح يحتل نسبة عالية من هذه الدواوين، وهذا دليل على أنه الغرض المقدم على غيره عند الشعراء.

3-الفخر والحماسة:

الفخر هو الاعتزاز بالفضائل الحميدة التي يتحلى بها الشاعر أو تتحلى بها قبيلته، والصفات التي يفتخر بها الشعراء هي الشجاعة والكرم والنجدة ومساعدة المحتاج، والفخر يشمل جميع الفضائل. أما الحماسة فهي الافتخار بخوض المعارك والانتصارات في الحروب، فالحماسة تدخل في الفخر ولكن ليس كل فخر حماسة، فنجد الحماسة في أشعار عنترة العبسي وعمرو ابن كلثوم، ومعلقة عمرو بن كلثوم تفيض بالحماسة، فقد جمع ربيعة بن مقروم في هذه الأبيات معظم الصفات التي يفخر بها الشعراء؛ من بناء المعالي عن طريق الكرم والبذل لمن يستحق العطاء، ومن الوفاء بالحقوق، ومن الانتساب إلى قوم كرام يهينون أموالهم في سبيل المجد، ولم ينص الحماسة بل جعل لها نصيباً من فخره فقومه بنو الحرب يعرفونها جيداً ويلبسون السلاح الملائم لها.

4-الهجاء:

سبيل الشاعر إلى غرض الهجاء وهدفه منه هو تجريد المهجو من المثَل العليا التي تتحلى بها القبيلة، فيجرد المهجو من الشجاعة فيجعله جباناً، ومن الكرم فيصفه بالبخل، ويلحق به كل صفة ذميمة من غدر وقعود عن الأخذ بالثأر، بل إن الشاعر يسعى إلى أن يكون مهجوه ذليلاً بسبب هجائه، ويؤثر الهجاء في الأشخاص وفي القبائل على حد سواء فقبيلة باهلة ليست أقل من غيرها في الجاهلية ولكن الهجاء الذي تناقله الناس فيها كان له أثر عظيم وهذا هو السر الذي يجعل كرام القوم يخافون من الهجاء ويدفعون الأموال الطائلة للشعراء اتقاء شرهم. وممن خاف من الهجاء الحارث بن ورقاء الأسدي؛ فقد أخذ إبلاً لزهير ابن أبي سلمى الشاعر المشهور، وأسر راعي الإبل أيضاً فقال فيه زهير أبياتاً منها:

5-الرثاء:

هو إظهار الحزن والأسى والحرقة، وتبرز جودة الرثاء إذا كان في ابن أو أخ أو أب؛ فرثاء دريد بن الصمة لأخيه عبد الله من أجود الرثاء، ورثاء الخنساء يعتبر من الرثاء المؤثر في النفوس، وكانت تشهد عكاظاً وتدور في السوق وهي في هودج على جمل وقد وضعت علامة على هودجها

ثم تقوم بإنشاد الشعر فتؤثر في من تمر به، وقد تكون اللوعة بادية في الرثاء وإن لم يكن في قريب نجد ذلك في رثاء أوس بن حَجَر لفَضَالَة بن كَلَدة حيث يقول:

ومن خلال تتبعنا لأبيات هذه القصيدة يتبين لنا أن الرثاء مدح للميت ونشر لفضائله؛ فأوس ذكر في أبياته أن فضالة يتصف بالسماحة والنجدة والحزم والذكاء والتدبير الحسن، وهذه من الصفات التي يمدح بها فضالة عندما كان حياً فالرثاء في الجاهلية تذكير للناس بما كان يتصف به ذلك الرجل الذي اختطفته يد المنون. وغيرها من أغراض الشعر الجاهلي كالوصف والاعتذار والحكمة.

خصائص الشعر الجاهلي:

الطابع البدوي:

إذا كان الشعر مرآة الحياة البدوية، فقد صور الشعر الجاهلي ما فيها من حيوانات ونباتات وديار وقوافل، فكل مظاهر الشعر ومعانيه وصوره وخياله ومفرداته وأفكاره ومثله وعصبيته تعبير للبيئة وتصوير لها. وكان الشاعر بسيطا في وصف بيئته الحسية وخياله ضيق"بسبب اشتداد المحسوسية عنده وسيطرة المادية على مجمل كيانه وهو بعيد عن الاستقرار الذي يفسح له المجال للتأمل العميق فتراه يعمد إلى الصورة القريبة التي من حوله فيتحول عنده الخيال إلى تراكم ألفاظ وتشبيهات أكثر مما ينطلق في عالم الخلق التصويري والإبداع الشخصي"[1] وقد كان هذا الأثر البدوي ظاهرا في لغة الشعر الجاهلي.

الوضوح والصدق:

صور الشعر الجاهلي البيئة تصويرا واضحا بسيطا يلائم الفطرة البدوية والمجتمع البدوي، ولاشك أن البساطة والوضوح هما أثر من آثار البيئة وصفاء الذهن واعتدال المزاج، فلا فلسفة بعيدة ولا تعال على الواقع ولا تعقيد يحكم علاقات الأفراد، ولا قوانين ووسائل عيش معقدة تنعكس

1-حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي، دار الجيل، بيروت، لبنان، دط، دت، ص162.

على التفكير والعقل لذلك تمكن الشاعر الجاهلي من نقل الأحداث بواقعية، ولذلك أيضا كانت العرب ترفض المغالاة في المعنى كحكمها على قول المهلهل الذي يقول[1]:

فلولا الريحُ أُسْمِعُ من بحُجرٍ صليلَ البيضِ تُقْرَعُ بالذكورِ

دقة التعبير وحسن التصوير:

يؤكد الباحثون أن كثيرا من النصوص الشعرية القديمة ترسم لوحات فنية دقيقة التفاصيل، والمقدمة الطللية خير دليل على ذلك، ووصف الرحلة ووصف الحيوان ومن أمثلة ذلك: وصف الصعاليك لحياتهم في المفاوز والقفار، وفي معاركهم ضد الموت والجوع والفقر، يصف امرؤ القيس فرسه بقوله[2]:

وقد أغتدي والطيرُ في وكَناتِهَاَ بمنجــردٍ قيـد الأوابـد هيكـتلِ

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مقــبلٍ مُدْبِـرٍ معاً كجلمودِ صخرٍ حطَّهُ السَّيلُ مِنْ علِ

وقوله في وصف الطبيعة[3]:

أصاحَ ترى برقاً أريكَ وميضَهُ كلمْعِ اليدينِ في حَبِيّ مكلَّلِ

يُضئُ سَناهُ أو مصابيح راهبٍ أهانَ السليطَ في الذُّبالِ المفتّلِ

1-مهلهل بن ربيعة: الديوان، شرح وتقديم طلال حرب، الدار العالمية، بيروت، لبنان، ط1، دت، ص41.

حجر: قرية باليمامة، الصليل: صوت ذو رنين، البيض: الخوذ، الذكور: السيوف.

2-امرؤ القيس: الديوان، ص118،119.

أغتدي: أخرج بفرسي في غدوة النهار، وكناتها: أوكارها، المنجرد: الفرس القصير الشعر، الأوابد: الوحوش الآبدة قيدها، الهيكل: الفرس الطويل المتين الخلق، مكر مفر: فرس معاود الكر والفر، مقبل مدبر: حسن الإقبال والإدبار في العدو.

3-المصدر نفسه، ص121.

أصاح: أصاحبي، أريك وميضه: أبصرك لمعانه كلمع اليدين، حبي المكلل: السحاب المتراكم، سناه: ضوءه، مصابيح راهب: سرجه وقناديله، أهان السليط: أكثر من الزيت، الذبالة: الفتيلة.

ويقول طرفة بن العبد في وصف فرسه[1]:

وإنِّي لأَمْضي الهمَّ عند احتضارِهِ بِعَوْجاءَ مرقالٍ تروحُ وتَغْتدِي

أَمونٍ كأَلْواحِ الأرانِ نَصَأْتُها على لاحبٍ كأنَّهُ ظَهْرُ بُرْجُدِ

جماليةٍ وجناءَ تَرْدِي كأنّها سَفنَّجةٌ تَبْري لأزعرَ أرْبَـدِ

تُباري عِتاقاً ناجياتٍ وأتبعَتْ وظيفاً وظيفا فوق مَوْرٍ مُعَبّدِ

1-طرفة بن العبد: الديوان، ص20.

الاحتضار: الحضور، العوجاء: الناقة النشيطة، المرقال: الناقة التي تسير سيرا شديدا، الأمون: الناقة التي يطمئن راكبها، الأران: التابوت الكبير، النصأة: الزجرة، اللاحب: الطريق السهل، البرجد: الثوب المخطط، الجمالية: الناقة القوية الشبيهة بالجمل، الوجناء: الكثيرة اللحم، تردي: تعدو، السفنّجة: النعامة، تبري: تظهر، الأزعر: خفيف الشعر، الأربد: مغبر اللون كالرماد، العتيق: الكريم، الناجيات: الناجية الناقة السريعة، الوظيف: عظم مابين الرسغ إلى الركبة، المور: الطريق المعبد.

المحاضرة الثانية: المعلقات مضامينها وأساليبها(نصوص من معلقة زهير، نصوص من معلقة امرئ القيس، نصوص من معلقة عنترة).

تمهيد:

المعلقات هي مجموعة من القصائد المنظومة في العصر الجاهلي، وعدت من أجود ما قالته العرب، وأصحابها من أشهر شعراء الجاهلية اختلف القدماء في عددها وفي تسميتها فمنهم من يقول ثماني معلقات، ومنهم من يقول عشرة ومنهم من يقول سبعة، والعدد سبعة هو الأرجح عند الباحثين، والبعض يضيف ثلاثة آخرين، وأصحاب المعلقات هم: امرؤ القيس، وزهير بن أبي سلمى، وعنترة بن شداد، ولبيد بن ربيعة، وطرفة بن العبد، وعمرو بن كلثوم، والحارث بن حلّزة، وأما الثلاثة الآخرون فهم: النابغة الذبياني، والأعشى، وعبيد بن الأبرص، وسميت أيضا بالقصائد الطوال وبالسموط تشبيها لها بالقلائد والمذهبات على اعتبار أنها كتبت بماء الذهب وعلقت على أستار الكعبة[1].سميت بالمعلقات لأنها تعلق بالأذهان وهو الرأي الراجح، والمعلقات نماذج رائدة من عيون الشعر الجاهلي في منتهى الجودة والإحكام، عدّها النقاد مقياسا للشعر العربي القديم لما تحمله من تقاليد شعرية، وقيم تمثل حياة العربي في العصر الجاهلي، وللمعلقات قيمة أدبية تتجلى في تصويرها للبيئة الجاهلية وحياة العربي في هذه الفترة في كل المجالات المختلفة، وموضوعاتها متنوعة وأسلوبها قوي متين.

نماذج من المعلقات وموضوعاتها:

أولا–معلقة امرئ القيس:

امرؤ القيس من قبيلة كندة وهي يمنية تنزل غربي حضرموت، هاجرت منها جماعة كبيرة إلى الشام، ومنهم أمير يسمى حجرا آكل المرار أبو امرئ القيس قتلته قبيلة بني أسد[2] وتتردد لامرئ

1–ينظر: أبو زيد القرشي: جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، تحقيق علي محمد البجاوي، نهضة مصر للطباعة، القاهرة، مصر، دط، دت، ص113.

2–شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، ص233.

القيس أسماء كثيرة فيسمى حندجا، وعديا، ومليكة، ويلقب بذي القروح، والملك الضلّيل وأشهر ألقابه امرئ القيس، والقيس من الأصنام الجاهلية، أمه فاطمة بنت ربيعة أخت كليب ومهلهل التغلبيين[1].

تذكر المصادر أنه لما أتاه خبر مقتل أبيه كان بدمون من أرض اليمن قال: ضيعني صغيرا وحملني دمه كبيرا، لا صحو اليوم ولا سكر غدا، اليوم خمر وغدا أمر[2]

تتكون معلقة امرئ القيس من ثمانية وسبعين بيتا من الشعر، وتضمن عدة موضوعات نلخصها في ما يلي:

1-الوقوف على الديار وبكاء الأطلال يقول في مطلع معلقته[3]:

قِفَا نَبْكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ بسِقطِ اللّوى بين الدَّخول فحَوْمَلِ

فتُوضِحَ فالمِقْراةِ لم يعْفُ رسْمُها لما نَسَجَتْهاَ من جَنوبٍ وشَمْـــأَلِ

ترى بَعَرَ الأرْآمِ في عَرصاتِها وقيــعانها كأنَّـهُ حَبُّ فلفـلِ

2-يخاطب بعد ذلك صاحبته مستعيدا ذكرياته معها يقول[4]:

أَفاطِمَ مهلاً بعضَ هذا التَّدلُّلِ وإنْ كنتِ قد أزمعتِ صَرمي فأجْمِلي

أغرَّكِ منّي أنَّ حبَّكِ قاتِلي وأنَّكِ مهما تأمري القلبَ يفعـلِ

3- وصف الليل، يقول في معلقته[5]

وليلٍ كموجِ البحرِ أرخى سُدولَهُ عليَّ بأنواعِ الهُمومِ ليَبْتَلِي

4- رحلة الصيد ووصف الحصان، يقول الشاعر[6].

1-المرجع السابق: ص236.

2-المرجع نفسه: ص237.

3-الزوزني عبد الله الحسن بن أحمد: شرح المعلقات السبع، تحقيق محمد عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، لبنان، دط، 2007، ص9،10،11.

4-المصدر نفسه: ص21،22.

5-المصدر نفسه: ص37.

6-المصدر نفسه: ص42،43.

وقد أَغتَدِي والطَّيرُ في وكناتِهَاَ بمنجردٍ قيدِ الأوابدِ هَيْكَلِ

مِكرٍّ مِفرٍّ مُقبلٍ مدبرٍ معاً كجلمودِ صخرٍ حطَّهُ السَّيلُ من عَلِ

5- وصف البرق والمطر، نقرأ ذلك في قوله[1].

أصاحِ تَرَى برقاً أُريكَ وميضَهُ كلمعِ اليدينِ في حَبِيّ مكلَّـلِ

يضئُ سناهُ أو مصابيحُ راهبٍ أمالَ السليطَ بالذُّبالِ المفتَّـلِ

يقف الشاعر في معلقته بمنزل الحبيب، ويصف الرسوم ويتحدث عن صلاته بصواحبه وأيام لهوه وسروره وبلائه في الحب وفتنته للغواني، ثم يصف الليل وما يثير في نفسه من مشاعر و يصف الوادي القفر وعواء الذئب فيه، والفرس والصيد والبرق والمطر والسيل.

ثانيا: معلقة زهير بن أبي سلمى:

هو زهير بن أبي سلمى بن رياح المزني فهو من مزينة، ومزينة من مضر عاصر الشاعر زهير الحرب التي نشبت بين عبس وذبيان، وقد دار شعره على التنفير من الحرب والدعوة إلى السلم، والإعجاب بسيدين من مرّة سعيا بالصلح بين عبس وذبيان، وهما: الحارث بن عوف وهرم بن سنان، وكان هرم كثير العطايا لزهير، وكان زهير يستحي منه حتى أنه قال: "عموا صباحا غير هرم وخيركم ما استثنيت" عاش زهير في بيت شعر، فأبوه ربيعة كان شاعرا وخال أبيه بشامة بن الغدير شاعر، وزوج أمه أوس بن حجر شاعر مضر، وكانت أختاه الخنساء وسلمى شاعرتين ثم كان ابناه كعب وبجير شاعرين، وكان حفيده عقبة بن كعب شاعرا[2] .

تتكون معلقة زهير من تسعة وخمسين بيتا تتضمن وصف الديار وارتحال الظعائن ومدح السيدين ووصف الحرب وإرسال الحكم، ومن أهم موضوعاتها:

1-الوقوف على الأطلال. يصور الشاعر الهدوء الذي انتاب الديار بعد ذهاب أهلها يقول[3]:

1-المصدر السابق: ص53،54.

2-ينظر: محمد صبري الأشتر: العصر الجاهلي الأدب والنصوص المعلقات، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، جامعة حلب، حلب، سورية، دط، 1994، ص135.

3-الزوزني: شرح المعلقات السبع، ص105.

أَمِنْ أمِّ أوفَى دِمْنَةٌ لمْ تَكلّـَمِ بِحَوْمانَـةِ الدرّاجِ فالمتَـثَـلّمِ

ودارٌ لها بالرَّقْمَتَينِ كأنَّـــهاَ مراجيعُ وشْمٍ في نواشرِ مِعْصَمِ

بها العِينُ والأرآمُ يَمْشِينَ خِلْفةً وأطلاؤهاَ ينْهضْنَ من كلّ مَجْثِمِ

وقفتُ بها منْ بعدِ عشرين حِجّةً فلأياً عرفتُ الدارَ بعد توهُّـمِ

2-وصف موكب الارتحال(الظعائن) يقول زهير[1]:

تَبَصَّرْ خليلي هلْ ترى منْ ظعائن تَحمَّلنَ بالعلياءِ من فوقِ جُرْثُمِ

جَعلْنَ القَنانَ عن يمينٍ وحُزْنَهُ وكم بالقنان مِنْ مُحِلّ ومُحْرِمِ

3- مدح رجال السلام والإصلاح. فبعد الوقوف على الأطلال والنسيب خلص إلى هدفه الأسمى وغرضه الأساس في المعلقة وهو مدح الحارث بن عوف وهرم بن سنان وهما سببا إيقاف حرب مدمرة عانى منها العرب طويلا فهما من أصلحا بين عبس وذبيان وتحملا ديات القتلى رغبة منهما في حقن الدماء وإيثارا للسلم يقول في هذا الغرض[2]:

فأقسمتَ بالبيتِ الذي طافَ حولهُ رجالٌ بَنَوْهُ من قريشٍ وجُرْهُـمِ

يميناً لَنِعْمَ السَّيدانِ وُجِدْتُـــــمَا على كل حالٍ منْ سَحيلٍ ومُبْرَمِ

تداركتما عبْساً وذبيانَ بعدمـــــاَ تَفانَوْا ودقُّوا بينهم عطرَ مَنشـمِ

وقد قلتما إن نُدْرِكِ السِّلمَ واسعـاً بمالٍ ومعروفٍ من القولِ نسْلَمِ

4-وصف الحرب. يقول في معلقته[3]:

وما الحربُ إلاّ ما عَلمتمْ وذُقتمُ وما هو عنها بالحديثِ المرَجَّمِ

متى تَبْعَثُوهاَ تبعثُوها ذَميـــمَةً وتَضْرَ إذا ضَرَّيْتُموها فتَضْـرَمِ

5-الحكم. يقول في باب الحكمة[4]:

1-المصدر السابق: ص108.

2-المصدر نفسه: ص112.

3-المصدر نفسه: ص116.

4-المصدر نفسه: ص124،125.

رأيتُ المنايا خَبْطَ عشواءَ منْ تُصــبْ تُمْتْهُ ومن تُخطئْ يُعمَّرْ فيهرَمِ

ومنْ لم يصانعْ في أمورٍ كثـــــيرةٍ يُضَرَّسْ بأنيابٍ ويُوطأ بمَنْسِمِ

ومنْ يجعلِ المعروفَ من دونِ عِرْضِهِ يَفِرْهُ ومنْ لا يتَّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمِ

ومنْ هابَ أسبابَ المنايا يَنَلْـــنَهُ وإنْ يَرْقَ أسبابَ السّماءِ بسلَّمِ

ومنْ يجعلِ المعروفَ في غير أهلـهِ يكنْ حمدُه ذمًّا عليهِ ويَنْدَم

إن معلقة زهير بن أبي سلمى هي وقوف بديار أم أوفى، ووصف لآثارها وتصوير لارتحال الظعائن، ومدح السيدين الكريمين الذين أصلحا بين المتحاربين، ثم يستطرد في مدحهما إلى وصف الحرب، ثم يعود إلى المدح ويختتم القصيدة بإيراد بعض الحكم.

ثالثا– عنترة بن شداد العبسي:

هو عنترة بن شداد من قبيلة عبس إحدى قبائل مضر، ويعد أحد أغربة العرب وهم ثلاثة: عنترة بن شداد، وخفاف بن عمير، والسليك بن السلكة، تقدمه المصادر على أنه من أشجع العرب وأعلاهم همة وأعزهم نفسا، ويضرب به المثل كأنموذج الفتى الكامل المروءة والشجاعة شارك في حرب داحس والغبراء، أحب بنت عمه عبلة في شبابه ولكن عمه رفض زواجها منه لأنه كان عبدا في ذلك الوقت، فهو من زبيبة حبشية سوداء سباها أبوه في إحدى معاركه، وظل عبدا؛ لأنه كان من عادة العرب ألا يعطوا الحرية لأولاد الإماء، إلا أنه حصل على حريته من خلال أمجاده وفروسيته، فألحقه أبوه بنفسه وزوجه عبلة لأنه أصبح في عداد الأحرار[1].

معلقته مزيج من القوة والشجاعة والمروءة، تتكون من اثنين وثمانين بيتا تضمنت الموضوعات الآتية:

1–تحدث عن الأطلال والارتحال في قوله[2]:

هلْ غادرَ الشعراءُ منْ مُتَرَدَّمِ أم هلْ عرفتَ الدّارَ بعد توهُّـمِ

1–شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، ص172.

2–الزوزني: شرح المعلقات، ص197،198.

يادارَ عبلةَ بالجواءِ تكلَّمـــي وعِمِي صباحاً دارَ عبلةَ واسْلَمِي

فوَقَفْتُ فيها ناقتي وكأنّـــَها فَدَنٌ لأقْضِيَ حاجةَ المتَلَـوِّمِ

حُيِّيتَ من طللٍ تقادمَ عهـدُهُ أقْوَى وأقْفَرَ بعدَ أمِّ الهـــيثَمِ

وقد خلع على حبيبته أوصافا شتى تدل على مدى تعلقه بها وحبها له، فهي كالروضة الجميلة وثغرها في عذوبته كالمسك، نقرأ ذلك في قوله[1]:

إذْ تَسْتَبيكَ بذي غُروبٍ واضحٍ عَذْبٍ مُقَبَّلُهُ لذيذِ المطعـــمِ

وكأَنَّ فارةَ تاجرٍ بقســـيمةٍ سبقتْ عوارضُها إليك منِ الفمِ

أوْ روضةٌ أنُفاً تَضَمَّنَ نَبتُـــها غيثٌ قليلِ الدِّمَنِ ليسَ بمَعـــلَمِ

2-وصف الناقة، والناقة تعد مصدر فخر الشاعر، فلا بد من الحديث عنها في معلقته[2]:

هلْ تُبَلِّغَنِي دارَهَا شَدَنِيَّةٌ لُعِنَتْ بمحرومِ الشرابِ مصرَّمِ

خَطارةٌ غِبَّ السُّرى زيَّافَةٌ تَطِسُ الإكَامَ بوخذِ خفٍّ مِيثَمِ

3-الاعتداد بالنفس وبشجاعته وأمجاده، نلمس هذه المعاني في قوله[3]:

لما رأيتُ القومَ أقبلَ جمعُهمْ يتذامرونَ كَرَرْت غيرَ مُذَمَّـمِ

يَدْعُونَ عنترَ والرّماحُ كأنَّها أشطانُ بئرٍ في لَبانِ الأدْهَمِ

مازلتُ أرْميهِمْ بثغرةِ نَحْرِهِ ولَبَانهِ حتى تسربلَ بالدَّمِ

سار عنترة في معلقته على درب شعراء المعلقات في تكوينها ومعانيها، بدأها بالوقوف على الأطلال فوقف بدار عبلة يصف آثارها ويعبر عن عاطفته ويصور عزم صاحبته على الرحيل، ثم يصف فمها ومتعة تقبيله وطيب رائحته، ويستطرد في هذا إلى وصف فرسه وناقته ثم يتمنى لقاء عبلة، ويتوسل بهذا إلى وصف ناقته التي ستبلغه دارها ثم يعود إلى خطاب عبلة مفتخرا بصفاته

1-المصدر السابق، ص201،202.

2-المصدر نفسه، ص204.

3-المصدر نفسه، ص217،218.

ومعتدا بنفسه متضمنا بعض الخلال التي تجعل منه شخصا مهما داخل قبيلته، كقوة صبره في المعارك وحضوره عند الشدائد.

فالمعلقة وقوف بدار عبلة وتغزل بها ووصف للطبيعة الصامتة والمتحركة وفخر بالنفس. والموضوعات التي تضمنتها قصائد المعلقات كثيرة ومتنوعة نحصرها في الموضوعات الآتية: وصف الأطلال، والنسيب، والخمر، المدح، والاعتذار، والفخر والحماسة، والوصف، والحكم والنظرات.

المعاني والصور:

امتازت المعاني في قصائد المعلقات بالبساطة والوضوح وابتعدت عن التكلف والمبالغة فالشاعر كان يتغنى بذاته ويعبر عن أحاسيسه ومشاعره ويصور الأشياء من حوله دون أن يمس جوهرها، فشعره مرآة صافية عكست حياته العربية البدوية وبيئته المختلفة من أودية وجبال وصحاري وطير وحيوان ونبات...

فالمعاني عنده تقريرية تعود على ذكر الحقيقة عارية من كل ثوب يغيرها، ومن كل لون يزيفها، فإذا أراد الشاعر أن يصور معركة دارت بين قومه وخصومهم صور مشاهد القتال وما كان فيها من كر وفر وتصادم وتلاحم وهزيمة وقتل وأسر وسبي، واعترف بهزيمة قومه إن هزموا، وبنصر أعدائهم إن نصروا فهو يصور الحقيقة والواقع وينقله نقلا أمينا إلى واقع الشعر. وتمتاز معاني المعلقات بالحسية والمادية التي تغلب عليها نزعة تصوير المعاني.

كما تمتاز المعلقة بجزالة اللفظ ومتانة التركيب، وتقوى الجزالة فيها حتى تدنو من الغرابة ففي وصف الأطلال، نجد أسماء مواضع الديار وهي أسماء لاصقة بماضي الشعراء وذكرى أحبابهم، ومن هنا اتسمت بالغرابة، كما نجد ألفاظا تصور آثار الديار وما بها من أحجار كالدمن والأطلال والرسوم والأواري والأثافي والنؤى والحوض كما جاء في قول زهير[1]:

ودارٌ لها بالرّقْمَتينِ كأنَّها مراجيعُ وشمٍ في نواشرِ مِعصمِ

1-المصدر السابق، ص105، 107.

أثافيَّ سُفْعاً في مُعرَّسِ مِرْجَلٍ ونُؤْياً كجِذْمِ الحوضِ لم يَتَـــلثَّمِ

ونجد ذكر الرياح والأمطار والسيول التي فعلت فعلها في الطلول من جنوب وشمأل وجود ورهام وسحابة سارية غاد مدجن...يقول لبيد بن ربيعة[1]:

رُزِقْتَ مرابيعَ النُّجومِ وصابَهاَ وَدْقُ الرَّواعِدِ جَودُها فرِهامُهاَ

منْ كلِّ سارِيةٍ وغادٍ مُدْجِـــنٍ وعَشِيةٍ متجاوبٍ إرْزامُـــهاَ

وجَلاَ السُّيولُ عنِ الطُّلولِ كأنَّهَاَ زُبُرٌ تُجِدُّ متونَهَا أقلامُـــــهاَ

ونجد أيضا ألفاظا تعبر عن القدم والخراب والفناء والتحول كالدروس والعفاء والتردم والتقادم والإقواء والأقفار والجدوب... كما جاء في قول عنترة[2]:

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهمِ

حييت من طلل تقادم عهده أقوى أقفر بعد أم الهيـثمِ

وترد ألفاظا في النسيب تعبر عن عاطفة البين والشوق كالبكاء والعبرات والأسى والدموع وهي ألفاظ تطبع وصف الأطلال بطابع الحزن والأسى واللين والانكسار مثل قول امرئ القيس[3]:

قفَا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ بسقطِ اللّوى بين الدَّخُولِ فحَومَلِ

وقول طرفة بن العبد[4]:

وقوفاً بها صحبي عليّ مطيَّهُمْ يقولون لا تَهْلِكْ أسىً وتَجَلَّدِ

ويقف قارئ المعلقة على مادة لغوية في وصف المرأة، فصاحبة امرئ القيس مهفهفة بيضاء غير مفاضة ذات خد أسيل غير فاحش ولا معطل، وفرع أسود فاحم أثيث، وغدائر مستشرزات إلى العلا، وكشح لطيف مخصر، يقول امرؤ القيس[5]:

1-المصدر السابق، ص133، 135.

2-المصدر نفسه، ص197، 198.

3-المصدر نفسه، ص9.

4-المصدر نفسه، ص66.

5-المصدر نفسه، ص32، 33.

وفرعٍ يَزينُ المتْنَ أَسْودَ فاحمٍ أثيثٍ كقِنْوِ النخلةِ المتَعَثْـــكلِ

غدائرهُ مُسْتَشْرِزاتٌ إلى العُلا تَضِلُّ العِقاصُ في مثنًّى ومرسَــلِ

الصور:

صوّر شعراء المعلقات ما وقع تحت سمعهم وبصرهم من مناظر الصحراء، فكثرت الصور في شعرهم، ولجأوا في كثير من الأحيان إلى التشبيه والاستعارة والكناية يصورون بها معانيهم وأحاسيسهم ويغلون في التصوير أحيانا، كما استخدموا التمثيل وهو تصوير المعنى المجرد بشيء مجسم أو تصوير الكائن الجامد بشخص يحس ويعقل، وهو ما يعرف بالتجسيم أو التشخيص. واستمد الشاعر عناصر صورته من محيطه ومجتمعه وبيئته، وما فيها من حيوان ونبات وثمر وزهر، وتأمل حياة القبيلة وما فيها من عادات ومعتقدات ومصنوعات، كما استوحى من الطبيعة الصامتة عناصر الوصف والتصوير وعبر عن مشاعر ومعان مختلفة فامرؤ القيس يصور الليل معبرا عن همومه في قوله: [1]

وليلٍ كموجِ البحرِ أرْخَى سُدولَهُ عليّ بأنواعِ الهمومِ ليَبْتَلِي

يشبهه بموج البحر في كثافته وظلمته ويجعل له أستارا يرخيها عليه ليختبره، وهو تصوير حسي ينم عن أساه وحزنه. ويستعير طرفة بن العبد نور الشمس لوصف المرأة بقوله[2]:

ووَجْهٍ كأنَّ الشَّمسَ أَلقَتْ رِداءَهاَ عليهِ نقيّ اللونِ لمْ يَتَخَدَّدِ

وهو تصوير يكشف عن جمال وجه صاحبته وما به من نور وإشراق ونعومة ، ويشبه الأعشى مشي هريرة بمرّ السحابة في قوله[3]:

غرّاءُ فرْعاءُ مصقولٌ عَوارِضُهاَ تمشي الهُوينَى كما يمشي الوَجَى الوَحِلُ

كأنَّ مَشْيَتَها من بيْتِ جارتِهاَ مَرُّ السَّحابَةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَـــلُ

1-المصدر السابق، ص38.

2-المصدر نفسه، ص204.

3-الأعشى الكبير ميمون بن قيس: الديوان، شرح وتعليق محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز، المطبعة النموذجية،دط،دت، ص55.

والسحابة تمتاز بالسمو والهدوء في حركتها التي توجهها الريح. ويستعير طرفة الظبي والبقرة الوحشية لوصف خولة في قوله[1]:

وفِي الحيِّ أحوَى ينفضُ المرْدَ شادنٌ مُظاهرُ سِمْطَيْ لُؤلؤٍ وزَبَرْجَدِ

خَذُولٌ تراعِي رَبْرَبًا بخَميلَةٍ تَنَاولُ أطرافَ البَرِيرِ وتَرتَدِي

ويمثل امرئ القيس الليل الطويل بصورة بعير في قوله[2]:

فقلتُ لهُ لما تَمطَّى بصُلْبِهِ وأردفَ أعجازاً وناءَ بكَلْــكَلِ

أَلاَ أيُّها اللّيلُ الطّويلُ ألاَ انْجَلِي بصُبْحٍ وما الإصْباحُ مِنكَ بأمْثَلِ

يستعير البعير لتمثيل طول الليل وثقله على نفسه والبعير يمتد بصلبه ويباعد مؤخره وينهض بصدره والشاعر بكل هذا يصور همومه وأحزانه، ويصور زهير المنايا وهي تتخطف أرواح الناس في قوله[3]:

رأيتُ المنايا خبطَ عشواءَ منْ تُصِبْ تُمِتْهُ ومنْ تُخْطِئْ يُعَمَّرْ فيهْرَمِ

يشبهها بناقة عشواء تسير على غير هدى فمن أصابته ذهبت به، ومن أخطأته عمّر طويلا حتى أدركه الهرم، ويشبه الحارث بن حلّزة حجرا من ملوك كندة بالأسد في قوله[4]:

أسدٌ في اللّقاءِ وَرْدٌ هَمُوسٌ ورَبيعٌ إنْ شَمَّرتْ غَبْراءُ

فهو –برأي الشاعر– أسد خفيف الوطء في الحرب، وكريم وقت احتباس المطر وفي وقت الجدب.

1–الزوزني: شرح المعلقات، ص67، 68.

2–المصدر نفسه: ص38، 39.

3–المصدر نفسه، ص124.

4–المصدر نفسه، ص237.

المحاضرة الثالثة: شعر الصعاليك (نصوص...لامية الشنفرى).

تمهيد:

لكلمة الصعلوك معان متعددة في المعاجم اللغوية العربية ومن معانيها: الفقر والعوز والضمور والهزال، وفي لسان العرب: الصعلوك هو الفقير الذي لا يملك من المال ما يعينه على أعباء الحياة، كما تحمل اللفظة معاني قطع الطرق والاحتيال والخبث[1]. قال ابن سيدة (ت485هـ) في كتابه المحكم والمحيط الأعظم: الصعلوك الذي لا مال له وقد تصعلك، قال حاتم طئ:

غُنِينا زماناً بالتّصعلكِ والغِنَى فكلا سقاناهُ بكأسيهِما الدَّهرُ

وتصعلكت الإبل خرجت أوبارها وانجردت، ورجل مصعلك الرأس مدوّره، وصعلك الثريدة جعل لها رأسا[2] فالمعنى المباشر للصعلكة هو الفقر، أما المدلول الذي يستنبط من هذه التعاريف هو التجرد؛ لأن الفقر في الإنسان هو التجرد من الغنى، والمراد اللغوي من تصعلك الإبل هو تجردها من أوبارها، والسمة الأساسية في الصعلوك هي الفقر، وعندما نرجع إلى أخبار الصعاليك نجدها تتحدث عن فقرهم فكلهم فقراء، حتى عروة بن الورد سيد الصعاليك الذين كانوا يلجأون إليه كلما قست عليهم الحياة لا يجدون عنده مأوى لهم حتى يستغنوا، فالرواة يذكرون أنه كان فقيرا مثلهم[3].

والصعلكة في الاستعمال الأدبي وكما أقرها العرف العربي المتداول في كتب اللغة ومجامع الأدب والأخبار أن الصعاليك هم جماعة من العرب عاشوا في القفار يرافقهم الفقر والتشرد والتمرد والإغارة على البدو والحضر بقصد النهب والتخريب ثم يمضون إلى مخابئهم فلا يستطيع أحد اللحاق بهم لسرعة عدوهم، ولمعرفتهم بطرق الصحراء كما اتصفوا بصفات الصبر والاحتمال والشجاعة والقوة والكرم، فكانوا يقسمون غنائمهم على الفقراء ويساعدون الضعفاء والمحتاجين،

1-ينظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (صعلك).

2-ينظر: ابن سيدة أبو الحسن بن إسماعيل المرسي: المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2000، ج1،ص416.

3-يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار غريب للطباعة، القاهرة، مصر، دط، دت، ص22.

يقول حنا الفاخوري: "هم جماعة من اللصوص انتشروا في الجزيرة العربية يكسبون العيش بالنهب والسلب، وقد نبذتهم قبائلهم إما لأنهم كانوا أبناء إماء أو لأنهم أتوا بأعمال تتنافى وتقاليد تلك القبائل، أو تعرضها لأخطار جسيمة، ولما كان الأمر كذلك انقطعت لأولئك الصعاليك كل صلة بالمجتمع القبلي وبالعدالة الاجتماعية، ورأوا أنفسهم مجردين من وسائل الحياة المشروعة في بلاد حفلت بالقسوة، وفي مسرح جغرافي لا يعرف إلا الأجواء الجافة، ورأوا من وراء فقرهم وجوعهم الثروات الطائلة في أيدي التجار وسكان الحواضر فزادهم المشهد تمردا ونفورا، فراحوا يملأون الفلوات والجبال والأودية رعبا وهولا"[1].

عوامل بروز الصعلكة في العصر الجاهلي:

هناك عدة عوامل جغرافية وسياسية واجتماعية واقتصادية أدت إلى بروز ظاهرة الصعلكة في شبه الجزيرة العربية في العصر الجاهلي منها: العامل البيئي الذي يتمثل في قسوة الطبيعة واتساع الصحراء وشحها بالغذاء، إلى درجة الجوع الذي يهدد الإنسان بالموت، وإذا جاع الإنسان فلابد أن يتصعلك، ومنها: العامل السياسي المتمثل في وحدة القبيلة القائمة على العصبية ورابطة الدم، فللفرد على القبيلة أن تحميه وتهرع لنجدته حين يتعرض لاعتداء وله عليها بالمقابل أن يصون شرفها ويلتزم بقوانينها وقيمها، وأن لا يجر عليها جرائم تثقلها، وفشل الفرد في هذه الالتزامات قد يؤدي إلى خلعه والتبرؤ منه.

ومن الناحية الاجتماعية نجد أن تركيبة القبيلة تتشكل من طبقات وهي: طبقة الأحرار الصرحاء من أبناء العمومة، وطبقة المستجيرين الذين دخلوا في القبيلة من قبائل أخرى، ثم طبقة العبيد من أبناء الإماء الحبشيات، والحقيقة أن مجموعة كبيرة من الصعاليك هم من أبناء من هذه الطبقة المستلبة التي ثار الأقوياء من أفرادها لكرامتهم الشخصية مثل الشنفرى، وتأبط شرا، وعمرو

1-حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي، ص164.

بن براقة، والسليك بن السلكة، وعامر بن الأخنس وغيرهم...وكان يطلق عليهم أغربة العرب تشبيها لهم بالغراب لسواد بشرتهم.

أما العامل الاقتصادي فيعزى إلى أن حياة القبيلة في العصر الجاهلي كانت تقوم على النظام الإقطاعي الذي يستأثر فيه السادة بالثروة في حين كان يعيش معظم أفراد الطبقات الأخرى مستخدمين أو شبه مستخدمين، فظهر بين الأحرار أنفسهم نفر رفضوا أن يستغل الإنسان أخاه الإنسان وخرجوا على قبائلهم بمحض إرادتهم لينتصروا للضعفاء والمقهورين من الأقوياء المستبدين والمستغلين، ومن أشهر هؤلاء عروة بن الورد الملقب بعروة الصعاليك.

والصعلكة هي ذلك الأسلوب العدواني الذي اتخذه بعض الفقراء والمعدومين من أجل الاستغناء نفي مواجهة الظروف الاجتماعية القاهرة السائدة آنذاك، ومن صفاتهم الإغارة. والغزو الذي هو إحدى سمات العصر وأحد وجوه الصراع القبلي، فهذه الطائفة لم تجد إلا الثورة على تقاليد المجتمع ونظامه.

ويصنف الصعاليك إلى ثلاث مجموعات:

أ-الخلعاء الشذاذ: هي مجموعة خلعتهم قبائلهم لكثرة جرائرهم، ومن هؤلاء حاجز الأزدي، وقيس بن الحَدادية، وأبو الطمحان القيسي.

ب-أبناء الحبشيات السود: هم الذين نبذهم آباؤهم ولم يلحقوهم بهم لعار ولادتهم ومن هؤلاء، السُليْك بن السُّلَكة، وتأبط شرا واسمه ثابت بن جابر من قبيلة فهم، والشنفرى واسمه ثابت بن أواس تربى في قبيلة أمه فهم العدنانية، وكانوا يشركون أمهاتهم في سوادهم فسموا باسم أغربة العرب.

جـ-مجموعة ثالثة لم تكن من الخلعاء ولا من أبناء الإماء، غير أنها احترفت الصعلكة ومنهم: عروة بن الورد العبسي، وقد تكون قبيلة برمتها مثل قبيلتي هذيل وفهم اللتان كانتا تنزلان بالقرب من مكة والطائف[1].

1-ينظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، ص375.

تذكر المصادر أن كل الصعاليك يشتركون في صفات منها: أنهم يحسنون العدو وركوب الخيل والإغارة عليها، ويقال إنه كان للسُّليك فرس يسمى النَّحام، وللشنفرى فرس يسمى اليحموم، ولعروة فرس أيضا يسمى قَرْمَل، فكانوا يغيرون أحيانا فرادى وأحيانا جماعات على مناطق الخصب ويرصدون طرق القوافل التجارية وطرق الحجاج القاصدة إلى مكة[1].

يتغنى هؤلاء الصعاليك في أشعارهم بمغامراتهم ويتمدحون بالكرم كما يوجد فيهم صفة البر بالأقارب والأهل، كما يتصفون أيضا بصفات الترفع والشعور بالكرامة في الحياة، يقول أبو خراش الهذلي[2]:

وإنّي لأُثْوي الجوعَ حتّى يَمَلَنّي ... فيذهبَ لم يدنسْ ثيابِي ولا جِرْمِي

وأغْتَبِقُ الماءَ القَراحَ فأنْتَهِي ... إذا الزّادُ أمْسَى للمُزلَّجِ ذا طَعْمِ

أَرُدُّ شجاعَ البطنِ قد تَعْلَمينَهُ ... وأوثرُ غيرِي من عيالِكِ بالطُّعْمِ

مخافةً أنْ أحيا برغمٍ وذِلّةٍ ... وللموتِ خير من حياةٍ على رَغْمِ

يفتخر الشاعر لزوجه بأنه يصبر على الجوع حتى ينكشف عنه دون أن يلحقه فيه ضيم، وأنه يكفيه الماء القراح(الصافي) بينما يتّخم من حوله أشحاء النفوس بالطعام، أما هو فإن وجد الطعام آثر به غيره من أولاده وعياله ويصنع كل ذلك حتى لا يوصم بعار الذل.

نماذج من الشعراء الصعاليك:

1–عروة بن الورد:

يعد عروة بن الورد من صعاليك الجاهلية وفرسانها الأجواد، كان سيدا لهم يقصدونه وقت الحاجة، وكان شاعرا مجيدا يجمع في شعره بين لطافة المعنى ورقة المشاعر الإنسانية وجمال المعنى والإيقاع العذب[3] وهو من الشعراء الذين يحملون قيما إنسانية وأخلاقا كريمة يتعاطف مع

1–ينظر المرجع السابق، ص 376، 377.

2–المرجع نفسه، ص376.

3–عروة بن الورد: الديوان، تحقيق أسماء أبو بكر محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، 1998، ص14.

الصعاليك والمرضى والضعفاء، وهو بهذا يعبر عن مثالية خلقية رفيعة لا تقل جمالا عن مثالية عنترة بن شداد. وهو من قبيلة عبس كان أبوه من شجعان قبيلته ومن أشرافهم وكان له دور في حرب داحس والغبراء، وأمه من نهد من قضاعة وهي عشيرة وضيعة لم تعرف بشرف فحز ذلك في نفسه إذ أحس في أعماقه من قبلها بعار لا يمحى يقول في بيت شعري[1]:

ما بِي من عارٍ إخالُ عَلِمْـــتُهُ سِوى أنَّ أخوالِي إذا نَسبوُا نَهَدُ

إذا ما أردتُ المجدَ قَصَّرَ مجدُهُم فأعيا عليّ أنْ يُقارِبَنِي المـجدُ

فهي من أسباب ما دفعه إلى الثورة على الأغنياء وهي ثورة مهذبة لم يسفك فيها دماء ولم يتشرد في مجاهل الصحراء، ولم تخلعه قبيلته فصعلكته تعدّ باب من أبواب المروءة والتعاون الاجتماعي بينه وبين فقراء قبيلته وضعفائهم، هو لا يغزو لأجل الغزو والسلب كالشنفرى وتأبط شرا؛ وإنما يصنع ذلك ليعين المستضعفين والمرضى من قبيلته، له ديوان شعري برواية ابن السّكيت طبع مرارا، وتحمل أشعاره هذه المعاني التي يقول فيها[2]:

إنِّي امرؤٌ عافِي إنائِي شركةٌ وأنتَ امْرؤٌ عافِي إنائِكَ واحـــدُ

أتهزأُ منِّي أنْ سَمِنْتَ وأن ترَى بوجْهي شُحوبَ الحقِّ والحقُّ جاهدُ

أقسِّمُ جسمِي في جسومٍ كثيرةٍ وأحْسُو قراحَ الماءِ والماءُ بـــــاردُ

يعبر الشاعر في هذه الأبيات عن معنى إنساني رفيع فهو يشرك العفاة والسائلين في طعامه وهذا من نتائج ضمره ونحالته، وكان ذلك مدعاة لنهوضه بحقوق المحتاجين والضعفاء وكل المصادر تقدم عروة على أنه صعلوكا شريفا استطاع أن يجعل من الصعلكة ضربا من ضروب السيادة والمروءة، وكان دائما يستشعر فكرة التضامن الاجتماعي وما يحمله من قيم الإيثار وبر المستضعفين من أهله وعشيرته حتى يدفع عنهم البؤس والشقاء.

1-المصدر السابق، ص56.

2-المصدر نفسه، ص61.

2–تأبط شرا:

هو ثابت بن جابر بن سفيان من قبيلة فهم من طائفة أغربة العرب، أمه حبشية سوداء اختلفت المصادر في لقبه هذا، فربما لما كان يتأبط من حيات أو أشياء (أفاعي، سيف...) أو لكثرة ما كان يرتكب من جنايات وجرائر، مات أبوه وتركه صغيرا، فتزوجت أمه بأبي كبير الهذلي، وكان صعلوكا كبيرا فخرجه على شاكلته كان يرافق الشنفرى في كثير من الغارات كما يرافق الصعلوك عمرو بن براقة، له أشعار كثيرة منثورة في كتب الأدب.

3–الشنفرى:

هو من عشيرة إواس الأزدية اليمنية قحطاني النسب، واسمه يدل على أنه غليظ الشفاه وقيل إنه من قبيلة سلامان وقد هجرهم وحقد عليهم بعد اكتشافه أنه ليس منهم، ولم ينشأ في قبيلة الأزد بل في قبيلة فهم، عرف بالعدو حتى ضرب به المثل "أعدى من الشنفرى"[1] والذي روضه على الصعلكة تأبط شرا لما كان يغير معه وما زال يغير على الأزد حتى قتل منهم تسعة وتسعين رجلا انتقاما لأبيه قبل أن يرصدوا له كمينا فيقع فيه ويقتل[2] له ديوان شعري

ومن أشهر قصائده لاميته التي تصور حياة الصعلوك في العصر الجاهلي، له أيضا التائية الطويلة التي رواها المفضل الضبي في مفضلياته، يقول في تائيته[3]:

فبْتْناَ كأَنَّ البيتَ حُجِّرَ فوقـــــنَا بريحانةٍ رِيحَتْ عشاءً وطُــلَّتِ

وباضِعةٍ حُمْرِ القِسيِّ بَعَثْتُـــــهاَ ومنْ يَغْزُ يغْنَمْ مرةً ويُشَـــمَّتِ

خرجنَا منَ الوادِي الذي بينَ مِشْعَلٍ وبينَ الجَبَا هيهاتَ أنشأتُ سُرْبَتِي

أُمَشِّي على الأرضِ التي لنْ تَضُرَّنِي لأنْكِي قوماً أو أُصادفَ حُمّـتِي

ويتحدث أيضا عن أهداف غارته في بني سلامان حيث يأخذ ثأره لأبيه في قوله[4]:

1–الشنفرى عمرو بن مالك: الديوان، تحقيق إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان،ط2، 1996،ص10، 11، 12.

2– شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، ص380.

3–الشنفرى: الديوان، ص 34،35.

4–المصدر نفسه، ص37.

قتلناَ قتيلاً مُــحْرِماً بمُلـــــبَّدٍ جِمارَ مِنىً وسْطَ الحجيجِ المصوّتِ
جَزينَا سلامانَ بنَ مُفْرِجِ قَرْضَها بما قدمَــتْ أيديـــهُمُ وأزلَّـــتِ
وهُنِّئَ بي قومٌ وما إنْ هنَّأتـــهُمْ وأصبحتُ في قومٍ وليسَوا بمنبـتِي
فإنْ تُقْبلوا تُقْبلْ بمنْ نيلَ مِنْــهُمُ وإنْ تُدبروا فأمُّ منْ نِيلَ فــتِّتِ
شَفَيْنا بعبدِ اللهِ بعضَ غَليلَناَ وعَوْفٍ لدى المِعْدى أَوانَ اسْتهلَّتِ

يصرح بأنه جازى بني سلامان بما قدمت أيديهم لما بينهم وبينه من ثار وقد شفى غليله بقتل رجلين منهم.

مضامين شعر الصعاليك:

تتضمن قصائد الشعراء الصعاليك عدة موضوعات أهمها:

أ–أحاديث المغامرة: إن حياة الصعاليك كلها مغامرات، لأنها تتخذ من الغزو والإغارة والسلب والنهب أسلوبا في حياتهم لذلك كثيرا ما يتحدثون في شعرهم عن هذه المغامرات وكيفية تحقيق غايتهم والاحتفاء ببطولاتهم ومقدرتهم من النجاة من بعض الأخطار التي يواجهونها، يقول الشنفرى[1]:

فثارُوا إلينَا في السَّوادِ فهَجْهَجُوا وصَوَّتَ فينا بالصَّباحِ المثَوِّبُ
فشَنَّ عليهِم هِزَّةَ السَّيْفِ ثابتٌ وصمَّمَ فيهِمْ بالحسامِ المسيَّبُ
وظلْتُ بفتيانٍ معِي أتَّقيــهُمُ بهنَّ قليلاً ساعةً ثمَّ خيَّبُوا
وقدْ خَرَّ مِنْهُم راجلانِ وفارسٌ كميٌّ صَرعْناهُ وقَرْمٌ مُسلَّبُ
يَشُنُّ إليهِ كلَّ ريعٍ وقلْعَةٍ ثمانيةً والقومُ رَجْلٌ ومِقْنَبُ

1–المصدر السابق، ص28.

ب–شعر المراقب: كثيرا ما يتحدث الشعراء عن تربصهم بأعدائهم وترصدهم لضحاياهم وترقبهم للفرصة الملائمة لمهاجمتهم في الأماكن الوعرة، وفي مضايق الطرق، وفي الكمائن المحكمة حيث لا يرونهم. يقول تأبط شرا[1]:

إذا الحربُ أولتكَ الكليبَ فولِّهَا كَليبكَ واعْلمْ أنَّها سوفَ تنْجلي

ومَرْقَبَةٍ يا أمَّ عمْرو طِمِرَّةٍ مذبذبةٍ فوقَ المراقبِ عَيْـــطَلِ

نَهَضْتُ إليهاَ منْ جثومٍ كأنَّهَاَ عجوزٌ عليها هِدْمِلٌ ذاتُ خيْــعَلِ

والمرقبة عند الشاعر ذات صورة طريفة تعلو سائر المراقب، وهي معقدة ذات تجاعيد كأنها عجوز شمطاء عليها ثياب بالية ومع ذلك ما إن ينتصف الليل حتى ينهض ليبدأ في تنفيذ خططه.

ج–التهديد: يتحدث الصعاليك عن الوعيد والتهديد لأعدائهم، وقد كانوا يوجهون تهديدهم لقبائل بعينها فيتوعدونهم، وفي هذا المعنى قول تأبط شرا[2]:

رَأَى قدميَّ وقْعُهَما حثيثٌ كتحليلِ الظليمِ دعَا رئالهْ

رأَى بهِماَ عَذاباً كلَّ عامٍ لخَثْعَمَ أو بجِيلةَ أو ثَمَـــالَهْ

وشرٌّ كان صُبَّ على هُذَيلٍ إذا عَلِقَتْ حِبَالهُمْ حبـالَهْ

فتأبط شرا لا يقنع بغير غزو خثعم وبجيلة وثمالة وهذيل، وهو يرجع الفضل في كل هذا كله إلى قدميه اللتين أودع الله فيهما عذابا وشرا يصبّهما عليهم.

د–وصف الأسلحة: تتضمن قصائد الشعراء الحديث عن أسلحتهم فهي وسيلتهم التي يعتمدون عليها في مغامراتهم إلى جانب قوة أبدانهم التي أساس حياتهم، كما يصفون أسلحتهم التي ترافقهم دائما: كالسيف والرمح والقوس والسهام والدروع، يقول الشنفرى[3]:

وأبيضُ من ماءِ الحديدِ مُهنَّدٌ مُجِذٌّ لأطرافِ السَّواعدِ مِقْطَفُ

1–تأبط شرا: الديوان، تحقيق علي ذو الفقار شاكر، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، لبنان، ط1984،1 ص180، 181.

2– المصدر نفسه، ص198.

3–الشنفرى: الديوان، ص53،54.

وحمراءُ من نبع أبيٌّ ظهيرةٌ تُرِنُّ كإرنانِ الشَّجيِّ وتهتـفُ

هـ–الحديث عن الرفاق: يتحدث الشعراء عن رفاقهم أثناء المغامرات وعن الأدوار التي يقوم بها كل فرد، ومن بين الألفاظ نجد لفظ الرجل والسربة والمقنب والفتيان والأصحاب والصحب والقوم وهذا المعجم يدل على الجماعة التي يتكلم عنها الشنفرى[1]:

سراحينُ فتيان كأَنَّ وجوهَـــهُمْ مصابيحُ أو لونٌ من الماءِ مُذْهَبُ

نمرُّ برهو الماء صفحا وقد طوت شمائلنا والزَّاد ظـنٌّ مغـــيَّبُ

و–سرعة العدو والفرار: يتحدثون أيضا عن هروبهم وفرارهم وعن سرعة عدوهم وكثيرا مايحسبونها صفة يتفردون بها عن غيرهم وأنها من الأسباب التي تنجيهم أثناء تعرضهم إلى المخاطر لذلك يفخرون بهذه الصفات. يقول أبو خراش الهذلي[2]:

فإنْ تزعُمي أنِّي جَبُنْتُ فإنّنِي أفرُّ وأرْمي مَرَّةً كلَّ ذلـــــكِ

أقاتلُ حتَّى لا أرَى لي مُقاتلا وأنجُو إذا ما خفتُ بعضَ المهالكِ

فالفرار لا يدل على جبنه، لأنه إلى جانب فراره هو مقاتل شجاع، وأحيانا تراه يلجأ إلى الفرار عندما يقتنع بأن قتاله لا يجديه نفعا، فيصبح الفرار ملجأ وقرارا حكيما يجنبه المهالك.

ز–التشرد: إذا كان الصعاليك يعيشون في صحراء مترامية الإطراف أرجاؤها واسعة وموحشة ووديانها مخيفة، فإنهم قد تحدثوا عن تشردهم في هذه الفلوات، واتخذوا ذلك مصدرا للفخر والاعتداد بأنفسهم، وباهتدائهم في هذا الفضاء الواسع. يقول تأبط شرا[3]:

يَبيتُ بمَغْنَى الوحشِ حتى أَلِفْنَهُ ويصبحُ لا يَحْمِي لهَا– الدَّهرَ– مرْتَعَا

على غِرةٍ أو جَهْرةٍ منْ مَكانِسٍ أطالَ نزالَ الموتِ حتَّى تَسَعْسَعَا

رأيْنَ فتًى لا صيدُ وحشٍ يهِمُّهُ فلوْ صافَحَتْ إنْساً لصافَحَنَهُ مَعَا

1–المصدر السابق، ص28.

2–ديوان الهذليين: تحقيق أحمد الزين ومحمود أو الوفاء، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، دط، 1965، ج2، ص169.

3–تأبط شرا: الديوان، ص،115،116،117.

يفتخر بامرأة خطبها فامتنعت عليه، لأنه لطول تشرده ألفته وحوش الصحراء واطمأنت إليه حتى لتوشك أن تصافحه.

الظواهر الفنية في شعر الصعاليك:

–إن شعر الصعاليك في أغلبه شعر مقطوعات وذيوع المقطوعة فيه أكثير من ذيوع القصيدة المطولة باستثناء بعض القصائد المطولة مثل تائية ولامية الشنفرى، وربما يعود كثرة المقطوعات في شعرهم إلى طبيعة الحياة المضطربة المتأثرة بسبل الكفاح في سبيل العيش فالشاعر لا يتفرغ للشعر من حيث هو شعر، فيجوده ويطول قصائده ويعيد النظر فيه كما كان يفعل مثلا أصحاب الحوليات في صنعة الشعر.

–تستجيب أكثر قصائد الصعاليك للوحدة الموضوعية فكل مقطوعة شعرية لها موضوعها أو عنوانها الخاص بها، وهي ميزة لم تعرفها قصائد الشعر الجاهلي، فعادة ما تتركب القصيدة الجاهلية من عدة موضوعات، فتبدأ بمقدمة طللية ثم تنتقل من موضوع إلى آخر. كما نلاحظ في بناء قصائدهم التخلص من المقدمة الطللية، ولكن كثيرا ما يستعيضون ذلك بذكر المرأة المحبوبة(الزوجة) المحبة والحريصة على حياته، والتي تدعوه دائما إلى المحافظة على حياته.

–الشاعر الصعلوك ومن خلال شعره يفقد إحساسه بالعصبية القبلية، فما دامت الصلة بين الشعراء وقبائلهم منقطعة فمن الطبيعي أن تنقطع من الناحية الفنية، فالشاعر الصعلوك لا يمثل قبيلته، وشعره صورة صادقة عن حياته ويعبر عن نفسه، ويصبح ضمير الفرد (أنا) أداة للتعبير فيه بدل من ضمير الجماعة التي تمثل القبيلة في الشعر القبلي، وبذلك تصبح المادة الفنية مستوحاة من شخصيته لا من قبيلته.

–شعر الصعاليك شعر يتضمن فضاء للقصة، وبالتالي فهو شعر قصصي يسجل فيه الشاعر كل ما يدور في حياته الحافلة بالحوادث المثيرة التي تصلح مادة للفن القصصي، فمغامرة الصعاليك الجريئة التي يقومون بها فرادى وجماعات وأخبار فرارهم وعدوهم وتشردهم وغير ذلك من مظاهر حياتهم تعد مادة صالحة للفن القصصي.

المحاضرة الرابعة: الشعر في صدر الإسلام، شعر الفتوحات(نصوص...).

تمهيد:

المراد بعصر صدر الإسلام الفترة الزمنية الممتدة بين بعثة النبي محمد- صلى الله عليه وسلم- وبين قيام الدولة الأموية سنة أربعين(40هـ) للهجرة، وقد أحدث القرآن الكريم في هذه الفترة تأثيرا كبيرا في حياة العرب، ونقلهم من البداوة إلى الحضارة، ومن مجتمع القبيلة إلى حياة الأمة. لأن العرب كانت أمة ممزقة انتشرت في شبه جزيرتهم الحروب والنزاعات وكانت أمة يسودها الجهل، تنتشر بها الخرافة والعقائد الفاسدة كما تنتشر فيها العادات السيئة كشرب الخمر ولعب القمار ووأد البنات والقتل والنهب والغزو، كما كان فيهم بعض الخرافات مثل الكهانة والعرافة والتشاؤم والتنجيم وغيرها.

والمعروف أن الشعر الجاهلي في كثرته كان قبليا يستوحي في أغراضه وموضوعاته نزعة العصبية القبلية، ويهتدي بهديها، وكانت الحياة الجاهلية تقوم على الجهل والتطاول والبغي والشرك وعبادة الأصنام إلى غير ذلك من المظاهر التي اتسم بها العصر، فلما جاء الإسلام قضى على كل هذه العادات وحث على الإخاء والتضحية، أسس مجتمعا يقوم على العدل والمساواة وكرم المرأة وكفل حقها وجعل من الإسلام أمة قيم ومثل عليا. أحدث بذلك انقلابا في كل مناحي الحياة، فأخرج العرب من الظلمات إلى النور ومن القبيلة إلى أفاق الدولة والأمة، ورسم لهم طريقا جديدا، وعمل القرآن بتعاليمه على تهذيب الأذواق، وزاد في رقيها ورقق ألفاظ اللغة وأبعدها عن الجفاء والغلظة، وحول أساليبها إلى العذوبة والسلاسة، فتأثر الكثير من الأدباء بأسلوب القرآن وبمضامينه، فنهلوا من معانيه التي وسعها القرآن.

أصبح الأدب في صدر الإسلام ذو معان واسعة متعددة الألفاظ والأفكار والمعاني لتأثرها بالقرآن وبالحديث الشريف، وأصبح الأدب الإسلامي أشد التصاقا بالنفس كما خلص الإسلام الأدب من الشوائب السابقة كالعصبية والغزل الفاحش والهجاء المقذع ووصف الخمرة...

لم يحارب الإسلام كل الشعر؛ بل حارب الفاسد منه ولهذا صنف القرآن الشعراء إلى فئتين فئة ضالة وأخرى مهتدية يقول الله تعالى في محكم تنزيله: ((والشعراء يتبعهم الغاوون ألم ترى أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ماظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)) (سورة الشعراء: الآيات 224،225،226،227).

ولقد ورد مصطلح الشعر في كثير من الآيات من القرآن الكريم التي تحمل دلالات نفي الشعر عن النبي-صلى الله عليه وسلم- ونفي للشعر عن القرآن، وتأكيدا لمصدره الإلهي ودفعا لادعاءات المشركين الذين قالوا بأنه شعر جاء به محمد واتهموه بأنه شاعر وجاء ذلك في قوله تعالى: ((وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين))(سورة يس: الآية 69)كما نفى الشاعرية عن الرسول محمد بقوله: ((وما هو بقول شاعر قليلا ما تومنون))(سورة الحاقة: الآية41) فالقرآن الكريم في صوغه وأسلوبه مختلف عن الفنون القولية الأخرى التي كانت شائعة، فهو صورة بيانية فريدة تبعد كل البعد أن تكون شعرا أو سجعا كسجع الكهان[1].

ولا شك أن طائفة من الشعراء الجاهليين اعتنقت الإسلام وانخرطت تذب عن هذا الدين الجديد، وخدمت قضاياه، ومن أهم هؤلاء الشعراء: حسان بن ثابت الذي سخر كل جهوده لخدمة الإسلام فهجا قريشا هجاء مرا، كعب بن زهير، ومتمم بن نويرة وكعب بن مالك والنابغة الجعدي ...

شعر الفتوحات:

خرج العرب من جزيرتهم بعد حروب الردة يجاهدون في سبيل الله لنشر الإسلام، فاستولوا على الشام ومصر، وكانوا في أثناء هذه المعارك ينظمون أناشيد حماسية يتغنون فيها بانتصاراتهم ويتمدحون بشجاعتهم، وهذا الشعر الذي قيل في هذه الوقائع أطلق عليه شعر الفتوحات وهو

1-مصطفى هدارة: الشعر في صدر الإسلام والعصر الأموي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، دط، 1995، ص74.

شعر يهدف إلى الإشادة بإقدام وشجاعة الجند أمام قسوة المعارك وضراوة القتال[1] وهو شعر يرتبط بالمعارك ويصف الحياة الجديدة بعد الإسلام، كما يرسم أيضا صور الفروسية الإسلامية في الإطار الجديد الذي وضعه الإسلام لتقاليدها وقيمها من إيمان قوي وتصديق عميق بما وعد به المجاهدون، كما يرسم الكثير من الصور التي صاحبت المسلمين في ساحات الوغى وزحمات القتال.

يتميز هذا الشعر بصدوره عن مشاعر صادقة ارتبطت بمناسبات تاريخية مهمة في حياة المسلمين كانتصارهم في المعارك ، أو تحفيز الجيش لخوض القتال أو رثاء قتلى المسلمين أو الحنين إلى الأهل والأبناء، لذلك فشعر الفتوحات تكمن قيمته في كونه وثيقة تاريخية سجلت أيام المسلمين[2] ووقائعهم بما تضمنه من موضوعات وأغراض متنوعة كالفخر والهجاء والرثاء والوصف والحنين بمضامين توافق وتستجيب لقيم الإسلام.

أغراض الشعر في صدر الإسلام:

تعددت أغراض الشعر في صدر الإسلام فمنها ما كان مألوفا من قبل، ومنها ما كان جديدا ومن أهم تلك الأغراض نذكر ما يلي:

1-الوعظ ونشر العقيدة:

يقول الصلصال بن الدِّلْهَمَس بن جندلة[3]:

تَجَنَّبْ خليــطاً منْ مقالِكَ إنَّمَا قرينُ الفَتَى في القـبرِ ما كانَ يفعلُ
ولابدّ بعدَ الموتِ منْ أنْ تعــدَّهُ ليومٍ ينادي المـرءُ فيه فيُقْـــــبِلُ
وإن كنتَ مشغولاً بشيءٍ فلا تكنْ بغيرِ الذي يَرضَى به اللهُ تُشْـغَلُ
ولن يصحبَ الإنسانَ من قبل موتِهِ ومن بعدهِ إلا الذي كان يعـــملُ
ألا إنما الإنسانُ ضيفٌ لأهــلهِ يقيمُ قليلاً بينهم ثم يرحـــلُ

1-ينظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي، ص62.

2-ينظر: النعمان عبد المتعال النعمان: شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، مصر ،دط، 1965، ص241.

3-واضح محمد: أدب صدر الإسلام، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1994، ص113.

قال الشاعر هذه الأبيات لوفد من بني تميم، والرسول –صلى الله عليه وسلم– كان حاضرا والقصيدة حث على الصدق والتحذير من عذاب القبر، فلا ينفع الإنسان إلا العمل الصالح كما تحض على تقوى الله والعمل بما يرضي الله عز وجل، وواضح أن العقيدة الإسلامية متأصلة في نفس الشاعر وأنه يسعى إلى إقناع الآخرين بهذه القيم. ويقول النابغة الجعدي[1]:

الحمدُ للهِ لا شريكَ لهُ منْ لمْ يَقلْهَا فنفسَهُ ظلـماَ
الموجِ الليلَ في النّهارِ وفي الليلِ نهاراً يفرّج الظُّلـماَ
الخافضِ الرّافعِ السماءَ على الـ أرضِ ولمْ يبْنِ تحتهَا دِعَمـاَ
الخالقِ البارئِ المصورِ في الـ أرْحَامِ ماءً حتّى يصيرَ دَمـاَ
من نطفةٍ قدَّهَا مُقَدِّرُهَا يَخْلقُ منهَا الأَبشارَ والنَّسماَ
ثم عِظاماً أقامَها عَصَبٌ ثُمَّتَ لحْماً كساهُ فالْتَأَمَا

ينظم هذا الشاعر الصحابي شعرا، ونلاحظ أن كتاب الله قد ملك حواسه جملة، فما ينظم هؤلاء يكاد يكون ترجمة لألفاظ ومعاني آيات الله تعالى.

2– الفخر والمديح:

الفخر والمدح من أغراض الشعر قبل الإسلام وبعده، لكن القيم التي كانت تدفع الشاعر الجاهلي إلى هذا الغرض تختلف كثيرا عن القيم التي زرعها الإسلام في نفوس المسلمين. فهذا علي بن أبي طالب يفتخر بصلته برسول الله، وبسبق أهله إلى الشهادة في سبيل الله، وأنه كان سباقا إلى الإسلام رغم حداثة سنه نلمس ذلك في قوله[2]:

محمدٌ النَّبِي أخِي وصِهْرِي وحمزةُ سيِّدُ الشّهداءِ عمّـي
سَبقتُكم إلى الإسلامِ طُرًّا صغيراً ما بلغتُ أوانَ حِلْمِي

1–النابغة الجعدي: الديوان، تحقيق واضح الصمد، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ص147، 148.
2–واضح الصمد: أدب صدر الإسلام، ص117.

ويقول حسان بن ثابت[1]:

أغرُّ عليهِ للنُّبوَّةِ خاتـــــــمٌ من اللهِ مَشهودٌ يَـلوحُ ويَشْــهَدُ
وضمَّ الإله اسْمَ النَّبي إلى اسْمِه إذا قالَ في الخَمْسِ المؤذِّنُ أشْـهدُ
وشقَّ له من اسْمِهِ ليُجِـــــلَّهُ فذو العرش محمود وهذا محـمّدُ
نبيٌّ أتاناَ بعدَ يأسٍ وفتـــــرةٍ مِنِ الرُّسلِ والأوثانُ في الأرضِ تعبدُ
فأمْسى سِراجاً مُستنيراَ وهادِياً يلوحُ كما لاحَ الصَّقيلُ المـهنَّدُ
وأنْذرنا ناراً وبشَّـرَ جنَّـــــةً وعَلَّمَنا الإسـلامَ فاللهُ نحْــمَدُ
وأنتَ إلهَ الخلقِ ربّي وخالقِي بِذلكَ ما عَمَّرتُ في النَّاسِ أشْهدُ

تتجلى المعاني الإسلامية في هذه الأبيات، وتعكس روح الشعر في هذه الفترة، وهذا كعب بن زهير يمدح رسول الله في لاميته المشهورة في قوله[2].

أُنْبِئْتُ أنّ رسولَ اللهِ أوْعَدَنِي والعفوُ عندَ رسولِ اللهِ مأْمولُ
مهلاً هَداكَ الذي أعطاكَ نافلةَ الــ ـقرآنِ فيها مواعيظُ وتفصيلُ

ويقول في نفس القصيدة[3]:

إنَّ الرَّسولَ لسيفٌ يُسْتَضاءُ بهِ مُهَنَّدٌ من سيوفِ اللهِ مسلولُ
في عُصْبَةٍ من قريشٍ قالَ قائلهُم ببطنِ مكّةَ لما اسْلــمو زولُوا

يمدح كعب رسول الله بالعفو وهذا من شيم الكرم، وهو لا شك واجده عنده، ويعتذر عما بدر منه من قبل أن يفد عليه، ومعظم شعر المديح جاء في مدح الرسول، وأن مضامينه هي في الفخر برسالة الإسلام التي أوحى بها الله إلى النبي الكريم.

1-حسان بن ثابت: الديوان، شرح وتقديم عبدا مهنّا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1994، ص54.
2-كعب بن زهير: الديوان، تحقيق علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، 1997، ص65.
3-المصدر نفسه، ص67.

3-الجهاد والمعارك:

لم يكن الشعر بعيدا عن الصراع بين المسلمين والمشركين؛ بل كان في صلب المعارك التي أسهمت في تنشيط حركة الشعر في تلك الفترة، وهذا ما يلاحظ جليا في شعر الشعراء المخضرمين، وكان من نتائجه بروز المناقضات بين شعراء قريش في مكة وبين شعراء الأنصار في المدينة، ولا بد أن نشير إلى أن المسلمين كانوا ينظمون أناشيد حماسية في شعر الفتوحات ويتغنون فيها بانتصاراتهم. وتذكر المصادر أن الشاعر أبا مِحْجَن الثقفي كان مولعا بالخمر فحبسه سعد بن أبي وقاص حتى إذا احتدمت المعركة توسل إلى سلمى زوج سعد أن تطلق سراحه –على أن يعود إلى قيده– ليسهم في شرف المعركة، وكان له ذلك، وبلى في هذه المعركة بلاء حسنا، وعاد إلى سجنه وهو ينشد الشعر:[1]

لقدْ علِمَتْ ثقيفٌ غيرَ فخرٍ بأنّا نحنُ أكرمُهُم سُيـوفاَ

فإنْ أحبسْ فقدْ عَرفوا بَلائِي وإنْ أطلقْ أجرِّعْهُم حُتوفاَ

وكان حول أبي محجن فرسان كثيرون قصفوا الفرس وأطاحو برؤوسهم وهم يتصايحون بالشعر الحماسي ومنهم عمرو بن معد يكرب الزبيدي وكان من أبطال الجاهلية وفرسانها وأسلم، ومن شعره[2]:

والقادسيةُ حينَ زاحمَ رستم كنَّا الحماةَ بهنَّ كالأشْطانِ

الضَّاربينَ بكلِّ أبْيَضَ مخدمٍ والطَّاعنينَ مجامعَ الأضْغانِ

هذه لمحات بسيطة عن شعر الجهاد والمعارك والفتوح، وأن ما تطفح به كتب الصحابة مثل كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب للحافظ بن عبد البر، وكتاب الإصابة في تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر، وكتب التاريخ مثل تاريخ الطبري، وابن الأثير، وكتب الأدب مثل الأغاني للعماد الاصفهاني، وكتب الجغرافيا مثل معجم البلدان لياقوت الحموي، ليؤلف بذلك العرب في

1-شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي، ص62.

2-المرجع نفسه، ص62.

الفتوح ملحمة كبيرة يصور فيها الشعر هذه الإحداث، كما يصور هجرة القبائل العربية من مواطنها إلى الأصقاع المفتوحة[1] كما يتحدث عن الإبطال الذين أسهموا في تلك الحروب والانتصارات.

4-الرثاء:

غرض الرثاء من أكثر الأغراض الشعرية التصاقا بالنفس لأنه يصدر عن نفس منكسرة متألمة، والشاعر لما طبع عليه من رقة الحس وإرهاف الشعور وسرعة الانفعال بالأحداث تهزه الفواجع، فيعبر عن تأثره بالشعر، ويصف الفجيعة ويصور مشاعره إزاءها، لذلك كان الرثاء واحدا من الأغراض الرئيسية على مدى العصور.

إذا كان الرثاء في الجاهلية عبارة عن ذرف الدموع، وأسى في القلوب، وحدادا على الأموات ووعدا بالثار والانتقام، فإن الرثاء في الإسلام يختلف في بعض جوانبه عما سبق لأن الشاعر في هذه الفترة ملتزم بعقيدة دينه التي تحدد له أبعاد الرثاء ضمن القيم والمعاني الإسلامية، فقد يتسابق المسلمون إلى الموت والشهادة في مجالات الجهاد فيكون الموت مفخرة من المفاخر التي يعتز بها المسلم، فهذه الخنساء أميرة الرثاء في الجاهلية والتي عاظمت العرب بمصيبتها بابنها وأخويها، وبدت القروح في عينيها من البكاء عليهم هي نفسها أدركت الإسلام وشهدت حرب القادسية، ومعها بنوها أربعة رجال تحثهم على القتال والاستماتة في سبيل الله ،فاستشهدوا جميعا فقالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم[2].

وظل الرثاء مزدهرا في العصر الإسلامي لاستمرار المعارك الدامية بين المسلمين وغيرهم فيرثي المسلمون شهداءهم ويبكي المشركون قتلاهم، ومن بين الشواهد الشعرية في هذا الفن نذكر قول حسان بن ثابت في رثاء الرسول –صلى الله عليه وسلم–[3]:

بطَيْبَةَ رسمٌ للرّسولِ ومعهدُ منيرٌ وقد تعفُو الرسومُ وتَهْمَدُ

1-واضح الصمد: أدب صدر الإسلام، ص125..

2-ينظر: واضح الصمد: أدب صدر الإسلام، ص126.

3-حسان بن ثابت: الديوان، ص60.

ولا تَنْمحِي الآياتُ من دارِ حرمةٍ بهاَ مِنْبرُ الهادي الذي كانَ يَصْعدُ

وواضحُ آياتٍ وباقِي مَعالِمٍ ورَبْعٌ لهُ فيهِ مُصلًّى ومَسجدُ

بها حُجراتٌ كان ينزلُ وسْطَهاَ من اللهِ نورٌ يستضاءُ ويُوقدُ

ويروى أنه لما تم دفن الرسول –صلى الله عليه وسلم– ورجع الناس إلى ديارهم رجعت فاطمة الزهراء إلى بيتها. وقالت أبياتا في رثاء أبيها[1]:

فليبكه شرق البلاد وغربها وليبْكهِ مضر وكلّ يمانِ

يا خاتم الرسل المبارك ضوءه صلّى عليك منزل القرآنِ

ولم يكن الرثاء مقصورا على الرسول والخلفاء الراشدين؛ وإنما كان غرضا من أغراض الشعر في صدر الإسلام. يرثي الشاعر متمم بن نويرة أخاه مالكا بن نويرة الذي قتله خالد بن الوليد في حروب الردة، وقد ورد أن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لمتمم: " لو وددت لو أنك رثيت أخي زيدا بمثل ما رثيت به مالكا أخاك "وهذه المرثية بلغت واحدا وخمسين بيتا يقول فيها[2]:

لعمري وما دهري بتأبين هالك ولا جزع مما أصاب فأوجعا

وأني متى أدع باسمك لا تجب وكنت جديرا أن تجيب وتسمعا

فلما تفرقنا كأني ومالكا لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

سقى الله أرضا حلها قبر مالك ذهاب الغوادي المدجنات فأسرعا

ينوه الشاعر بمآثر أخيه وطيب خلاله كالإيثار والجود وغلبته الخصوم وإقدامه وصبره في الحرب وسرد ذكرياته ثم الجزع والحسرة لفقدانه.

1–الحصري القيرواني أبو إسحاق إبراهيم بن علي: زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر، ط1، 1953، ج1، ص70.

2–المفضل الضبي: المفضليات، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط6، دت، ص263.

فالرثاء في هذا العصر هو تعبير صادق عما يعتري الإنسان من أسى لفراق عزيز أو قريب، وكثير ما ينتقل الشاعر إلى تعداد محاسن الفقيد، وذلك في إطار المفاهيم الإسلامية، وما يخفف ألم الفراق انطلاقا من قناعة راسخة أن الميت ينتقل إلى عالم الخلود وأن الموتى شهداء سينعمون في جوار ربهم مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والصالحين.

5-الهجاء:

الهجاء من الأغراض الشعرية التي مارسها الشعراء العرب في الجاهلية، وكانوا يتعرضون فيه للأعراض وذكر المثالب والعورات، ويعيّرون بعضهم بالأيام، وجاء الإسلام وناصب المشركون ومن والاهم من الأعراب واليهود عداء شديدا لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- وكان لشعراء الهجاء دور في إذكاء تلك العداوات، فهاجموا الرسول وأصحابه، وكان لا بد من ردعهم، فسمح الرسول لشعراء المسلمين بالرد عليهم، ومن أشهر هؤلاء الشعراء الذي دافعوا عن الإسلام بشعرهم حسان بن ثابت وكعب بن زهير وعبد الله بن رواحة، فكان حسان وكعب يعارضانهم ويهجوانهم بمثل قولهم بالوقائع والمآثر ويعيرانهم بالمثالب، كما كان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر. وهذا الهجاء لا يتعلق بشخص وإنما يتعلق بالدعوة الإسلامية فكان لابد من الذود عن حمى الإسلام بسلاح الشعر باعتباره الوسيلة الإعلامية المؤثرة في عقول القوم، يقول حسان بن ثابت:[1]

لنَا فِي كلِّ يـومٍ منْ معــدٍّ سِبابٌ أو قتالٌ أو هجاءُ
فنُحْكِمُ بالقوافِي مَنْ هَجـانَا ونَضْرِبُ حين تختلطُ الدِّماءُ
ألا أبْلغْ أبا سفيانَ عنـــّي فأنتَ مُجوَّفٌ نَخِبٌ هــواءُ
بأَنَّ سيوفَنا تَرَكَتْكَ عَبْـــداً وعبدَ الدَّارِ سادَتُها الإماءُ
هجوتَ محمداً فأجبـتُ عنهُ وعندَ اللهِ في ذاكَ الجــزاءُ
أَتَهجوه ولستَ لهُ بِكُــفْءٍ فشرُّكُماَ لخيرِكُما الفداءُ

1-حسان بن ثابت: الديوان، ص20.

هجوتَ مباركاً برًّا حنيـــفاَ أمينَ اللهِ شيمتُه الوفاءُ

فمَنْ يَهْجُو رسولَ اللهِ منكم ويَمدحُه وينصرُه ســواءُ

الخصائص الفنية في شعر صدر الإسلام:

يرصد النقاد والدارسون لشعر هذه المرحلة جملة من الخصائص بعضها في المعاني وأخرى في التركيب والأسلوب ويمكن حصر أهمها في ما يلي:

أ-لقد حظي شعر صدر الإسلام بمعجم شعري متنوع وثري مضمونه الخطاب القرآني والحديث النبوي الشريف، والمعاني الشعرية في هذا العصر تختلف عن معاني الشعر في العصر الذي قبله، فلقد أمد القرآن الكريم الشعراء بمعان سخرت لخدمة القيم الجديدة والعقيدة الإسلامية، ومعاني الشعر الإسلامي لم تنفصل انفصالا تاما عن معاني الشعر الجاهلي، فالمعاني التي أهملت في الإسلام هي المعاني التي نفاها وأنكرها الإسلام وغير ذلك بقي متداولا، فالمدح الخالي من المبالغة موجود عند كعب بن زهير وحسان وغيرهما، والهجاء الذي يقلل من شأن الكفار وينفرهم من الحالة التي يعيشون فيها موجود عند شعراء الرسول-صلى الله عليه وسلم- والمعاني الحماسية التي تدعو إلى قتل المعتدين في المعارك، وتحفز المسلمين موجودة أيضا في هذا الشعر الإسلامي.

ب-لم يكن الشعر الإسلامي رهينا للتقاليد الفنية السابقة، وإنما تطور في الأسلوب والصياغة وتأثر بروح الإسلام، وابتعدت ألفاظه عن الغريب الوحشي حتى يستطيع الناس فهمها وتذوقها كما اتجه الشعر في بعض صوره وأساليبه إلى ما اشتمل عليه القرآن الكريم من صور بديعة وأساليب جديدة[1] فالشاعر في هذا العصر أصبح ينتقي ألفاظه ويسوقها وفق ما تقتضيه العقائد الجديدة.

ج-بعض هذا الشعر ضل محافظا على تقاليد القصيدة الجاهلية وخاصة ما تعلق ببنيتها الفنية كالمقدمة الطللية، نلاحظ ذلك في مقدمة قصيدة لحسان بن ثابت:[2]

هَلْ رَسْمُ دارِسَةُ المقامِ يَبابِ مُتَكلِّمٌ لمحاوِرٍ بجـــوابِ

1-مصطفى عبد الرحمن إبراهيم: النقد الأدبي عند العرب، مكة للطباعة، القاهرة، مصر، دط، 1998، ص67.

2-حسان بن ثابت: الديوان، ص22.

ولقد رأيتُ بها الحلولَ يُزيّنُهُم بِيضُ الوجوهِ ثواقِبُ الأحْسابِ

فَدَعِ الدِّيارَ وذكرَ كلِّ خريدةٍ بيضاءَ آسنةِ الحديثِ كِعـابِ

د-وما يسجل أيضا في شعر هذا العصر هو الابتعاد عن القصيدة المركبة مثل ما هو الحال في قصائد الشعر الجاهلي وقصائد المعلقات خصوصا في بنائها المحكم من مقدمة طللية ووصف للرحلة وما يصاحب ذلك من تعدد في الأغراض، أما قصائد شعر صدر الإسلام فاتسم أغلبها بوحدة الموضوع، والذي لا شك فيه أن الانتقال الفني من عصر الجاهلية إلى عصر صدر الإسلام كان له عظيم الأثر، فقد أخذ الشعراء يتأثرون تأثرا واضحا بفيض من المعاني الدينية الجديدة والأساليب القرآنية وتعاليم الدين الجديد[1].

هـ-تبرز في الشعر الإسلامي بعض الخصائص الجديدة التي طبع به الشعر، ومنها تضمنه أساليب القسم والدعاء والقصص القرآني، وأصبحت هذه الخصائص ملفتة للانتباه في شعر هذه المرحلة.

1-ينظر: مصطفى السيوفي: تاريخ الأدب في صدر الإسلام، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، القاهرة،مصر، ط1، 2008، ص84.

المحاضرة الخامسة: المراثي النبوية(نصوص لمراثي الصحابة، نصوص لحسان بن ثابت).

الرثاء في الشعر العربي:

تمهيد:

الرثاء ترنيمة الحزن الصادق التي يرددها الأسى على أوتار القلوب الحزينة، وهو من أقدم الفنون وأصدقها، لأنه مرتبط بالنفس وبالموت والرحيل وبوداع ليس بعده لقاء. ونجد اللفظة في المعاجم اللغوية العربية تأتي من رثى يرثي والمرثية بالفتح وجع في الركبتين والمفاصل[1] ويقال: رثيت لفلان رققت وأشفقت، والمرثث الصريع الذي يثخن في الحرب ويحمل حيا ثم يموت[2].

والرثاء في الاصطلاح هو بكاء الميت وذكر مناقبه شعرا أو نثرا، والمرثية بكاء الميت وتعداد محاسنه، والشعر في المراثي إنما يقال على الوفاء، ويجمع بين التفجع والحسرة والأسف والاستعظام، وذكر صفات المدح مختلطة بالدموع، وليس بين المرثية والمدحة فضل إلا أن يذكر في اللفظ ما يدل على أنها لهالك[3]. والرثاء بكاء الميت والتفجع عليه وإظهار اللوعة لفراقه والحزن لموته، وعدّ خلاله الكريمة، وهو عند العرب البادية تشييع الميت والمشي خلف الجنازة حفاة، ويحل النساء شعورهن وتلطخ رؤوسهن بالرماد وقد تحلق رؤوسهن حزنا على الميت[4].

لقد عرف العصر الإسلامي المراثي ولكن بطابع مختلف عما تميز به في الجاهلية فقد أصبح يصدر عن نفس مؤمنة راضية بقضاء الله وقدره مفتخرة بالموت في سبيله، لذلك أقبل الشعراء على رثاء موتاهم في السلم والحرب، وأبرزوا صفات العقيدة والصبر والإيمان، لأن الحياة زائلة وأن الدار الآخرة هي مصير كل حي، وهي دار القرار.

1-الجواهري إسماعيل بن حماد: تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، دط، دت، مادة (رث).

2-ابن منظور: لسان العرب، مادة (رث).

3-الرافعي: تاريخ آداب العرب، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، ط5، 2012، ص721.

4-حسن جاد حسن: الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام، دار العرب، دمشق، سورية، ط1، 2012، ص147.

أولا–أنماط الرثاء العربي:

تحتفظ الأمة العربية بتراث ثرّ من المراثي، فطالما عبر الشعراء عن أحاسيسهم العميقة نحو أشخاص حين يدركهم الموت، فتتحرك فيهم المشاعر لتكتسي ولعا يحرك القرائح لتنبعث فيها الحياة بأعمق آلامها وأجل صور المعاناة، وقد تتخذ هذه المراثي أنماطا ثلاثة فتكون ندبا، أو تأبينا، وقد تكون عزاء.

أ–الندب:

هو التعبير عن المشاعر في لوعة وتفجع، عرفه ابن منظور بقوله:" ندب الميت بعد موته من غير أن يقيد ببكاء، وهو من الندب للجراح لأنه احتراق ولذع"[1] إذن فالندب هو بكاء على الميت، وهذا النمط من الرثاء منذ زمن بعي،د ولعل أبرز الشواعر الخنساء التي ندبت أخويها معاوية وصخرا ففاض شعرها بالأحاسيس الصادقة.

ولما أفل كوكب الرسالة المحمدية استحالت المدينة قلبا واحدا يحترق لوعة وأسى ويفيض حسرة لهذا المصاب الجلل والخطب المحزن الذي كان له بالغ الأثر في نفوس المسلمين وبقلوب واجفة وعيون باكية شيع الصحابة وجموع المسلمين محمدا-صلى الله عليه وسلم- وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه أجلدهم على الرغم من تمكن الحزن على قلبه حيث تذكر كتب السيرة أنه خطب يوم السقيفة بعد أن نزلت السكينة على قلوب المسلمين فوحد صفوفهم، ووطد أركان الدين.

وفي ندب رسول الله ما نجده نثرا، وهو قليل مقارنة مع ما نجده شعرا ومن هذا الندب ما قالته فاطمة بنت النبي: "يا أبتاه أجاب ربا دعاه.. يا أبتاه إلى الجنة مأواه.. يا أبتاه إلى جبريل ننعاه"[2] وفي هذا التركيب الموجز اختصار لكثير من المعاني وهو تعبير عن عظمة الفجيعة وأثرها في

1–ابن منظور: لسان العرب، مادة (ندب).

2–ابن الجوزي: صفوة الصفوة، تحقيق محمود فاخوري، دار الوعي، حلب، سورية، ط1، 1969، ج1، ص227.

النفوس، وفي نفس المضمون والسياق يقول أبو بكر الصديق-رضي الله عنه-: "وا نبياه.. وا صفياه.. وا خليلاه.. صدق الله رسوله. "إنك ميت وإنهم ميتون"[1]

ب– التأبين:

هو نمط من أنماط الرثاء في الشعر العربي، كان يعني الثناء على الشخص حيا أو ميتا ثم اقتصر على الموتى فقط، والتأبين مدح و تعداد للمحاسن، لأن هناك صلة بين التأبين والمدح. إذ أن تأبين الميت هو بمثل ما كان يمدح له في حياته، فالتأبين ليس نواحا ولا نشيجا بل هو أدني الثناء منه إلى الحزن الخالص. وفي تأبين رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كثيرا ما يتردد قول الصحابة -رضي الله عنهما-: "اللهم أشهد أنه قد بلغ ما أنزل إليه، ونصح لأمته وجاهد في سبيل الله حتى أعز الله دينه وتمت كلمته".

جـ–العزاء:

هو مرثية عقلية فوق مرتبة التأبين يقول المبرد(ت288هـ): "وتعزيك الرجل تسليتك إياه، والعزاء هو السلوّ، وحسن الصبر على المصائب"[2] والعزاء هو السلوّ وحسن التصبر على المصائب، وخير المصيبة العوض منها والرضا بقضاء الله والتسليم لأمره، إذن فهي "التصبر وذكر ما يسلّي صاحب الميت، ويخفف حزنه ويهون مصيبته، وهي مستحبة، لإنها مشتملة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[3].

ثانيا–المراثي النبوية:

هي قصائد شعرية قيلت في وفاة الرسول-صلى الله عليه وسلم- أسى وحزنا على فراقه أو مدحا وثناء وترحما عليه، فوفاة الرسول جعلت من الشعر بكاء له بألفاظ مؤثرة وموحية تعبر عن

1-البيهقي أحمد بن الحسين بن علي: دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج7،ص215.

2-المبرد أبو العباس محمد بن يزيد: التعازي والمراثي والمواعظ، تحقيق إبراهيم محمد حسن الجمل، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، دط، دت، ص45.

3-الأبشيهي شهاب الدين محمد بن أحمد: المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق محمد خير طعمة الحلبي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط5، 2008 ، ص730.

فداحة المصاب وعظمة الموقف، وكاد الناس أن يفقدوا وعيهم لشدة الصدمة فعمر بن الخطاب- رضي الله عنه- لم يتمالك نفسه من خلال قوله: " ليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن الرسول قد مات" ولم يقف من دهشته إلا حين نبهه أبو بكر الصديق-رضي الله عنه-إلى قوله تعالى: ((وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم)) (سورة آل عمران، الآية 144). كانت مراثي الرسول-صلى الله عليه وسلم- حول ذكر صفاته وتصور الحزن الحقيقي لفقده، ومن نماذج المراثي النبوية يرثيه حسان بن ثابت ملتاعا معبرا عن عظيم المصيبة وخسارة الناس لفقده في قوله[1]:

تاللهِ ما حَمَلتْ أنثَى وما وَضعتْ مثلَ الرّسولِ نَبِيّ الأمَّــةِ الهادِي
ولا بَرَا اللهُ خلــقاً منْ بَرِيَّتِه أَوْفَى بذمَّــةِ جـارٍ أو بمِيـعادِ
مِنَ الذي كان نورا يستضاءُ بهِ مباركَ الأمرِ ذا عدلٍ وإرشادِ

ويقول حسان بن ثابت[2]:

بطيبةَ رسمٌ للرسولِ ومعهــــــدُ منيرٌ، وقد تعفو الرسومُ وتهمــدُ
ولا تنمحي الآياتُ من دارِ حرمةٍ بها مِنْبَرُ الهادي الذي كانَ يَصْعَدُ
ووَاضِحُ آياتٍ، وَبَاقــي مَعَــــالِمٍ وربعٌ لهُ فيهِ مصلىً ومســــجدُ
بها حجراتٌ كانَ ينزلُ وسـطــها مِنَ الله نورٌ يُسْتَضَاءُ، وَيُوقَــــدُ
معالمُ لم تطمسْ على العهدِ آيــها أتَاهَا البِلَى ، فالآيُ منها تَجَــدَّدُ
عرفتُ بها رسمَ الرسولِ وعهــــدهُ وَقَبْرَاً بِهِ وَارَاهُ في التُّرْبِ مُلْحــِدُ
ظللتُ بها أبكي الرسولَ، فأسعدتْ عُيون، وَمِثْلاها مِنَ الجَفْنِ تُسـعدُ
تذكرُ آلاءَ الرســــولِ، وما أرى لهَا مُحصِياً نَفْسي، فنَفسي تبلَّــدُ
مفجعةٌ قدْ شفها فقدُ أحمــــــدٍ فظلتْ لآلاء الرسولِ تعــــــددُ

1-حسان بن ثابت: الديوان، ص:66.

2-المصدر نفسه، ص:60.

فَبُورِكتَ، يا قبرَ الرّسولِ، وبورِكْ بِلاَدٌ ثَوَى فيهَا الرّشِيدُ المسَدَّدُ
وبورِكَ لحدٌ منكَ ضمنَ طيباً عليهِ بناءٌ من صفيحٍ، منضدُ
لقد غَيّبوا حِلْماً وعِلْماً وَرَحمةً عشيةَ علوهُ الثرى ، لا يوسدُ
يبكونَ من تبكي السمواتُ يومهُ ومن قدْ بكتهُ الأرضُ فالناس أكمدُ
إمامٌ لهمْ يهديهمُ الحقَّ جاهداً معلمُ صدقٍ، إنْ يطيعوهُ يسعدوا
عَفُوٌّ عن الزّلاّتِ، يَقبلُ عُذْرَهمْ وإنْ يحسنوا، فاللهُ بالخيرِ أجودُ
وأمستْ بِلادُ الحَرْم وَحشاً بقاعُها لِغَيْبَةِ ما كانَتْ منَ الوَحْيِ تعهدُ
قِفاراً سِوَى مَعْمورَةِ اللَّحْدِ ضَافَها فَقِيدٌ، يُبَكّيهِ بَلاطٌ وغَرْقدُ
فَبَكّي رَسولَ الله يا عَينُ عَبْرَةً ولا أعرفنكِ الدهرَ دمعكِ يجمدُ
ومالكِ لا تبكينَ ذا النعمةِ التي على النـاسِ منها سابغٌ يتغمدُ
فَجُودي عَلَيْهِ بالدّموعِ وأعْولِي لفقدِ الذي لا مثلهُ الدهرِ يوجدُ
وَمَا فَقَدَ الماضُونَ مِثْلَ مُحَمّدٍ ولا مثلهُ، حتى القيامةِ ، يفقدُ

وتقول فاطمة في تأبين الرسول[1]:

اغْبَرَّ آفاقُ السّماءِ وكُوِرَتْ شَمْسُ النَّهارِ وأَظلَمَ العَصْرانِ
فالأرضُ منْ بعدِ النَّبِيّ كئيبةٌ أسفاً عليهِ كثيرةُ الرَّجَفانِ
فلْيُبْكِهِ شرقُ البلادِ وغَرْبُهَا ولْيُبْكِهِ مُضرٌ وكلُّ يَمَانِي
ولْيُبْكِهِ الطَّودُ المعَظَّمُ جَوُّهُ والبيتُ ذو الأستارِ والأركانِ
يا خاتمَ الرُّسلِ المباركَ ضوؤُه صلّى عليكَ منزّلُ القرآنِ

1-ابن رشيق القيرواني أبو علي الحسن: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2001، ج2، ص102.

إن الحزن والفراق هو من دفع أصحابه و كثيرا من الشعراء إلى نظم القصائد معبرين عن عميق الأسى الذي حل بهم، وعن الفراغ الذي تركه النبي، وقد كانت وفاته صدمة نفسية أشد إيلاما للصحابة والمسلمين جميعا.

ثالثا–مضامين المراثي النبوية:

رابعا–الخصائص الفنية في شعر المراثي النبوية:

–في إطار بنية القصيدة حفل الشعراء بالبيت الأول من بناء القصيدة لأنه أول ما يطرق الأسماع منها، وهو الباب الذي يدل على أرجائها، فكثير من مطالع قصائد المراثي النبوية كان له ابتداء حسن واستهلال ساحر أخاذ، وكل المطالع هي عبارة عن مدخل يراد به التنبيه إلى غرض القصيدة، والإسراع بالقارئ إليها من غير إبطاء بمقدمة طللية أو مراوغة بالغزل أو نحوه، يقول عمرو بن الفحيل الزبيدي في رثاء النبي[1]:

أسْعِدينِي بدَمْعِكِ الرَّقراقِ لفراقِ النَّبِي يومَ الفِراقِ

فهذا البيت الشعري من أجود مطالع المراثي وأبرعها لسهولته، وسر جماله يكمن في تكرار أصواته خاصة في حرفي الراء والقاف، وحركات المد الطويلة في الكلمات(الرقراق، الفراق) وكان للتصريع والقافية المكسورة المطلقة جرس رقيق ليّن أسدل على البيت حنينا وأسى وافق وعبر عن المقام بصدق.

–تدور في المراثي النبوية مجموعة من الألفاظ تشكل حقلا معجميا يتكون من ألفاظ الدموع والبكاء، لأنها تعكس مشاعر التفجع الشديد، وهي لكثرتها تلائم مقام الفقيد -صلى الله عليه وسلم- فالشعراء والصحابة لم يجدوا حيلة إلا البكاء والدموع وهي ميزة فطرية لا تفارق إنسانا صادقا في حزنه ومصابه، هناك أيضا معجم أخر من الألفاظ اشتمل على صفات النبي كالرحمة والهداية والجود والنور والسراج والبشير والنذير والشمس التي تضيء والتقى والطهر...

1–ينظر:محمد شمس عقاب: المراثي النبوية في أشعار الصحابة توثيق ودراسة، مكتبة دار البخاري، الإسماعيلية، مصر، ط1، 2013، ص373.

- لم تتبع المراثي النبوية سنن المراثي الجاهلية، بل نجد فيها آثارا ظاهرة من آثار الإسلام ومن مصدريه القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وبهذا تضمنت المراثي الكثير من المعاني والألفاظ القرآنية، وكذلك من ألفاظ السنة النبوية.

المحاضرة السادسة: شعر النقائض(نصوص من نقائض جرير، الأخطل، الفرزدق).

تمهيد:

بانتقال الحكم إلى بني أمية سنة 41هـ يبدأ العصر الأموي بزعامة معاوية بن أبي سفيان حتى سنة132هـ وهو تاريخ بداية العصر العباسي، في هذا العصر اتسعت الخلافة الإسلامية وانتشرت الفتوحات، وازدهرت الحواضر الإسلامية كمكة المدينة والبصرة والكوفة دمشق، وانتقلت عاصمة الخلافة من المدينة إلى دمشق، أما الشعر فقد عرف تطورا كبيرا بسبب الفتوحات الإسلامية، وانتقل من البوادي إلى الحواضر، فازدهر مما أدى إلى ظهور ألوان جديدة من الشعر.

تعريف النقائض:

يعتبر فن النقائض من الفنون الشعرية العربية بدأت بواكيره منذ العصر الجاهلي ليتطور ويصبح فنا أدبيا قائما بذاته في العصر الأموي على أيدي كثير من الشعراء، أشهرهم جرير والفرزدق والأخطل. والنقائض جمع نقيضة مأخوذة من نقض البناء إذا هدمه، وناقضه في القول خالفه، والمناقضة في القول أن تتكلم بما يتناقض معناه، والمناقضة في الشعر أن ينقض الشاعر الآخر ما قاله الأول حتى يجئ بغير ما قال[1]. وفي القاموس المحيط مأخوذة أيضا من نقض البناء إذا هدمه، والحبل إذا حلّه، وضده الإبرام يكون للبناء والحبل والعهد[2].

أما الصورة الاصطلاحية التي انتهى إليها هذا الفن منذ العصر الجاهلي، فالأصل فيها أن يتجه الشاعر إلى شاعر آخر بقصيدة هاجيا أو مفتخرا، فيعمد الآخر إلى الرد عليه هاجيا مفتخرا ملتزما البحر والقافية، وحروف الروي الذي اختاره الأول، وهذا يعني لابد من توافر وحدة الموضوع فخرا أو هجاء أو سياسة أو جملة من هذه الفنون المعروفة، ولا بد أيضا من وحدة البحر، فهو الشكل الموسيقي الذي يجمع بين النقيضتين ويجذب إليه الشاعر الثاني بعد أن يختاره الأول، ولا بد من وحدة القافية المراد بها الأصوات التي تتكرر في نهاية كل بيت من أبيات القصيدة.

1-ابن منظور: لسان العرب، مج، مادة (نقض).

2-الفيروز آبادي مجد الدين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، دار نوبلس، بيروت، لبنان،ط1، 2006، ج5، مادة (نقض)

يفهم مما سبق أن النقيضة قصيدة يرد بها الشاعر على قصيدة لخصم له، فينقض معانيها بقلب فخر خصمه هجاء، وينسب الفخر الصحيح إلى نفسه، وتكون النقيضة عادة من بحر قصيدة الخصم وعلى رويها[1] والنقيضة غالبا ما تدور حول موضوعين هما الفخر والهجاء الفاحش في القول الذي يتطرق إلى أعراض الأمهات والزوجات والأخوات وفيه قدر قليل من الطرافة والفكاهة والسخرية اللاذعة.

نشأة النقائض وتطورها:

النقائض فن قديم عرفت منذ الجاهلية إذ سايرت أيام العرب ومعاركهم وعصبياتهم القبلية، ويؤكد الباحثون على أن هذا الفن قديم قدم الفخر والهجاء، وقدم المنافسات القبلية والمنازعات العصبية التي سادت الحياة العربية قبل الإسلام بسنين طويلة[2] لكن نشأتها الأولى لم تأخذ صورة النقائض بكل أصولها وقواعدها وشروطها الفنية، فكانت تأخذ صورة الرد الذي لا يتقيد بأصول المناقضة، ثم أخذت تتطور شيئا فشيئا في نهاية العصر الجاهلي[3].

وقد أشار شوقي ضيف إلى أن بذور النقائض سبقت العصر الأموي وهي قديمة عرفها العرب في العصر الجاهلي، وأنها تطوير لفن الهجاء، كما يؤكد عدم وجود علاقة بين الهجاء وفن النقائض في العصر الأموي، حيث أصبحت النقائض شيئا يراد به اللهو لا الجد كما كان الشأن قديما، ولم يكن الشاعر في العصر الجاهلي يهجو ليضحك، ولم يكن يهجو أمام خصومه مباشرة[4] ومن النماذج الجاهلية التي تناولت النقائض نسجل ما دار بين الحارث بن عباد وبين المهلهل بن ربيعة يقول الحارث[5]:

قَرَّبا مربطَ النّعامةِ مِنّي لقحتْ حربُ وائلٍ عنْ حِيالِ

1-ينظر عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، ج1، ص361.

2-ينظر: صلاح رزق: الأدب الأموي، مكتبة القاهرة، القاهرة، مصر، ط1، 1995، ص95.

3-ينظر: صلاح الدين الهادي: اتجاهات الشعر في العصر الأموي، دار الثقافة العربية، القاهرة، مصر، دط، دت، ص273.

4-شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي، دار المعارف، القاهرة، ط8، 1987، ص 163، 164.

5-عبد الرحمن لوصيفي: النقائض الشعرية في الشعر الجاهلي، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط1، 2003، ص119.

قرّبا مربطَ النّعامةِ مِنّي ليسَ قولِي يُرادُ لكنْ فِعـالِي
قرّبا مربطَ النّعامةِ مِنّي لاعتناقِ الأبطالِ بالأبطالِ
قَرّبا مربطَ النّعامةِ مِنّي لبُجَيْرٍ مفكك الأغـــلالِ

ويرد المهلهل بن ربيعة:

قَرّبا مربطَ المشهرَ منّي لكُليبٍ الذي أشابَ قِذالي
قربا مربطَ المشهرَ مني إنَّ قولِي مطابقٌ لفعـــالِي
قَرّبا مربطَ المشهرَ منّي لكليبٍ فداهُ عمّي وخَـالِي
قرّبَا مربطَ المشهرَ منّي لاعتناقِ الكماةِ والأبْطـالِ

فلما جاء الإسلام ازدهرت السجالات والمنافسات الكلامية التي كانت تنشب بين أنصار الرسول–صلى الله عليه وسلم– ومشركي قريش، فقد أدى هذا الصراع إلى نشوب النقائض فاستثمر الشعراء المسلمون في هذا الفن في الدفاع على نبيهم ونصر عقيدتهم بكل ما توفره النقيضة من قدرة على هدم كل ما يدعيه شعراء المشركين من مفاخر وما يلصقونه بالمسلمين من عيوب، فقد كانت النقائض في صدر الإسلام دفاعا عن العقيدة، بعدما كانت في الجاهلية دفاعا عن القبيلة ومصالحها وعن القضايا الفردية، وكان من أبرز شعراء النقائض في صدر الإسلام وفرسانها من قريش عبدالله بن الزِّبَعْرَى، وضرار بن الخطاب، وأبو سفيان بن الحارث، أما فرسانها من المسلمين في المدينة حسان وكعب بن زهير و عبد الله بن رواحة.

وفي العصر الأموي بلغ هذا الفن مرحلة تكاملت أسسه على يد فحول الشعر الأموي جرير والفرزدق والأخطل، فتغيرت غايته وصورته، أما من حيث الغاية فأصبح يراد به اللهو لا الجد كما كان في القديم، وعموما فقد عرفت النقيضة تطورا لا مثيل له في العصر الأموي وذكاها الصراع الذي اندلع بين الشيعة والخوارج والأمويين، هذا الصراع الذي استغلته الدولة استغلالا ظاهرا

بتشجيع الناس عليه مبدعين ومتلقين[1] خاصة حين اتساع الخلاف بين قبيلتي قيس وتغلب، وظهر من الشعراء جرير والأخطل والفرزدق الذين تزعموا راية هذا الفن واستحقوا لقب فحول النقائض الأموية، وشهد لهم النقاد بالتقدم والشهرة خاصة ما كان يدور بين الفرزدق وجرير.

عوامل نشوب النقائض في العصر الأموي:

تعددت الأسباب التي أدت إلى نشوب هذا الفن الشعري في العصر الأموي ونذكر منها أهم العوامل بشكل موجز:

1-عوامل اقتصادية:

ظهرت هذه العوامل بشكل جلي في تشجيع بني أمية للصراع القبلي لأجل تثبيت حكمهم وإشغال القبائل العربية عن حكمهم، وقد ذكرت المصادر أن والي العراق الأموي بشر بن مروان كان يغري بين الشعراء ويدفعهم إلى التهاجي[2] وهي الأسباب التي تأثرت بها نقائض جرير والأخطل، وعلى ما كان بين قيس وتغلب من عداوة مردها المنافسة على أرض الجزيرة واستغلالها، وكذلك كانت نقائض جرير مع غسان والبعيث إذ كانت بسبب غدير ماء القاع الذي اعترك فيه بنو جحيش وبنو الخطفي قوم جرير.

2-عوامل سياسية:

كان موقف قيس عيلان مع الزبيريين على بني أمية، ثم مكانتهم في الشام والجزيرة مما أخاف تغلب قوم الأخطل وموقف جرير الذي يناصر قيس عيلان من الأخطل الذي هو شاعر بني أمية. فلا يخفى الدور السياسي لبني أمية في إشاعة هذا الفن الشعري الذي ألهى طائفة من الشباب وصرفهم عن التفكير في شؤون الخلافة والحكم، وأهم من وقفوا حياتهم على تنمية النقائض القبلية الشاعر جرير الذي ينتمي إلى عشيرة كليب اليربوعية، والشاعر الفرزدق من عشيرة مجاشع الدارمية،

1-أحمد الشايب: تاريخ النقائض في الشعر العربي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، ط4، دت، ص2.

2-إحسان النص: العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط2، 1973، ص275.

واستمرت نقائضهما نحو خمسة وأربعين عاما[1]. والشاعر الأخطل تغلبي في نقائضه مع جرير وكان ينتصر لبني أمية أو للدارمية قوم الفرزدق في سبيل قومه، وكان يفتخر بمآثر تغلب وأيامها في جميع المواقف، وكان جرير على الرقم من نزعته القيسية تميميا يفخر بتميم عامة.

3–عوامل عقلية واجتماعية:

كانت العصبية القبلية الدافع المباشر لما يثار من مناقضات بين الشعراء في الغالب، فالأخطل تغلبي في نقائضه مع جرير، وكان انتصاره لبني أمية وكان يفخر بمآثر تغلب وأيامها، وجرير على الرغم من نزعته مع قيس فهو تميمي يفخر بتميم وبكليب اليربوعية رهطه خاصة حين يلتحم مع صاحبيه الفرزدق والأخطل وكذلك كان يفعل الفرزدق الذي يفخر بعشيرته مجاشع الدارمية.

4–عوامل نفسية:

هناك دوافع تسهم في تشكيل الشخصية الأدبية للشاعر وقد تدفعه للمشاركة والتفاعل بشكل كبير في غرض الهجاء والنقائض، فللإحساس النفسي تأثير مهم في بناء الشخصية وميولاته الفكرية والموضوعية، وهذا ما نجده مثلا عند الشاعر جرير وما يحسه من ضعة وهوان يسيطر على نفسيته بسبب هوان أسرته وفقر قومه والنشأة المعدمة في صباه، فهذه الأسباب من شأنها تفجر الإبداع في نفسه، وتصنع شخصيته في الهجاء والنقائض، وفي المقابل قد يتشكل الجانب النفسي للشعراء وينبع الإحساس بالفخر والتعالي والشموخ لعراقة الأصل ومنعة الأهل كما هو الحال عند الشاعر الفرزدق[2].

5–عوامل عقلية:

إن نمو العقل العربي في هذا العصر وقدرته على الحوار والمناظرة السياسية والمذهبية، فقد كانت المناظرات والمحاورات تدور في نواد مختلفة، وفي مختلف حواضر الدولة وفي المساجد وفي

1–ينظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي، ص241.

2–طه نعمان أمين: جرير حياته وشعره، دار المعارف، القاهرة، مصر، دط، دت، ص331.

المجالس والأسواق، وأخذ الشعراء يتناظرون في حقائق القبائل وفي مفاخرها ومثالبها وكل منهم يدرس موضوعه دراسة دقيقة ويبحث في أدلته ليوثقها وفي أدلة خصمه لينقضها ويردها عليه[1].

الخصائص الفنية للنقائض:

يسجل الدارسون لقصائد النقائض جملة من الخصائص تميز بها في الشعر الأموي في طور نضجها الفني في تاريخ الأدب العربي، ومن هذه الخصائص نذكر ما يلي:

أ-الصبغة الدينية:

كثيرا ما تكون معاني القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف مادة لشعرهم ووسيلة لتوكيد المعاني والأدلة والبراهين، فاقتبس شعراء النقائض من القران الكريم اقتباسا مباشرا أو تضمينا لأحكام الإسلام، فخرا به ومسايرة لروحه أو إنكارا لما عاداه كالمسيحية وطقوسها، فدخلت هذه المعاني في صلب النقائض فخرا وهجاء. ومن ذلك قول الفرزدق في نقيضته المسماة الفيصل[2]:

إنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّماءَ بَنَى لنَا بَيْتاً دعائـمُه أعزُّ وأطـولُ

بيتاً بناهُ لنا المليـــكُ وما بنَى حكمُ السّماءِ فإنَّه لا يُنْقلُ

فالبيت الشعري يتضمن الآية الكريمة((أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها ورفع سمكها فسواها))(سورة النازعات: الآيتين 27،28)

ب-طول النقيضة:

النقيضة قصيدة تعرف بطول أبياتها، وقد تتجاوز أكثر من مائة بيت من الشعر، فهي ليست مقطوعة كشعر الغزل، وليست كالأهاجي القديمة التي تستهدف الهجاء العاجل، وإنما الهجاء فيها كموضوع يكون بشكل معقد ومطول يأتي بعد عملية بحث في تاريخ ونسب القبائل، وكل شاعر يحاول التشهير بعيوب خصمه وعيوب قبيلته، فالشاعر جرير إذا أراد أن يهجو الأخطل يذهب

1-ينظر: محمد مصطفى أبو شوارب: أدب العصر الأموي دراسات ونصوص، دار الوفاء، الإسكندرية، مصر،ط1، 2002، ص119.

2-الفرزدق: الديوان، شرح علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1987، ص489.

ويبحث في دسائس تاريخ قبيلته تغلب، والأخطل بدوره يرد بالمثل بعد ما يدرس تاريخ قبيلة خصمه مستغلا أي نقص أو عيب فيها[1].

ج–الفحش في الهجاء:

تتضمن النقيضة هتك الأعراض واستباحة الحريات وكثرة الشتائم ووصف العداوات دون حياء أو ستر، وكان شعراء النقائض يختارون أحقر الألفاظ وأقربها إلى الابتذال، وكثيرا ما صرحوا بألفاظ تستحي الأذواق النقية تقبلها، والألسن العفيفة النطق بها، خاصة ما كان في نقائض جرير والفرزدق، وكانوا ينالون من عرض أزواجهم وأمهاتهم دون ستر وحياء.

يقول الفرزدق في أم جرير[2]:

أَزُرَى بِجَرْيِكَ أنّ أمَّكَ لمْ تكنْ إلا اللَّئيمَ منَ الفحولةِ تُفْحَلُ

قَبَحَ الإلهُ مَقَرَّةً في بطنِهَا منها خَرجْتَ وكنتَ فيها تُحْمَلُ

ويهاجم جرير الفرزدق ويقول في أخته جعثن[3]:

وأفاكَ غَدوكَ بالزبير على منًى ومجَرُّ جعثنكم بذات الحـرملِ

بات الفرزدق يستجيرُ لنفسهِ وعجانُ جعثن كالطريق المُعْمَلِ

أين الذين عَدوْتَ أن لا يدركوا بمجرِّ جعثن يا ابن ذات الدّملِ

أسْلمتْ جعثن إذ يُجرُّ برجلهَا والمنقريُّ يدوسُها بالمَـــنْشلِ

تهوي أستها وتقول يالَ مشاجع ومشق نقبتها كعين الأقبـــلِ

وكان الأخطل دون صاحبيه سبابا، وربما يرجع ذلك إلى ترفعه على مهاجمة نساء المسلمين في دولة إسلامية ترعاه، وأنه لا يخلط مدائحه في الخلفاء بهذا السباب، أو لا يريد التورط في أشياء لا تلائم طبعه، فقلّت في شعره هذه الصور القبيحة.

1–مصطفى أبو شوارب: أدب العصر الأموي، ص139.

2–الفرزدق: الديوان، ص493.

3–أبو عبيدة معمر بن المثنى: كتاب النقائض نقائض جرير والفرزدق، تحقيق محمد أحمد عبد العزيز سالم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2007، ج1، ص163.

ويقول في إحدى قصائده[1]:

مازالَ فينَا رباطُ الخيلِ معلـــمةً وفي كليبٍ رباطُ الذلِّ والعَارِ

النَّازلينَ بدارِ الذُّلِ إنْ نَزَلـــوا وتستبيحُ كليبٌ حرمةَ الدَّارِ

والظَّاعنينَ على أهواءِ نِسْوتِهِـــم وما لهمْ من قديمٍ غيرُ أعْـيارِ

قومٌ إذا اسْتَنْبَحَ الأضيافُ كلبَهُمُ قالُوا لأُمِّهِم بُولي على النَّارِ

فتُمْسِكُ البولَ بخلاً أنْ تجـودَ بهِ وما تبولُ لهم إلاّ بمِقْدارِ

يهجو الأخطل قوم جرير من وجوه شتى، فجعل من أمه خادمة وأمرها أن تطفئ النار من الضيوف، وهي صور من بخل القرى.

د–التصوير المثير:

يعمد أصحاب النقائض إلى الواقعية والهجاء العاري المكشوف ويظهر ذلك من خلال توظيف الألفاظ المفردة التي تدل على معانيها دلالة حقيقية لا رمز فيها ولا كناية، فكشفوا العورات دون مواراة وصوروا العري والسفور القبيح، على نحو ما يصور جرير في نقيضته[2]:

تسوفُ التغلبيَّةُ وهي سَكْرَى قَفاَ الخنزيرِ تَحْسِبُه غَزالاَ

تَظلَّ الخمرُ تَخْلِجُ أخْدَعيْهاَ وتَشْكو في قوائِمِها امْذِلالاَ

أتَحْسِبَ فَلَسَ أمّكَ كانَ مَجْدًا وجدِّكُم عَنِ النَّقْدِ الجُفالاَ

هـ–تعد النقائض الشعرية مصدر من مصادر المعرفة بأيام العرب منذ الجاهلية حتى العصر الأموي؛ لأنها سجلت جانبا مهما من تاريخ الصراع بين القبائل وبين العلويين، وبني أمية كما سجلت نظام الحياة الذي ميز القبائل آنذاك، والصراع الطبقي الاجتماعي الذي برز في هذا العصر.

موضوعات النقائض:

تشتمل النقيضة على أكثر من موضوع، وأهم موضوعاتها الفخر والهجاء والرثاء والوصف.

1–الأخطل: الديوان، شرح مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1994، ص166.

2–جرير: الديوان، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، دط، 1986، ص330.

الفخر:

لا تخلو نقيضة من هذا الموضوع، وشعراء النقائض يفخرون بالخصال القديمة التي كان يفخر بها الشعراء الجاهليون كالكرم والشجاعة والمروءة والوفاء وحماية الجار ونجدة الملهوف ويقفون عند فخر آبائهم وأقوامهم، يقول الفرزدق مفتخرا[1]:

وإنَّ مُجَاشِعًا قدْ حَمّلَـــــتْنِي أموراً لنْ أُضَيِّعَــهَا كِباراَ

قِرَى الأضيافِ ليلةَ كلِّ ريحٍ وقِدْمًا كنتُ للأضيافِ جارَا

ويقول[2]:

لا قومَ أكرمُ من تميمٍ إذْ غَدَتْ عوذُ النِّساء يُسَقْنَ كالآجالِ

الضَّاربونَ إذَا الكَتيبَةُ أحْجَمَتْ والنَّازلونَ غَداةَ كُلِّ نِزالِ

والضَّامِنونَ على المنيَّةِ جارَهُــم والمطعِمونَ غَداةَ كـلِّ شَمالِ

الهجاء:

يعد من مكونات النقيضة الأساسية وركيزة مهمة في بناء القصيدة، يقوم على ثلاث دعائم وهي كالآتي:

-تجريد المهجو وقبيلته من جميع المكارم والفضائل، وإضافتها إلى نفسه وقبيلته مع ذكر مثالب خصمه وقبيلته.

-قذف المهجو بالشتائم والسباب البذئ، وتناول الأعراض والتعرض لنسائه بالفحش والخنا مما تأباه الأذواق وتمجه النفوس، لما فيه من الواقعية السافرة والهجاء المكشوف.

-تصوير المهجو بصور ساخرة تحمل على الضحك[3] .

الرثاء:

1-الفرزدق: الديوان، 307.

2-المصدر نفسه، 495.

3-أبو عبيدة معمر بن المثنى: ديوان النقائض، ج1، ص254، 255.

يبرز كذلك هذا الفن في قصائد النقائض، ومن أمثلة ذلك رثاء جرير لزوجه خالدة بنت سعد بن أوس من بني كليب وأم ابنه خرزة يقول فيها[1]:

لولاَ الحَياءُ لعادَني اسْتِعْبــــارُ ولزرتُ قبْرَكِ والحبيــبُ يزارُ
ولقدْ نَظَرتُ وما تَمَتُّعُ نظــرةٍ في اللَّحْدِ حيث تَمَكَّنَ المِحفارُ
فجزاكِ ربُّكِ في عَشيركِ نَظــرةً وسَقَى صَداكِ مُجَلْجِلٌ مِدرارُ
ولَهَّتِ قلبِي إذْ عَلَتْنِي كَبْــــرةٌ وذَوُو التَّمائمِ من بَنيكِ صِغارُ
أرعى النجومَ وقد مضتْ غَوْريةً عُصَبُ النّجومِ كأنّهنَّ صِــوارُ

كما تتميز النقيضة بتصوير ووصف خواص الأشياء الحسية والمعنوية وكل ما يحيط بالشاعر، وما يوظفه كمادة للنقيضة تقوم عليها كذكر الأيام والأنساب والأحساب وكل مقومات الحياة الاجتماعية وما فيها من عادات وتقاليد تتميز بها كل قبيلة في العصر الجاهلي، وفي عصر صدر الإسلام غلبت المعاني الدينية على غيرها من المعاني الجاهلية فتدعمت النقيضة بمعاني الكفر والإيمان والهدى والضلال.

وفي العصر الأموي عادت النقيضة لتدور في فلك المعاني الجاهلية كتناول الأنساب والأحساب فضلا عن المعاني الدينية وبخاصة ما يتعلق بالشاعر الأخطل النصراني. كما يلاحظ وبشدة ظهور العنصر السياسي كموضوع للنقائص الأموية في نقائض المثلث الأموي، فالشاعر جرير كان يناصر قبيلة قيس على الأمويين، والأخطل كان يناصر الأمويين على خصومهم، مما جعل من العنصر السياسي موضوعا خادما للنقيضة، كما كانت أيضا أيام العرب تعد مادة رافدة للقصائد، إذ أن الشعراء لم يتركوا يوما إلا وذكروه حتى أصبحت هذه النقائض وثيقة تاريخية لها قيمة فنية كبيرة، كما لا ننسى التطرق لموضوع النساء الذي يعد كذلك مادة أساسية، فيوظف الشاعر المرأة في فخره وهجائه بأسلوب الفحش أثناء التعرض لأمهات الخصوم وأزواجهم وأخواتهم.

1-جرير: الديوان، ص154.

نقف عند نقيضتين للشاعرين الفرزدق وجرير، ونرى ما كان يعرضان له من المعاني، يقول الفرزدق[1]:

إنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّماءَ بَنَى لنَا بَيْتاً دعائمُه أعزُّ وأطولُ

بيتاً بناهُ لنا المليكُ وما بنَى حكمُ السّماءِ فإنَّه لا يُنْقلُ

بيتا زرارة محتب بفنائه ومشاجع وأبو الفوارس نهشلُ

يرد عليه جرير[2]:

لِمَنِ الدِّيارُ كأنّها لمْ تُحْلَلِ بينَ الكناسِ وبينَ طَلَحِ الأعْزلِ

ولقد أرَى بكِ والجديدُ إلى بلىً موتَ الهَوى وشِفاءَ عَينِ المُحْتلِي

نظرتْ إليكَ بمثلِ عيْنَي مُغْزِلٍ قَطَعتْ جِبالتَها بأعْلى يَلْـيَلِ

أعلام النقائض:

الأخطل(ت90هـ):

هو غياث بن غوث بن الصلت نشأ على المسيحية في أطراف الحيرة بالعراق، لقب بالأخطل بسبب ما اتصف به من رعونة وسلاطة لسان، توفي في خلافة عبد الملك بن مروان سنة تسعين90 للهجرة[3] والأخطل شاعر وقف فنه وحياته على السياسة، واشترك في فنون أخرى من الشعر حتى عدّ من زعماء الشعراء السياسيين، ومن فحول الشعراء الإسلاميين، ولد في قبيلة تغلب التي تسكن الجزيرة والعراق، وكانت قوية شديدة البأس لم تدخل فيما دخل العرب كافة في الإسلام، ولم تنزل عن نصرانيتها وبقيت عليها وأقرها عمر بن الخطاب على ذلك.

نشأ الأخطل بدويا وقال الشعر طفلا، وهجا امرأة أبيه، نافح عن بني أمية شاعرا مأجورا وهاجم الزبيريين أيام عبد الملك دفاعا عن قبيلته ومكانتها لأنه تغلبي من ربيعة، وفي الإسلام جاءت

1-الفرزدق: الديوان، ص489.

2-جرير: الديوان، ص 356، 357.

3-الأخطل: الديوان، ص4.

قبائل مضرية من قيس فزاحمت ربيعة في الجزيرة وشمال الشام، فهذه القبائل القيسية المضرية مالت مع ابن الزبير على بني أمية، فاتفقت بذلك مصلحة الأمويين واليمنيين والتغلبيين على محاربة القيسية المضرية في الشام والجزيرة والعراق، حتى انتصر عبد الملك على مصعب بن الزبير، لذا كان شعره في صورة الدفاع عن حزب بني أمية والنضال عن قبيلة تغلب وحلفائها من عرب اليمن المقيمين في الشام، وهجا القيسيين خاصة والمضريين عامة[1]. كان أمدح أهل عصره للملوك، وله قدرة كبيرة على وصف الحرب وتصويرها، كان شريب الخمر يسرف في شربها ويستعين بها على قول الشعر، ولذلك كان أقدر أهل عصره على وصفها. أشهر قصائده التي مدح بها عبد الملك بعد انتصاره على مصعب بن الزبير القصيدة التي مطلعها: (خَفَّ القَطينُ فراحوا منك أو بكروا... وأَزعَجَتهُم نَوىً في صَرفِهَا غِيَرُ).

خصومة قبيلته تغلب لقيس اضطرته إلى هجو جرير الذي كان يدافع عن قيس بلسانه فأصبح الأخطل من شعراء النقائض، وهجاؤه معتدل، توفي في أيام الوليد شيخا واستحق لقب شاعر بني أمية، ومن آثاره هجاء كعب بن جُعيد شاعر تغلب، وصار هو شاعرها، وهجا جرير والأنصار والفرزدق وهجا الإسلام وبني تميم، مدح بني أمية فصار شاعرهم وبخاصة عبد الملك، وصف الخمر والحرب.

كان كثير الاعتناء بشعره يختار أجود ما ينظمه حتى يبقي الثلاثين من التسعين بيتا، يمعن في إخراج صوره حتى تأتي كاملة، بقي سنة على نظم(خف القطين) تلك القصيدة الجامعة التي تفوق المعلقات تماسكا وتسلسلا[2].

الفرزدق(ت114هـ):

هو أبو فراس همام بن غالب الدارمي التميمي، أبوه غالب سيد بادية بني تميم، وأمه ليلى بنت حابس أخت الصحابي الأقرع بن حابس، تزوج ابنة عمه النوار، وعرف بحب النساء فتزوج

1-ينظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العصر الإسلامي، ص258.

2-ينظر: مارون عبود: أدب العرب، ص105.

أكثر من مرة، تشيع لآل البيت ولم يمنعه ذلك الاتصال بالأمويين فمدحهم ونال عطاياهم[1]، قال الشعر صغيرا عندما كان طفلا يرعى الغنم، نشأ بالبصرة بين فصحاء العرب فلم تشب لغته عجمة ولا لحن، وهو من الشعراء الذين قام الشعر العربي على مناكبهم في عصر بني أمية، فلم يدع بابا إلا طرقه، ولا فنا إلا نظم فيه، فنال إعجاب الناس وحتى اللغويين الذين قالوا فيه: إنه لولا شعره لذهب ثلث اللغة ولضاع نصف أخبار الناس[2] وهو من قبيلة عديدة المآثر والثراء، ومن أسرة كريمة ورث عنها البأس والشدة والنفور من كل سلطة كان شكسا محبا للخصومة يهجو الأفراد والجماعات، مدح زين العابدين وعمر بن عبد العزيز، هجا عبد الملك وزيادا والحجاج وقبائل عديدة، وأشهر مهاجاته مع جرير، ومن أجود ما قاله في المدح قصيدته التي مطلعها:

هذا الذي تعرفُ البطحاءُ وطأتُه والبيتُ يعرفُه والحِلُّ والحَرمُ [3]

جرير(ت 113هـ):

هو أبو حرزة بن عطية بن حذيفة الخطفي التميمي اليربوعي، ولد باليمامة من بيت ونشأ بالبادية، رأى منزلة الفرزدق وما كسبه من الشعر فودّ لو جاراه، وحمسه قومه على ذلك إعلاء لشأنهم، فوقعت بينهم مهاجاة ثم أقدم على البصرة واتصل بالأمويين ومدحهم واتصل بالحجاج فأكرمه، وطار صيته حتى حسد عبد الملك الحجاج عليه، تذكر المصادر أنه كان عفيفا دينا رقيق الطبع أنوفا متعنتا يحب الخصام، أصغر من الفرزدق سنا وقبيلته دون قبيلة الفرزدق عزة وثراء، فهو فقير لا شهرة له ولا نسب كان شديد الهجاء[4] قال فيه الأصمعي: إنه أول الثلاثة في الهجاء المر، وأقر بذلك الفرزدق بقوله: قاتله الله، ما أحسن ناحيته وأشرد قافيته، والله لو تركوه لأبكى العجوز على شبابها والشابة على أحبابها، ولكنهم هروه فوجدوه عند الهراج ناجحا وعند الجدّ قادحا[5]

1-الفرزدق: الديوان، ص8.

2-المصدر نفسه، ص8.

3-ينظر: مارون عبود: أدب العرب، ص109.

4-ينظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العصر الإسلامي، ص276.

5-ينظر مارون عبود: أدب العرب، ص 111.

عمّر نيفا وثمانين سنة ومات باليمامة على الأرجح سنة ثلاث عشرة ومائة للهجرة، وكان له عشرة من الولد فيهم ثمانية ذكور منهم ابنه الشاعر بلال بن جرير، وشعر جرير يعد وثيقة تاريخية وسياسية سجلت الكثير من الأحداث في عصره بين القبائل والأحزاب وولاة الأمور.

المحاضرة السابعة: الشعر العذري والشعر العمري(نصوص من شعر جميل بن معمر، نصوص من شعر عمر بن أبي بيعة).

تمهيد:

وردت كلمة الغزل في المعاجم اللغوية العربية بمعان عديدة فيقال: غزلت المرأة تغزلا غزلا بالمغزل، والغزل الشادن حين يتحرك ويمشي قبل الإثناء، والغزل حديث الفتيان مع الجواري فيقال غازلها مغازلة[1] والغزل حديث الفتيان والفتيات واللهو مع النساء، ومغازلتهن ومحادثتهن ومراودتهن، والتغزل التكلف، وفي المثل أغزل من امرئ القيس، وقيل: غازلتها وغازلتني وتغزل أي تكلف الغزل، ورجل غزل متغزل بالنساء، والغزال من الظباء الشادن قبل الإثناء[2].

والغزل التحدث إلى النساء والتودد إليهن بمعنى أن يتطلب إلى الرجل التحدث إلى المرأة حديثا يؤثر في نفسها ويجذبها حتى يستميلها إلى جانبه ويكسب ودها الذي يقوده إلى حبه. فهو شكل من أشكال التعبير عن خلجات النفس الإنسانية، وعن المشاعر التي تنبعث منها حتى يمتلكها سلطان المحبة، وتتأجج فيها العواطف، ويصور أحوال النفوس بما لا يصورها غيره، ويكشف دواخل المحبوب وسرائره وينبع عادة من عاطفة صادقة[3].

والغزل فن شعري عرفته العرب منذ العصر الجاهلي لارتباطه بطبيعة الحياة البشرية القائمة على العلاقة بين الرجل والمرأة ويتميز بالعاطفة والغنائية لصدوره عن أحاسيس إنسانية مرهفة. والغزل هو التعلق بالمرأة والهيام بها ولعل دافع الحب هو الذي يملي على الشاعر القول في الغزل وكان الغزل يتصدر القصائد الجاهلية مبثوثا في المقدمات الطللية متشعبا إلى اتجاهين تقليدين عفيف وماجن، وظل على حاله في عصر صدر الإسلام إلى أن جاء العصر الأموي فشاع اتجاه ثالث

1-الفراهيدي الخليل بن أحمد: كتاب العين، تحقيق محمد المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2003، مج4، مادة(غزل).

2-ابن منظور: لسان العرب، مادة (غزل) .

3-ينظر: أحمد الحوفي: الغزل في العصر الجاهلي، دار القلم، بيروت، لبنان، دط، 1961، ص5.

عرف باسم الغزل العذري، وفي العصر العباسي ظهر اتجاه رابع تمثل في الغزل الشاذ أو ما يعرف بالغزل بالمذكر.

الغزل في العصر الأموي:

انحدر الغزل الأموي من العصر الجاهلي، ورجع إلى الازدهار بعد أن أهمل قليلا في صدر الإسلام؛ إلا أن هذا الغزل كان في العصر الجاهلية غرضا من أغراض القصيدة يأتي في أبيات تقل أو تكثر وتتوالى أو تتفرق، أما في العصر الأموي فقد أتيح له شعراء وقفوا جهدهم عليه كعمر بن أبي ربيعة الذي جعل منه فنا قائما بذاته، وكان يقصر القصيدة على الغزل، فلا يكاد يقول فيها إلا غزلا، ثم أنه لم يقل إلا في الغزل، فجمع معظم خصائص الغزل العامة من قصص وحوار ومن نقاش وإقناع كغيره من الشعراء الذين يتبعون الجمال ويهيمون في المرأة[1].

ومما أسهم في تطور هذا الغرض في عصر بني أمية، ذلك التحضر والتمدن الذي شهدته الدولة بانتقال المجتمع من البداوة إلى المدينة، ومن شظف العيش إلى الرخاء وكثرة الموالي والاختلاط وانتشار المغنيين والغناء، مما أدى بالشعراء إلى مواكبة هذا الانتقال ونظم مقطوعات غنائية تلائم الحياة الجديدة، وأصبحت حواضر الشام خاصة مكة والمدينة مسرحا للغناء وشاعت أحاديث الغزل والصبابة وشاع كثير من اللهو[2].

وبهذا قد شاع الغزل شيوعا واسعا حتى كثرت تقسيمات الدارسين للغزل في هذا العصر ويكاد يستقر رأيهم على نوعين بارزين هما: الغزل الحسي، والغزل العفيف، ولا يشك أحد في بلوغ الغزل أوجه في عصر بني أمية، وكان الحجاز ميدان هذا الازدهار وشاع نوعاه واحد بدوي عفيف يسمى كذلك بالغزل العذري، والثاني حسي حضري ويسمى كذلك بالغزل العمري، تأثرا بالبيئة الجديدة التي أحدثها الرخاء وطيب العيش وانتشار اللهو.

1-ينظر: عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي الأدب القديم من مطلع الجاهلية إلى سقوط الدولة الأموية، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ج1، ص367.

2-ينظر شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي، ص221.

الغزل العذري:

الغزل العذري هو غزل نقي يبتعد عن الألفاظ الفاحشة، والتصريح الفاضح منهجه العفة والطهارة والحلم والصدق، وهو مرادف للطهر والعفة والتسامي، فهو يسمو ويرتقي في العواطف، ويتسم بصدق العاطفة وحرارتها، وقد نسب إلى قوم بني عذرة إحدى قبائل قضاعة التي كانت تنزل في وادي القُرى شمال الحجاز لأن شعراءها أكثروا من التغني به ونظمه، ويروى أن سائلا سال رجلا من بني عذرة، فقال ممن أنت؟ فقال الرجل: من قوم إذا عشقوا ماتوا، ولم تقف موجة الغزل العذري في هذا العصر عند عذرة وحدها فقد شاع في بوادي نجد والحجاز وخاصة بين بيني عامر[1] فأصبح هذا الشعر ظاهرة عامة لم تنغمس في الحب الحضري المترف ولا الحب الذي تدفع إليه الغرائز، فكانت تعصمها بداوتها وتدينها بالإسلام.

إنما هو غزل ينزع منزع الحب العفيف السامي الذي يصلى المحب بناره ويستقر بأحشائه حتى يصبح محنة أو داء لا يمكن التخلص منه، حتى قيل لأعرابي من بني عذرة: "ما بال قلوبكم كأنها قلوب الطير؟ أما تتجلدون؟ فقال: إننا ننظر إلى محاجر أعين لا تنظرون إليها"[2]. فهذا النوع يشكل مدرسة لها خصوصياتها وسماتها، فقد هجر أصحابها التعابير المكشوفة والألفاظ الفاضحة والصراحة المخجلة، فمدرسة الغزل العفيف كانت ثمرة القيم الروحية التي بثها الإسلام في البادية العربية فصنعت نفوس الشعراء العذريين، الذين كان لهم قصص في الحب يتسم بالصدق والعفة والحياء والمشاعر الملتهبة.

فهو شعر تشع منه حرارة العاطفة وشدة الأشواق، يصور خلجات النفس وفرحة اللقاء وألم الفراق، ولا يحفل بجمال المحبوبة الجسدي إلا نادرا بقدر ما يحفل بجاذبيتها وسحر نظراتها وقوة أسرها، وفي هذا النوع من الغزل يقتصر الشاعر على محبوبة واحدة طوال حياته أو مدة طويلة من حياته، يتصف شعر هؤلاء العذريين بوضوح الحب والإخلاص وصدق العواطف ومن أشهر أعلام

1-شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي، ص359.

2-ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم: عيون الأخبار، دار الكتب والوثائق القومية، ط1، 1930، ج4، ص130.

هذا النوع: جميل بن معمر(بثينة) وعروة بن حزام (عفراء) والصمة القشيري (ريّا) وكثيّر(عزة) وذو الرمة(ميّة) وتوبة بن الحمير(ليلى الأخيلية) وقيس بن ذريح(لبنى) وقيس بن الملوح (لبنى).

نماذج من شعر الغزل العذري:

يقول مجنون ليلى[1]:

تداويتُ منْ ليلَى بليلى عنِ الهوَى كمَا يتداوَى شاربُ الخمرِ بالخمرِ
ألاَ زعمتْ ليلى بأنْ لا أحبُّـها بلَى ولياليِ العشرِ والشَّفعِ والـوتْرِ
بلىَ والذي لا يعلمُ الغيبَ غيـرهُ بقُدرتهِ تجْري السّفائنُ في البحرِ
بلى والذي نادَى منَ الطورِ عبْـدَهُ وعَظَّمَ أيّامَ الذَّبيحةِ والنَّـحرِ
لقد فُضِّلتْ ليلى على النّاسِ مثلَ ما على ألفِ شهرٍ فضِّلتْ ليلةُ القدرِ

ويقول[2]:

تَعلَّقْتُ ليلى وهيَ غرٌّ صغـيرةٌ ولم يبدُ للأترابِ منْ ثدْيِها حَجْمُ
صغيرينِ نرعَى البُهْمَ يا ليتَ أنَّنَا إلى اليـومِ لم نكبرْ ولم تكبرِ البُهمُ

يقول جميل بن معمر[3]:

هي البدرُ حُسناً والنّساءُ كواكبُ وشتَّانَ مابينَ الكواكبِ والبَدرِ
لقد فُضِّلت حسنا على الناس مثلما على ألف شهر فُضِّلت ليلة القدرِ
عليها سلام الله من ذي صـبابة وصبٍّ مُعَنًّـى بالوساوس والفكر
يقولون: مجنونٌ يهيمُ بذكـرهَا ووالله ما بي منْ جنونٍ ولا سحرِ
أيبكي الحمامُ الأيك منْ فَقدِ إلفهِ وأصبر؟ وما ليَ عن بثينة من صبرِ
وأقسمُ لا أنساكِ ما ذرَّ شـارقٌ وما هبَّ آلٌ في معلَّمةٍ قـفرِ

1-مجنون ليلى قيس بن الملوَّح: الديوان، يسري عبد الغني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1999، ص70.

2-المصدر السابق، ص28.

3-جميل بن معمر: الديوان، دار صادر، بيروت، لبنان، دط، دت، ص58.

فيا ليتَ شعرِي هلْ أبيتنَّ ليلةً كليلتنا حتى نرَى ساطع الفجرِ

يقول ذو الرمة[1]:

أَمَنزِلتَيْ ميٍّ سلامٌ عليكـــماَ على النَّـأيِ والنَّائِـي يودَّ وينــصحُ
ولا زالَ من نوءِ السِّماكِ عليكما ونوءِ الثّـــريا وابلٌ مُتبــطِّحُ
وإن كنتما قد هجتُما راجع الهَوى لذي الشوقِ حتى ظلّتِ العينُ تسفحُ
أجلّ عبرةً كانت لعرفانِ منـــزلٍ لميّةَ لو لم تُسهل الماء يذبــحُ
على حينَ راهقتُ الثلاثين وارعوتْ لداتي وكاد الحِلمُ بالجــهلِ يرجـــحُ
إذا غيَّرَ النَّأيُ المحبيّن لم يـــكدْ رسيسُ الهوى من حبِّ ميَّةَ يــبرحُ

خصائص الشعر العذري:

الشعر العذري في أغلبه مقطوعات شعرية تنساب معها العواطف انسيابا رقيقا، وتتدفق منها المشاعر وتنبعث منها المعاني الرقيقة سيلا جارفا. فمن خصائصه: بساطة العبارة ووضوح المعنى لأنه انعكاس للتجربة الفنية التي تكشف عن حالة الهيام التي تستجيب إلى لغة شعرية تتسم بالنقاء والصفاء الروحي. وكثيرا ما تتضمن المقطوعات الشعرية العذرية اقتباسات من القرآن الكريم . كما يحفل الشعر العذري بالمعاني الرقيقة السامية التي تتجه نحو المرأةآ وهو دليل احترامها واحترام العلاقات والعادات الاجتماعية السائدة، وهو مظهر من المظاهر الأصالة العربية.

الغزل العمري:

شاع الغزل العمري الحسي في حواضر الحجاز مكة والمدينة في عصر بني أمية ولقد أطلق عليه الدارسون عدة تسميات منها: الغزل الحسي، والغزل الإباحي، والغزل الحضري...

وهذا النوع يصرح فيه الشاعر بكل حبه وزياراته لمحبوباتهآ وعلى رأس هؤلاء الذين اشتهروا بالغزل العذري الشاعر عمر بن أبي ربيعة، والأحوص عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عاصم،

1-ذو الرمة: الديوان، شرح أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1995، ص43.

والعرجي أبو عمر عبد الله بن عمرو، فهم جميعا يطلبون المرأة ويلقون من حولها شباك الإغراء، وقد بلغ من تيه ابن أبي ربيعة أن يصورها متهالكة عليه تتضرع إليه وتستعطفه[1].

عمر بن أبي ربيعة:

هو شاعر مكي من بني مخزوم ولد في بيت قرشي واسع الثراء أبوه عبد الله بن ربيعة المخزومي وأمه مجد يمنية الأصل، توفي أبوه وهو صغير رعته أمه ودللته بما تركه أبوم من أموال وفيرة، عاش حياته للغزل الصريح، ويسر له ثراؤه ذلك، والدنيا دائما باسمة مشرقة ومن حوله المغنون والمغنيات ينشدون شعره. في غزله تفرد غير مسبوق بعد أن حول المرأة من مطلوبة معشوقة إلى طالبة عاشقة، وجعل موضوع الحب أحاديث مشتركة بين الرجل والنساء.

يوصف شعر هؤلاء الحسيين بأنه شعر صريح فاضح يهتك أستار الحرائر، وإمامهم في هذا الفن عمر بن أبي ربيعة، ومن نماذجه يقول في قصيدة[2]:

فيا ليتَ أنِّي، حيثُ تدنُو منيَّتِي شَمِمْتُ الذي مابينَ عينيكِ والفمِ
وليتَ طَهوري كانَ ريقَكِ كلَّهُ وليت حَنوطِي مُشاشِكِ والدَّمِ
وليتَ سُلَيْمى في المنامِ ضجيعتِي لدى الجنَّةِ الخضراءِ أو في جهنّمِ

ويقول في قصيدة أخرى[3]:

أوقفت على طلل من رسم بلوى العقيق يلوح كالوشمْ
أقوى وأقفر بعد ساكـــنة غير النعام يــرود والأدمْ
فوقفت من طــرب أسائله والدمع بيني بين السّــجم

ويقول في قصيدة أخرى[4]:

ثم قالتْ وسامحَتْ بعد منعٍ وأرتْني كفًّــا تَزيــنُ السِّـــوارَا

1-ينظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي، ص349.
2-عمر بن أبي ربيعة: الديوان، شرح فايز محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1996، ص350، 351.
3-المصدر نفسه، ص387.
4-المصدر نفسه، ص156.

فتناولتُها فمالتْ كغصنٍ حرَّكتْهُ ريحٌ علـيهِ فـــحارَا

وأذاقتْ بعد العلاجِ لذيذاً كجَنَى النَّحْل شاب صِرْفاً عُقارا

ولما توفي الشاعر عمر بن أبي ربيعة ترك فراغا ملأه شاعر فضّاح كذلك هو العرجي الذي ملأ الدنيا بهذا النوع من الغزل متبعا خطوات ابن أبي ربيعة، يقول في محمد بن هشام[1]:

عوجـــي علينا ربة الهــودج إنك إن لا تفعلي تحرجي

في الحج إن حجت وماذا منى أهله إن هي لم تحـجج

خصائص الغزل الحسي:

1-اللغة: ما يميز هذا النوع من الغزل هو معجمه اللغوي الذي يتسم باستخدام الألفاظ السهلة والابتعاد عن الألفاظ الغريبة، وهجرها واختيار ما سهل من الألفاظ التي تلائم حياة الناس الجديدة المتحضرة والمتمدنة، فجاء هذا الشعر قريبا من حياة الناس اليومية، ومن شعر عمر بن أبي ربيعة قوله[2]:

بينما يذكرْنَنِي أبصـــرْنَنِي دونَ قيدِ الميلِ يعدُو بي الأغـرْ

قُلْنَ تَعْرفنَ الفتَى قلنَ نعَم قد عرفناهُ وهلْ يخفَى القمرْ

ذا حبيبٌ لم يعرّجْ دونـنا ساقهُ الحَينُ إلينا والقـــدرْ

2-الأسلوب الحكائي: يظهر الشاعر كراو يحكي مسيرة الحدث ويصف حركة الشخصيات، يقول ابن أبي ربيعة[3]:

وليلةَ ذي دَورانَ جشَّمتْنِي السُّرى وقد يجْشَمُ الهولَ المحبُّ المغرّرُ

فبت رقيباً للرفاقِ على شفا أحاذرُ منهم من يطوفُ وانظرُ

إليهم متَى يستمكنُ النّومُ منهمُ ولي مجلسٌ لولا اللبانةُ أَوْعرُ

1-الأصفهاني أبو الفرج علي بن الحسين: الأغاني، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط1، 1975، ج1، ص393.

2-عمر بن أبي ربيعة: الديوان، ص156، 157.

3-المصدر نفسه: ص125.

وباتت قلوصي بالعَراءِ ورحــلُهَا لطارقِ ليلٍ أو لمنْ جاء مُعْوِرُ

3-الحوارية: يتضمن شعر الغزل حوار يدور بين الشاعر والمرأة، أو بين المرأة وأترابها مثل ما جاء في قوله[1]:

فوالله ما أدري أتعجيلُ حاجةٍ سَرَتْ بكَ أم قدْ نامَ من كنتَ تحذرُ

فقلتُ لها بل قادَنِي الشوقُ والهَوَى إليكِ وما نفسٌ من الناسِ تشــعرُ

فقالتْ وقد لانَتْ وأفرخَ روعُها كَلاكَ بحفظٍ ربُّــك المتَكــبِّرُ

فأنت أبا الخطابِ غير مـدافعٍ عليَّ أمــيرٌ ما مكــثتَ مــؤمّرُ

ويقول[2]:

قالتْ لِتربَيْها بعَــمْركُماَ هل تطمعان بأنْ نَرى عُمَرا

إنِّي كأنَّ النفسَ موجِسةٌ ولذاكَ أطمعُ أنَّه حَضَرا

فأجابتاها في مهــازلةٍ وأسرَّتا من قولِها سَخَرا

إنَّا لعَمْرُكِ ما نخافُ ومَا نرجُو زيارةَ زائرٍ ظُهُرا

فالشاعر يتخذ أسلوب الحوار الذي يتماشى مع عرض أسلوب القص وسرد الأحداث في عرض المعاني، فكثيرا ما يصور شعره حوارا بينه وبين النساء، أو ما بين النساء، وهذا يعكس واقعا اجتماعيا من بيئة الشاعر، وكثرة مخالطة النساء وخاصة المغنيات من حوله.

1-المصدر السابق، ص125، 126.

2-المصدر نفسه، ص170.

المحاضرة الثامنة: شعر الزهد والتصوف(نصوص من المشرق والمغرب، أبو العتاهية، ابن الفارض).

أولا– شعر الزهد:

مفهوم الزهد:

يعني لفظ الزهد في المعاجم اللغوية العربية الإقلال أو القلة، فالشيء الزهيد هو الشيء القليل، والزهد في مقابل الحرص على الدنيا يقول الله تعالى: ((وكانوا فيه من الزاهدين)) (سورة يوسف الآية 20) أي اشتروه على زهد فيه والزهيد الحقير، وزهد فيه وعنه زهدا وزهادة أي رغب عنه وأعرض وتركه لاحتقاره لقلته، والتزهيد في الشيء خلاف الترغيب فيه، والزهيد القليل، والمزهد قليل المال، ورجل زهيد يقنعه القليل[1].

وفي الاصطلاح الزهد انصراف عن الدنيا وملذاتها والتمسك بالتقوى والعمل الصالح مع الكسب والعمل، والزهد ليس وليد العصر الإسلامي بل كان له وجود في الديانات الأخرى كالهندية القديمة، وكان أيضا منتشرا بين اليهود والمسيحيين[2]. والزهد هو ترك التعلق بالدنيا وعدم الركون إليها، والإقبال على الآخرة رغبة في ثواب الله فتصبح الدنيا في يد العبد وليست في قلبه, فلا يفرح بشيء منها أقبل ولا يحزن بشيء منها أدبر، والإسلام لا يدعو إلى زهد يترك فيه الناس الدنيا كليا، وينقطعوا إلى الآخرة ولا يرغبهم في الآخرة ليقبلوا عليها كليا ويتركوا الدنيا؛ بل هو دين يدعو إلى الوسطية والاعتدال والى الجمع بين خير الدنيا والآخرة يقول الله تعالى: ((وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين)) (سورة القصص الآية77) فالزهد ليس رفضا للدنيا ولبس الغليظ من اللباس كما يذهب بعض الناس، فقد كان سليمان وداود -عليهما السلام- ملكان وهما مع ذلك من أزهد أهل زمانهما، وكان محمد -صلى الله عليه وسلم- من أزهد الخلق، وكذلك كان الخلفاء وأغنياء

1-ابن منظور: لسان العرب، مادة (زهد).

2-ينظر: أنيس المقدسي: أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط13، 1980، ص79.

الصحابة والأئمة من بعدهم، كعبد الله بن المبارك والليث بن سعد من أصحاب رؤوس الأموال وهم مع ذلك من أزهد الناس[1].

الزهد ظاهرة إسلامية استمدت أصولها من القرآن الكريم والسنة النبوية، وترتبط بالتصور الإسلامي للكون والإنسان والحياة، وهو بهذا لا علاقة له بالزهد في المعتقدات الأخرى كالمسيحية والبوذية، حيث الانقطاع عن الدنيا بشكل تام وترك الزواج والتكسب، وهذا معارض لتصور الإسلام الذي يدعو إلى قيم الطهر والعفاف وتهذيب النفس والإقبال على الآخرة دون أن ينسى الإنسان نصيبه من الدنيا. وقد ترك الشعراء في العصور السابقة مادة غزيرة من الشعر، وصاغوا قصائد في الوعظ تدعو الناس إلى ترك الحياة ومتعها والعيش للآخرة.

من أعلام شعر الزهد:

أبو العتاهية:

هو إسماعيل بن القاسم بن سويد وكنيته أبو إسحاق ولقبه أبو العتاهية من قبيلة عنزة بالولاء وأمه من موالي بني زهرة بنت زياد المحاربي، ولد سنة مائة وثلاثين هجرية قبل سقوط الدولة الأموية بعامين بالقرب من الكوفة في بلدة تسمى عين التمر من أسرة فقيرة، وأبو العتاهية لقب غلب عليه، وسبب ذلك أن يوما قال له المهدي: أنت إنسان متحذلق معتّه فاستوت له من ذلك كنية غلبت عليه، وقد لقب بذلك لأنه كان يحب الشهرة والمجون والتّعتّه، توفي سنة 213هـ ببغداد[2] وكان أبو العتاهية من الشيعة الزيدية وهي عقيدة لا تتجه إلى الطعن في الصحابة كالشيعة الإمامية، ونفى المستشرق نيكسون تشيعه استنادا إلى نص شعري له يذكر فيه أن أهل التقى هم أبو بكر عمر وعثمان وعلي يقول فيه[3]:

بلْ أينَ أهلُ التُّقَى والأنبياءُ ومنْ جاءتْ بفضلهِم الآياتُ والسّـورُ

1-ينظر: ابن القيم الجوزية: مدارج السالكين، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، دط، 1339هـ، ج2، ص 13.

2-ينظر: الأصفهاني: الأغاني، ج4، ص3،4،5.

3-أبو العتاهية: أشعاره وأخباره، تحقيق شكري فيصل، دار الملاح للطباعة،دمشق، سوريا، دط، دت، ص154.

اعددْ أبا بكرٍ الصديقَ أوّلهُم ونادِ من بعدِه في الفضلِ أبا عمرِ

وعد من بعدِ عثمانَ أبا حسنٍ فإنّ فضلَهُمَا يُروى ويذكرُ

يعد من الشعراء العباسيين عاش فترة من حياته في اللهو والمجون والشرب، وعرف بكثرة الغزل إلى أن تاب وأناب إلى الله، وقال الزهد واتخذه مذهبا له في الشعر .

دوافع ظهور شعر الزهد في شعره:

أ–دوافع اجتماعية:

تعد نزعة الزهد رد فعل طبيعي لاتساع دائرة الانحراف التي استهوت كثير من الناس وللانغماس الذي شهده العصر في متع الحياة واللهو والمجون، فظهر اتجاه الزهد كحركة إصلاحية في مقابل الحياة التي طغت عليها المادية، واتجهت طائفة الزهاد إلى الزهد والتقشف وأداروا ظهورهم إلى الحياة وملذاتها، ومضوا يدعون الناس إلى عالم الروحانيات ويذكرونهم بالموت وما وراءها من حياة باقية خالدة يحاسب فيها المرء على ما قدمت يداه في حياته الدنيا[1].

ب–دوافع سياسية:

كان للحياة السياسية المضطربة التي عاشها المجتمع الإسلامي من صراع بين الأمويين والعباسيين حول الحكم، وما شهدته من معارك ضارية أزهقت فيه الأرواح وتناثرت الأشلاء وتطايرت الرؤوس وسالت الدماء، كل ذلك يصور مشهدا قاتما تأثرت به النفوس في تلك الفترة من حياة الأمة، وكل هذه الصور المؤلمة لمصير الإنسان وما عاناه من مظاهر الظلم والموت ترسبت في أذهان الناس الشيء الذي ترك البعض ينسحبون من هذه الحياة وينزعون نزعة الزهد، وقد عاش أبو العتاهية هذه الظروف بالعراق وتأثر بها.

ج–دوافع ذاتية: تذكر المصادر أن أبا العتاهية أحب فتاة تسمى عتبة، وكانت جارية هارون الرشيد لكنها رفضت الزواج منه[2] فزهد وكره الدنيا وقد وقف متأملا حياته فوجدها عابثة خالية

1–يوسف خليف: تاريخ الشعر في العصر العباسي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، دط، دت، ص35.

2–ينظر: المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط5، 1982، ج3، ص367.

من الصرامة والجدية ووجد ما قام به بعيد كل البعد عن الفخر فتعززت لديه فكرة تفاهة الدنيا وحقارتها، فنحا منحى العزلة يعبر فيها عن معاني الزهد[1].

موضوعات الزهد عند أبي العتاهية:

أكثر أبو العتاهية من شعر الزهد فذكر الموت والفناء والثواب والعقاب، ودعا إلى الاكتفاء بالقليل وبالقناعة والتخلق بالأخلاق الكريمة، والانصراف عن الدنيا ومتاعها والتفكير فيما بعد الموت وبظلمة القبر ووحشته ،وهو في ذلك متشائم حزين، ومن أهم موضوعاته نذكر:

أ-الموت:

الموت هي ذلك المصير المحتوم للإنسان اعتمدها الشاعر للتخويف والزجر وتذكير بها قلوب العصاة والناس عموما، فيخاطب بها الإنسان الذي غفل الموت وأغرته الحياة، يقول في ذلك[2]:

أنساك مَحْياكَ المِماتَا فطلبتَ في الدّنيا الثّباتاَ
أوثقتَ بالدنيا وأنْـــــ تَ ترى جماعتَها شتاتَا
وعزمتَ منكَ على الحَيا ةِ وطولِها عَزْماً بَتَـاتاَ
يا منْ رأى أبَويهِ فيـــــ منْ قدْ رأَى كانَا فمَاتاَ
هل فيهِمَا لكَ عبرةٌ أمْ خلتَ أنَّ لكَ انْفلاتاَ

ويقول في مقطوعة أخرى[3]:

كلُّنا في غفلةٍ والـــــ مُوْتُ يغدُو ويـــــروحُ
لبَنِي الدنيا منَ الدُّنْـــ يا غبوقٌ وصبـــوحُ
نُحْ على نفسِكَ يا مِسْـ كينُ إنْ كنتَ تَنوحُ
لستَ بالباقي ولوْ عمَّـ ـرْتَ ما عمَّرَ نوحُ

1-ينظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العرب العصر العباسي الأول، ص249.
2-أبو العتاهية: الديوان، دار بيروت للطباعة، بيروت، لبنان، دط، 1986، ص93.
3-المصدر نفسه، ص117.

ب–الدنيا:

يحتقر الشاعر أبو العتاهية الدنيا ويعظم الآخرة ويحذر من غرورها قائلا[1]:

نَصبْتِ لنا دونَ التفكّرِ يا دُنيَـــــا أمانيَّ يَفْنَى العُمرُ منْ قبلِ أنْ تَفْنَى

متَى تَنقَضِي حاجاتُ منْ ليسَ واصلاً إلى حاجةٍ حتّى تكونَ لهُ أخْــرَى

لكلِّ امرئٍ فيما قضى اللهُ خطـــــةٌ من الأمرِ يَسْتوي فيها العبدُ والمَوْلَى

وإن امرأً يسعَى لغير نهايـــــةٍ لمنغمسٌ في لجَّةِ الفاقةِ الكــبْرَى

ج–الوعظ والإرشاد:

يقول أبو العتاهية[2]:

أنَلْهُو وأيَّامُنا تذهبُ ونلعبُ والموتُ لا يلْعَبُ

عجبتُ لذِي لعبٍ قدْ لَهَا عجبتُ ومالِيَ لا أعْجَبُ

أيلهُو ويلعبُ منْ نفسُهُ تموتُ ومنزلُه يَخْرَبُ

نَرى كلَّ ما ساءَنا دائماً على كلِّ ما سَرَّنَا يَغلِبُ

ثانيا–شعر التصوف:

مفهوم التصوف:

لم يخف الباحثون وقوع خلاف كبير حول التصوف كلفظ وأصله ومصدره واشتقاقه، فقد حاول المهتمون بالتصوف من العرب والمستشرقين الوصول إلى المعنى الأصلي له، فقيل: إنه اشتقاق من الصوف وقيل: إنه من الصفاء واعتبره البعض نسبة إلى أهل الصفة ونسبه البعض إلى الصف الأول، وقد ذهب الإمام أبو القاسم القشيري إلى أن اسم التصوف لم يشهد له من حيث العربية قياس أو اشتقاق والأظهر فيه أنه لقب[3].

1- المصدر السابق، ص21.

2- المصدر نفسه، ص51.

3-ينظر: منال عبد المنعم جاد الله: التصوف في مصر والمغرب، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، دط، دت، ص115.

إذن فالأمر مختلف فيه منذ القديم حول كلمة تصوف، فالقول بأنها نسبة أهل الصُّفة فهذا القول يعدم صحة النسبة؛ فإن النسبة من الصُفة صُفّيّ، وقيل من الصف المتقدم بين يدي الله، وقيل: من الصفوة من خلق الله، ولو كان كذلك لقيل صفوي، وقيل من الصفاء، ولا يصح لأنه لو كان كذلك لقيل صفائي، وقيل نسبة إلى صوفة بن بشر، وهذا القول يصح نسبة، لكن كثيرا من هؤلاء النساك يجهلون هذه القبيلة، ولا يرضى أحدهم نسبة لقبيلة في الجاهلية، وقيل من الكلمة اليونانية (سوفيا) التي تعني الحكمة، وهو رأي البيروني، وقيل نسبة إلى الصوف وهو غالب لبس هذه الطائفة فنسبوا إلى لبستهم على حد رأي ابن تيمية[1].

ومن الناحية الاصطلاحية يعرف التصوف بأنه رحلة روحانية تعتمد على الخلوة والتجلي الرباني أو اللقاء العرفاني المتوج بالوصال والكشف الإلهي، ويعني هذا أن المريد السالك طريق التصوف كي يحقق مراده إلى الحضرة الربانية، عليه أن يتجرد من أوساخ الدنيا ويتوب إلى الله ويتطهر من كل أدران الجسد، ويبتعد عن ملذات الدنيا وشهواتها ومتعها الزائفة الواهمة، وبعد ذلك يختلي بالله مدة طويلة، وبعد الاختلاء والمجاهدات الرياضية والوجدانية يصل إلى الكشف الرباني، وإذا أراد المريد أن يصبح قطبا أو شيخا أو يصل إلى المعشوق الرباني لابد أن يسافر في معراجه النوراني عبر مجموعة من المقامات المتدرجة والأحوال الموهوبة حتى يتحقق له الوصال والتجلي الرباني.

والتصوف نزعة من النزعات الوجدانية ورغبة روحانية تعتمد على العكوف على العبادات والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال والانفراد عن الخلق في الخلوة والعبادة[2].

1-ينظر: عبد المحسن علي وهبة: الزهد عند الصوفية بين الاعتدال والغلو، المجلة العلمية بأسيوط، كلية اللغة العربية، العدد33، ج1، 2014، ص737، 738.

2-ابن خلدون عبد الرحمن: مقدمة ابن خلدون، ضبط ومراجعة خليل شحادة وسهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، دط، 2001، ص611.

شعر التصوف:

اتخذ الصوفيون القول الشعري للتعبير عن أسرارهم، فخلفوا تراثا كبيرا تميز بالخيال والرمز وتنوع الموضوعات، والتصوف شعر يلتزم فيه شعراء الصوفية بذكر أورادهم ومجاهداتهم وأذكارهم بأسلوب بسيط وبألفاظ سهلة ومعاني واضحة بعيدا عن الإفراط في الرموز والإشارات

ومن رواده أبومدين شعيب التلمساني (ت594هـ) وهو ما يسمى بشعر التصوف السني، وهناك شعر التصوف الفلسفي يعتمد فيه شعراء الصوفية الإشارات والرموز والإيحاءات للتعبير عن اتجاههم في الإشراق ووحدة الوجود والوحدة المطلقة في قالب من المحسنات البديعية والبيانية عادة ما تميل إلى الغموض، وكثيرا ما تغلب عليه عاطفة الحب الإلهي التي كانوا يرتشفون منها الغياب عن الوعي (السكر) فضلا عن توظيفهم لألفاظ من معجم الخمريات والغزل للدلالة على حقائقهم الصوفية، واشتهر الشعر عندهم بموضوعات الغزل والخمر يغلب عليها الطابع الرمزي، ربما لكتمان أمورهم عن العامة من الناس، وللتخفي عن الفقهاء لذلك جاء شعرهم مفعم بأسلوب الرمز معبرا عن حقائقهم الصوفية بأساليب المجاز المختلفة.

أعلام شعر التصوف:

رابعة العدوية:

هي أم الخير رابعة بنت إسماعيل العدوية البصرية مولاة آل عتيك الصالحة المشهورة كانت من أعيان عصرها، وأخبارها في الصلاح والعبادة مشهورة توفيت سنة خمس وثلاثين ومائة 135هجرية[1]، كانت رابعة تنشد المقطوعات الشعرية في الحب الإلهي، والحبيب الذي تتغنى به وتناجيه هو الله عز وجل الذي تقبل إليه وتخلو إليه، فلا تبرح بابه مهما طال بها الانتظار لأنه مؤنس لروحها وأمل حبها، وهي في سعيها المتلهف لحبه تبتغي وجهه الكريم وحده. وكثير من الشعراء الزهاد بدأوا حياتهم خلعاء، ثم أدركتم صحوة في ضمائرهم فتابوا وأنابوا إلى الله وانقطعوا

1-ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مكتبة النهضة، القاهرة، مصر، ط1، 1948، ج5، ص290.

للعبادة والتهجد، وعاشوا حياتهم زاهدين ومتصوفين، ورابعة العدوية عرفت حياتها الكثير من اللهو والمجون ثم أفاقت من غفلتها، فطهرت روحها مما شابها من الإثم واعتزلت الناس، وعكفت على نفسها عابدة متهجدة. ولعل المظالم التي أحاطت بها قادتها إلى التفكير في مصيرها، وقادها هذا التفكير نحو الزهد في كل ما في الحياة الدنيا فانطوت على نفسها وأخذت تشتاق إلى هوى أكثر تماسكا من الحب الدنيوي واندفعت إلى المحبة الإلهية، تقول في هذا الحب[1]:

يا سُروري ومُنيتي وعِمادِي وأنيسي وعدَّتِي ومُـــــرادِي
أنتَ روحُ الفؤادِ أنت رجائِي أنتَ لِي مؤنسٌ وشوقُكَ زادِي
أنتَ لولاك يا حياتِي وأنْسِي ما تشتّتُ في فسيحِ البلادِ
كمْ بدتْ مِنّةٌ وكم لكَ عنْدِي من عطاءٍ ونعمةٍ وأيـادِي
حُبُّكَ الآنَ بغيتِي ونعيـــمِي وجلاءٌ لعينِ قلبِي الصَّـادِي
ليس لِي عندكَ ما حييتُ بَراحٌ أنتَ منّي ممكّنٌ في السّــوادِ
إن تكنْ راضيا عليّ فـإنّي يا مُنى القلبِ قد بدا إسْعادِي

بدأت رابعة العدوية تستشعر الحب الإلهي الذي كان مسبوقا بالتوبة، فهي قد فتحت صفحة جديدة في حياتها مغايرة تماما لصفحتها السابقة وهذا الصفحة تمزج بين القلق والاستغفار والشوق إلى المحبوب الذي اختارته لنفسها، فذكرت طريقها للوصول إلى مبتغاها وهو التهجد والقيام، تقول في قصيدة لها[2]:

راحَتي يا إخوانِي في خلوتِي وحَبيبِي دائماً في حــضــرتِي
لم أجدْ لِي عنْ هواهُ عِوَضاً وهواهُ في البــرايا مِحْــنَتِي
حيثما كنتُ أشاهدْ حُسْنَهُ فهو مِحرابِي إليه قِبْــــــلتِي
إنْ أمُتْ وَجْدًا وما ثَمَّ رضـا واعَنائي في الوَرى وا شقْوَتِي

1-عبد الرحمن بدوي: شهيدة العشق الإلهي رابعة العدوية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، ط2، 1962، ص24.
2-المرجع نفسه، ص52.

يا طيبَ القلبِ يا كلَّ المنـى جُدْ بوصلٍ منكَ يشفي مُهْجَتِي
قدْ هجرتُ الخَلقُ جمْعاً أرْتَجِي منكَ وَصْلاً فــهو أقصى مُنْيتِي

وتقول في قصيدة أخرى[1]:

كأسِي وخمْري والنديمُ: ثلاثةٌ وأنا المشــوّقةُ في المحـبّة رابــعَه
كاسُ المسرَّةِ والنعيم يديرُهاَ ساقي المدامَ على المدَى متتَابِعَه
فإذا نظرتُ فلا أُرى إلاّ لهُ وإذا حضرتُ فلا أُرى إلا مَعــَه
يا عاذلي أني أحبُّ جمالَهُ تا الله ما أُذُني لعَذْلِكَ سَامِـعَه

تستخدم رابعة العدوية في هذه المقطوعات أسلوب الرمز، شأنها في ذلك شأن شعراء التصوف، فالكأس التي تتحدث عنها هي كأس المحبة، والخمر التي تريدها ليست خمر الدنيا المحسوسة ولكنها الخمر التي أعدها الله لعباده المتقين في جنات النعيم، كما ترمز أيضا إلى الانعطاف والاتحاد والوجد. وتقف رابعة في محراب الحب الإلهي تناجي الحبيب، وقلبها يتلظى شوقا إليه قائلة[2]:

وزادي قليلٌ ما أراه مبلّغِي أللزّادِ أبْكِي أمْ لطولِ مســافَتِي
أَتَحْرقُنِي بالنّارِ يا غايةَ المنَى فأينَ رجائِي فيك أينَ مخـــافَتِي

ابن الفارض:

هو أبو حفص عمر بن الحسن علي بن المرشد مصري المولد والدار والوفاة، وقيل: إن والده حموي الأصل هاجر إلى مصر واستقر بها: وكان يثبت الفروض للنساء على الرجال بين يدي الحكام فلقب بالفارض[3] نشأ ابن الفارض في عصر الأيوبيين وهو عصر شهد التصوف والتقوى لكثرة الصراعات وكثرة الحروب وتوالي الكروب، ومن جهة أخرى تفشي ظاهرة الفسوق وانحلال

1-المرجع السابق، ص:173.
2-المرجع نفسه، ص130. وينظر: الأصفهاني: الأغاني، ج3، ص127.
3-عاطف جودت نصر: شعر عمر بن الفارض دراسة في الفن الصوفي، دار الأندلس للطباعة، بيروت، لبنان،ط1، 1981، ص56.

الأخلاق وتحكم الشهوات، فاتجه الشعر هذين الاتجاهين/ فنشا الشاعر نشأة دينية وتربى تربية صوفية[1] وكان لوالده دور كبير في توجيه ابنه كونه كان زاهدا متقشفا، فانتهج ابن الفارض طريقة أبيه في الزهد، كما تذكر المصادر أنه عاصر ابن عربي والسهروردي، وشهد عصره فترة تحول الحكم الفاطمي إلى الحكم الأيوبي، والعصر الذي نشبت فيه نيران الحروب الصليبية، وهذا ما خلف نوعا من القلق والاضطراب، كما شجع الأيوبيون الصوفية واعتنوا بالمتصوفين[2].

تأثر الشعر الصوفي بالخمرة، فالخمريات الصوفية استلهمت صورها وأساليبها من شعر الخمرة، ولم تأخذ مجونه وإباحيته، فنشوة الحب عند الصوفية يسمونها سكرا وهو يشبه في آثاره السكر الحسي، واتجه شعراء الصوفية إلى الاقتباس من خمريات أبي نواس التي اشتهر بها في العصر العباسي، وسبب أخذهم عنه كثرة المفاهيم الفلسفية والوجدانية الموجودة في شعره وبذلك أصبح للخمر وضع مميز في تراث التصوف الأدبي فهو عندهم رمز من رموز الوجد الصوفي[3]. يقول ابن الفارض في قصيدة له عرفت باسم الخمرية[4]:

شربنا على ذكر الحبيب مُدامَةً سكرنا بها قبل أن يُخلق الكرمُ

لها البدر كأس والشمس يديرها هلالٌ وكم يبدو إذا مزجت نجمُ

ولولا شذاها ما اهتديتُ لحانها ولولا سناها ما تصورها الوهمُ

ابن عربي(ت638هـ):

هو محمد بن علي بن أحمد بن عبد الله الحاتمي الطائي المرسي المعروف بمحي الدين ابن عربي، المكنى بابي بكر والملقب بالشيخ الأكبر، ولد بمرسية بالأندلس، وانتقل إلى اشبيلية وزار المغرب ومصر والحجاز وبغداد واستقر بدمشق، يعد من كبار شيوخ الصوفية علما وفهما في القرنين

1-ينظر: محمد علي أبو الحسن: سلطان العاشقين ابن الفارض وخصائصه الشعرية إضاءات نقدية، مجلة فصلية، جامعة دهاقان، العدد3، 2011، ص26.

2-محمد مصطفى حلمي: ابن الفارض والحب الإلهي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2، 1971، ص37.

3-جودت ناصر عاطف: الرمز الصوفي عند الصوفية، دار الأندلس، بيروت، لبنان، دط، دت، ص339.

4-ابن الفارض: الديوان، تحقيق درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، دط، 2008، ص191.

السادس والسابع الهجريين، ينحدر من قبيلة حاتم الطائي، ويحمل اسم المرسي نسبة إلى مرسية التي ولد بها ببلاد الأندلس، كان يكنى بابي بكر ويلقب بمحي الدين، ويطلق عليه اسم ابن عربي في الأندلس وهو الاسم الذي يفتخر به دائما، فينشد في ذلك:

أنا العربي الحاتمي أخو الذي لنا في العلا المجد القديم المؤثل

توفي بدمشق سنة ثمانية وثلاثين وستمائة هجرية 638هـ تاركا الكثير من المؤلفات تصل إلى أربعمائة كتاب ورسالة، أشهرها موسوعته الكبرى في التصوف التي أطلق عليها الفتوحات المكية، وله أيضا فصوص الحكم، والتفسير الصوفي للقرآن، وله شعر كثير أعذبه جمع في ديوان سمي باسم ترجمان الأشواق، وفيه أجمل الأشعار التي تتضمن الغزل الصوفي والحب الإلهي، وذكره لهند أو ليلى أو سعاد إنما المقصود هو الله، فهو وحده الجمال المعشوق والجدير بالحب[1]. يقول في إحدى قصائده الموسومة بمريضة الأجفان[2]:

مَرضِي من مريضةِ الأجفانِ عَلِّلاني بذِكرهَا علّلانِي
هَفَتِ الوُرقُ بالرّياضِ وناحتْ شَجْوُ هذا الحمامِ مما شَجَاني
بأبي طِفلةٌ لعوبٌ تَهادَى من بناتِ الخُدورِ بين الغَواني
طلعتْ في العِيانِ شمسًا فلمّا أفَلَتْ أشرقتْ بأُفقِ جَنَاني
يا طلولاً برامَةٍ دارساتٍ كمْ رأتْ منْ كواعِبٍ وحسانِ
بأبي ثمّ بي غزالٌ ربيبٌ يرتَعِي بين أَضْلعِي في أَمَانِ
ما عليهِ منْ نارِها فَهْوَ نُورٌ هكذا النورُ مُخمِدُ النّيرانِ
يا خَليليّ عَرّجا بعِياني لأرَى رسمَ دارِها بعِياني
فإذا ما بلّغتما الدارَ حطّا وبها صاحِبيّ فلتَبْكيانِي

1-ينظر: مجدي كامل، أحلى قصائد الصوفية، دار الكتاب العربي، القاهرة، مصر، ط1، 1998، ص30. وينظر: ابن عربي: الديوان، شرح أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1996، ص6.

2-ابن عربي: ديوان ترجمان الأشواق، عناية عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص100.

طالَ شوقِي لطفلةٍ ذاتِ نَـثْرٍ ونظـامٍ ومنـبرٍ وبَـــيانِ
منْ بناتِ الملوكِ منْ دارِ فرسٍ من أَجَلِّ البلادِ من أَصْبـهانِ
هيَ بنتُ العراقِ بنتُ إمَامِـي وأنا ضدّها سَليـلُ يَمَـانِي
هلْ رأيتمْ يا سادَتي أو سَمعتُم أنّ ضدّين قَطُّ يجتمـعانِ

يقول في قصيدة يتكلم فيها عن مطلع من مطالع أهلة المعارف[1]:

صحتُ بالكوكبِ المنير عشاءً يا نظيرَ النّورِ بـدرَ الصبـاحِ
يا حبيبي وهلْ عليَّ إذا ما جئتكم عن حقيقةٍ من جنـاحِ
أين سرُّ الوصالِ بالله قلْ لي منكما في الطلاق أو في النكاحِ
عملٌ هل يصحُّ فيه ازدواجٌ أي وقيامٌ بالوجـوه الصبـاحِ
نكحَ المغربُ الصباحَ فأبْدَى ربُّنا عندَ ذاكَ نورَ الصـلاحِ
فأنارتْ أرضُ الوجودِ وأبدتْ كلّ شيءٍ مخبأً في البـطاحِ

أبو مدين التلمساني(ت594هـ):

يعد من أبرز متصوفة شمال إفريقيا والأندلس ولد بحصن قنطانة ببلاد الأندلس، سافر إلى مدينة فاس بالمغرب وعاش هناك حياة حافلة بالعلم والفكر، واكتسب الكثير من العلوم العقلية والنقلية ترك العديد من المؤلفات التي لا يزال أكثرها مخطوطا منها: أنس الوحيد ونزهة المريد في علم التوحيد، ومفاتيح الغيب لإزالة الريب وستر العيب، تحفة الأريب ونزهة اللبيب، توفي سنة أربعة وتسعين وخمسمائة هجرية 594هـ بتلمسان[2]. ومن أهم قصائده قصيدته النونية المشهورة التي يقول فيها[3]:

أدِرْهَا لنا صرفاً ودعْ مزجَـها عنّا فنحن أناسٌ لا نرى المزجَ مذْ كنّا

1-المصدر السابق، ص23.

2-ينظر: محمد الطاهر العلاوي: العالم الرباني سيدي أبومدين شعيب، دار الأمة للطباعة، الجزائر، ط1، 2004، ج1، ص28.

3-أبو مدين شعيب: الديوان، جمع وترتيب العربي بن مصطفى الثوار، مطبعة الشرق، دمشق، ط1، 1958، ص07.

وغنّ لنا فالوقتُ قد طابَ باسمِها لانّا إليها قد رحلناَ بها عنّا

عرفنا بها كلَّ الوجــودِ ولم نزلْ إلى أنّ بها كلّ المعارفِ أنكرنا

هي الخمرُ لم تُعرفْ بكرمٍ يخصُّها ولم تجلّها راحٌ ولم تعرفْ الدّنا

مشعشعةً تكسو الوجوهَ جمـــالةً وفي كلّ شيءٍ من لطافتها معنى

حضرنا وغبنا عند دور كؤوســها وعدنا كأنّا لا حضرنا ولا غبنا

نصحتك لا تقصد سوى باب حانها فمن وجد الأعلى فلا يطلب الأدنى

يتكلم الشاعر في هذه القصيدة عن السكر الصوفي الذي لا يحصل إلا بعد أن يتمكن الحب الإلهي من العبد، فيرتقي به إلى مقامات أعلى، ويعبر عن حالته الروحية، وما يعانيه من سكر وهيام عند مشاهدته المعشوق الإلهي وتجليه له، فالشاعر يغمره السكر عند مطالعته الجمال الإلهي، أين تصيبه الدهشة والغبطة، فيغيب وعيه وينتقل إلى عوالم روحية منتشيا الحب الإلهي الذي هو قوام التصوف.

المحاضرة التاسعة: شعر الحماسة(نصوص لأبي تمام، نصوص للبحتري، نصوص للزوزني، نصوص للشاطبي، الحماسة المغربية لأبي الحجاج يوسف البياسي، نصوص للكوراني).

تمهيد:

للحماسة في اللغة العربية معان تختلف بين الشدة والقوة والصلابة، فقد جاءت في لسان العرب بمعنى: التحمس: التشدد، وتحامس القوم تحامسا تشادوا واقتتلوا، والسنة الحمساء الشديدة، ونجدة حمساء شديدة يريد بها الشجاعة[1] وفي القاموس المحيط تعني الشجاعة والأحمس الشجاع[2] وفي تاج العروس الحماسة هي الشجاعة والمنع والمحاربة[3]. فمن خلال هذه المعاجم نجد لفظ الحماسة يشتمل على معان تقترب من الشجاعة والشدة والمنع والمحاربة في الإنسان، والرجل الأحمس الورع الشديد الصلب في الدين والقتال، كما تشتمل أيضا على معاني لها علاقة بالهياج والقوة والغضب والجرأة والاقتتال وإثارة النخوة والإباء والصبر والاحتمال.

وفي الاستعمال الأدبي فالحماسة فن شعري يقوم على استحضار المثل العليا البطولية وتمجيدها، وهو يرتبط بأجواء المعارك وطقوس الحرب، فالحماسة من أبواب الشعر العربي وموضوعاته، وفيها الإشادة بالأمجاد والانتصارات في الحروب، والحقد البالغ على الخصوم، والتغني بالمثل الرفيعة من كرم ووفاء وغير ذلك. تدل الحماسة على القول الشعري المخصص لموضوع الحرب وما يستلزمها من شجاعة في المواجهة، وثقة في النفس في مقارعة الخطوب، وبطولة في منازلة الخصوم، واستبسال محاط بالشدة والقوة، ودوام الاستعداد للمعركة، وسرعة الاستجابة للمنادي بالنفير، وحب الحرب ومعرفة خططها، فهي تصاحب كثيرا من المواقف كالحرب والتحريض أو

1-ابن منظور: لسان العرب، مادة (حمس).

2-الفيروز أبادي: القاموس المحيط، مادة (حمس).

3-مرتضى الحسيني الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، مادة (حمس).

الدعوة إلى القتال، وفيها يتبادل الشعر والفخر والاعتداد بالنفس أو القبيلة، أو استثارة الهمم وتحميسها للحرب[1].

يعود هذا الفن الشعري إلى العصر الجاهلي الذي كان فيه الشاعر الجاهلي يتباهى بمظاهر القوة ويتغنى بالبطولة، يشيد بقبيلته وبتاريخها وأيامها ورجالها وانتصاراتها، وشعر الحماسة موجود في كثير من قصائد الجاهليين، لكن غير مستقل بقصائد وإنما مبثوث في القصائد الفخرية، ومعلقة عمرو بن كلثوم تعد أنموذجا في الحماسة الجاهلية الذي يقول فيها[2]:

أبا هندٍ فلا تعجلْ علينـــاَ وأنْظِرْنَا نُخبِّرْكَ اليقيـــناَ

بأنَّا نوردُ الرَّاياتِ بِيضـــاً ونُصْدِرُهُنَّ حُمْراً قدْ رَوِينَا

وأيامٍ لنَا غرٍّ طـــوالٍ عَصَيْناَ المِلْكَ فيها أنْ نَدِينَا

تركنا الخَيلَ عاكفةً عليـهِ مُقلَّدَةً أعِنَّتَها صُفُـونَا

متىَ ننقُلْ إلى القومِ رَحَانَا يكونوا في اللِّقاءِ لها طَحِينَا

مَلأنا البرَّ حتّى ضاقَ عنَّا وماء البحرِ نَمْلؤُهُ سفـــينَا

إذا بلغَ الفطامَ لنا صـبيٌّ تخرُّ له الجبابرُ ساجديـــنَا

الشعر العربي بين الرواية والاختيار:

هناك فرق بين رواية الشعر وبين اختياره، لأن الراوي يقوم بجمع واستقصاء المادة الشعرية، ويكون اهتمامه منصبا على كمال النصوص وتحقيقها وتوثيق الرواية وإتقانها، أما صاحب الاختيار أو المتخير للشعر العربي فإنه يستعرض كمية كبيرة من الأشعار ثم ينتقي منها عددا من القصائد أو المقطوعات والأبيات الشعرية التي تستجيب إلى المعايير الفنية والموضوعية، ولهذا يمكن القول: إن الرواية هي جمع الشعر مع مراعاة التطابق مع النماذج الموجودة، والهدف الأساسي هو رواية الشعر،

1-أحمد مطلوب: معجم مصطلحات النقد العربي القديم، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، 2001، ص215.

2-الزوزني: شرح المعلقات السبع، ص177،178، 194.

أما الاختيار فلا يعنيه كمال النصوص؛ بل بما تمثله من قيم فكرية وفنية[1]. إن اختيار الشعر وجمعه في كتاب يعد ظاهرة قديمة عند الأدباء العرب، ولعل المحاولات الأولى كانت مع المعلّقات التي تعد من أقدم الاختيارات الشعرية التي جمعها حماد الراوية(ت156هـ) والمفضليات التي تعد من عيون الشعر اختارها المفضل الضبي(ت167هـ) والأصمعيات وهي قصائد من مختارت الأصمعي(213هـ)، وهذه الاختيارات كانت تقوم على اختيار أروع القصائد دون تبويب ولا تنسيق معين، إلى أن جاء الشاعر أبو تمام وألّف ديوان الحماسة، فكان الاختيار الذي يقوم على منهج واضح محكم التبويب والتقسيم.

حماسة أبي تمام:

أبو تمام هو حبيب بن أوس الطائي ينتهي نسبه إلى سبأ بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن يشجب بن يعرب بن قحطان[2] تشك بعض المصادر في عربيته وقالوا: إن أباه كان خمارا نصرانيا من دمشق يدعى تدوس، فحرفه أبو تمام وجعله أوسا، وانتسب إلى طئ[3].

وذهب نفس المذهب المستشرق مرجيليوت وطه حسين بقولهما: إن اسمه اختصار لتيوديس وهو اسم يوناني، وأن أبا تمام يكون طائيا بالولاء[4] إلا أن ما يجمع عليه أصحاب المصادر والسير أن أبا تمام عربي من طئ لا دعي فيهم ولا من مواليهم. ولد بمنبج بقرية يقال لها حاسم قريبة من دمشق في آخر خلافة الرشيد، تعلم في كتاب القرية وحفظ القرآن الكريم، وعمل بمهنة الخياطة، وساعد أباه العطار على مواجهة أعباء الحياة، وهناك روايات تذكر أنه نشأ بمصر وكان يسقي الماء بمسجد عمرو بن العاص[5].

1-ينظر: محمد العمري: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، إفريقيا للشرق الأوسط، الدار البيضاء،المغرب، ط2، 2010، ص81.

2-ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط5، 2001، ص399.

3-الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان،ط1، 2002، مج9،ص175.

4-شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط12، ص:219.

5-الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، مج9، ص157.

نشأ أبو تمام بدمشق ونهل من العلوم في حلق مساجدها، فنهل من علوم الدين واللغة والشعر، واستيقظت مواهبه الأدبية، فانتقل من حياكة الثياب إلى حياكة الشعر ونسجه، ثم نزل بمصر وقضى بها قرابة خمس سنوات، مدح فيها عبد الله بن طاهر، ونظم قصيدتيه الدالية والنونية في رثاء عمير بن الوليد سنة214هـ وهجا ابن الجلودي وهو قائد من قواد المأمون العباسي، وبعد ذلك رجع إلى موطنه، زار عدة مدن كالموصل وأرمينية وبغداد وهناك أقبلت عليه الدنيا بعد تقربه من المعتصم، فأصبح شاعره الذي ينتشي بأعماله مثل فتح عمورة[1].

كان أبو تمام شاعرا موهوبا واسع الثقافة معروف بالذكاء الحاد والخبرة الواسعة بالشعر وأسراره وتمييز جيده من رديئه، وكان شديد الحفظ والرواية، تذكر المصادر: أنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب غير القصائد والمقاطع[2] ولا شك أن أبا تمام قد أفاد من هذه المؤهلات، فانتقى من الشعر ما ارتضاه ذوقه ،واستجاده حسه المرهف وعقله الذكي من الشعر العربي، فاحتكم في اختياره إلى معايير فنية دلت على ذوقه وعمق فهمه لفن الشعر ثم أبان عن سداد منهجه في التصنيف والتبويب والدقة وحسن العرض، مما حقق لاختياراته ديوان الحماسة انتشارا واسعا في عالم الأدب والشعر.

لقد استأثرت حماسته باهتمام علماء اللغة والأدب والشعر ونالت عنايتهم أكثر مما نالته المدونات الأدبية الأخرى، حتى أراد البعض أن يقلدوه ويعارضوه في حماسته، إلا أن اختيارات أبي تمام ظلت تحافظ على منزلتها العالية، ونذكر من هذه الحماسات التي نسجت على منواله: حماسة الخالديين التي ألفها الأخوان أبو عثمان سعيد(ت371هـ) وأبو بكر محمد(380هـ) ابنا هاشم الخالدي، وحماسة الظرفاء من أشعار المحدثين والقدماء لعبد الله بن محمد الزوزني(ت431هـ) والحماسة الشجرية لمؤلفها هبة الله بن محمد بن حمزة الحسيني العلوي المعروف بابن

1-شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص288.

2-الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط3، 1985، ج11، ص68.

الشجري(ت542هـ) والحماسة البصرية للشيخ صدر الدين أبي الحسن علي بن أبي الفرج بن الحسن البصري(ت659هـ) وهناك حماسات أخرى لا يتسع المقام لذكرها كحماسة أبي العلاء المعري، وحماسة الأعلم الشنتمري[1]...

يعد أبو تمام رائد هذه الدواوين المسماة بالحماسة فصنف فيها الشعر حسب الغرض، وجعل غرض الحماسة أول الأبواب وأكثرها حجما وشعرا ، ثم جاء بعده البحتري الذي اقتفى أثره في هذا العمل وألف حماسته المعروفة باسمه، ثم توالت المؤلفات التي تحمل اسم الحماسة. شملت حماسة أبي تمام عدة أبواب: كالرثاء والنسيب والهجاء وغيرها وباب الحماسة يعد أكبرها، وهذا الباب لم يقتصر على شعر الحرب الذي يتحدث عن الشجاعة والمحاربة والقتال وغيرها من المعاني اللصيقة بالحرب ووسائلها، بل تعداه إلى مجال أرحب وأفق أوسع، ومن نماذجه اختياره هذه الأبيات الشعرية لجعفر بن علية الحارثي التي يقول فيها[2]:

هواي مع الركب اليمانين مصعد جنيب وجثماني بمكة موثق
عجبت لمسراها وأني تخلصت إلي وباب السجن دوني مغلق
أتتنا فحيت ثم قانت فودعت فلما تولت كادت النفس تزهق
فلا تحسبي أني تخشعت بعدكم لشيء ولا أني من الموت أفرق
ولا أن نفسي يزدهيها وعيدكم ولا أنني بالمشي في القيد أخرق
ولكن عرتني من هواك صبابة كما كنت ألقى منك إذا أنا مطلق

هذه الأبيات تنتمي إلى غرض الغزل بوضوح، لكنها تعد حماسية لأن الصبر والصلابة والاحتمال هي صفات عبر عنها الشاعر، وتعد من معاني الحماسة، ولقد تنبه المرزوقي إلى ذلك

1-ينظر: عبد البديع محمد عراق: دواوين الحماسة دراسة تاريخية فنية، مج5، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1998، ج1، ص:14،15.

2-المرزوقي: شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، تحقيق فريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2003 ص:44،45.

بقوله:" هذه الأبيات ضمنها هذا الباب لما اشتملت عليه من حسن صبره على البلاء وقلة ذعره من الموت والفناء واستهانته بوعيد المتوعد وحذقه برسفان المقيد"[1].

حماسة البحتري:

البحتري: هو أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحي، ينتهي نسبه إلى سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان الطائي، ولد بمنبج ونشأ بها، ثم خرج إلى العراق ومدح جماعة من الخلفاء منهم المتوكل على الله يكنى البحتري بأبي الحسن وأبي عبادة، كان كثير المجالسة لأبي تمام الشاعر، ومن آثاره: كتاب الحماسة الذي ألفه على غرار حماسة أبي تمام وكتاب معاني الشعر، وله ديوان شعري جمعه أبو بكر الصولي على الموضوعات ، وجمعه أيضا علي بن حمزة الأصبهاني ورتبه على الأنواع[2].

والبحتري واحد من كبار الشعراء الذين عاصروا أبا تمام، ترسم خطاه وعمل بنصائحه واقتفى معانيه، ولم ير في ذلك عيبا إذ يقول: "أيعاب علي أن اتبع أبا تمام وما عملت بيتا قط حتى أخطر شعره ببالي"[3] ولم يكن إعجاب البحتري بأبي تمام مقتصرا على إبداعه الشعري فحسب، فقد أعجب باختياراته في ديوانه الحماسة فقلدها وألف على غرارها كتابا سماه الحماسة.

وتأتي حماسة البحتري من حيث المكانة بعد حماسة أبي تمام، فنالت عناية العرب وغيرهم وتعد خير مرشد للناشئين في تصنيف المعاني الشعرية، وبلغ عدد شعراء حماسته ما يقارب ستمائة شاعر قصرهم على شعراء العصر الجاهلي والإسلامي والأموي، وعلى عدد معين من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، أكثر من الاستشهاد ببعض الشعراء مثل حسان بن ثابت، والفرزدق، وزهير بن أبي سلمى، والأحوص الأنصاري والنابغة الذبياني ولبيد بن ربيعة...

وقد قسم البحتري الشعر في حماسته إلى أربعة وسبعين ومائة 174بابا وكل هذه الأبواب يقسمها الدارسون إلى أربع أبواب عامة وهي باب الحماسة، وباب الشيب والشباب، وباب الرثاء،

1-المصدر السابق، ص: 40.

2-البحتري: الحماسة، تحقيق محمد إبراهيم حور وأحمد نحمد عبيد، المجمع الثقافي أبو ظبي، أبو ظبي، الإمارات العربية، 2007 ص:427.

3-الصولي أبوبكر: أخبار أبي تمام، تحقيق خليل محمد عساكر ومحمد عبده عزام ونظير الإسلام الهندي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط3، 1980، ص:70.

وباب الأدب[1] والباب عنده مجموعة من الاختيارات الشعرية(قصائد، مقطوعات، أبيات مفردة) لشعراء مختلفين، تدور حول معنى جزئي واحد له عنوان خاص به وهذا هو أساس اختياره في حماسته. ومن نماذج حماسته يقول الحارث بن هشام القرشي[2]:

الله أعلم ما تركت قتالهم وحتى علوا فرسي بأشقر مزبد

وعلمت أني إن أقاتل واحدا أقتل ولا يضرر عدوي مشهدي

فصددت عنهم والأحبة فيهم طمعا لهم بعقاب يوم سرمـــد

هذه الأبيات وإن كانت تحمل بعض معاني الاعتذار من الفرار، فإنها تفصح عن طرف خفي من شدة وقع الفرار على نفس الشاعر، وعلى سمعته كمحارب فهو يتوعد بمعركة أخرى يأخذ فيها ثأره، وبذلك دخلت في باب الحماسة. وفي حماسته يقول حسان بن ثابت[3]:

كرهوا الموتَ فاسْتُبيحَ حَماهُم وأقاموا فعلَ اللئيمِ الذليلِ

أَمِنَ الموتِ تهربون فإن الـ موتَ موتُ الهزالِ غير جميلِ

ويقول أبو زيد الطائي[4]:

تَبادرُوني كأنّي في أكفِّهِم حتى إذا ما رأوني خاليا نزعُوا

واستحدث القومُ أمرا غير ما وهمُوا كانّ أنصارُهم شتَّى وما جمعُوا

الحماسة البصرية:

تنسب هذه الحماسة إلى أبي الحسن علي بن أبي الفرج البصري، ولد بالبصرة وانتقل إلى مدينة واسط، ونشأ بها ثم انتقل إلى حلب وعاش في كنف الملك الناصر صلاح الدين يوسف وصنف لخزانته الحماسة البصرية سنة 647هـ وله كتاب أيضا أسماه المناقب العباسية والمفاخر

1-ينظر: عبد البديع محمد عراق: دواوين الحماسة دراسة تاريخية فنية، مج5، ص26.

2-البحتري: الحماسة، ج1، الحماسية رقم 193، ص:132.

3-المصدر نفسه، ج1، الحماسية رقم100، ص 85.

4-المصدر نفسه،ج1، الحماسية رقم198، ص:135.

المستنصرية أهداه إلى الملك الظاهر بيبرس. عاش في القرن السادس والسابع الهجريين، وهو العصر الذي زخر بالمؤرخين وكتب التاريخ والتراجم والمترجمين.

وهناك بعض المصادر تشير إلى غموض في تاريخه وحياته، وحتى تاريخ وفاته مختلف فيه، والأرجح أنه توفي سنة 659هـ، وتخلو كتب التراجم على كثرتها من ذكر البصري رغم أنه لم يكن نكرة بين الناس في عصره، حتى يغفله معاصروه ومن جاء بعده، كانت له علاقات وروابط مع الملوك والأدباء من أمثال أبي المظفر يوسف أمير حلب الذي أهداه حماسته فمن الغرابة أن تتجاهله التراجم، ولا يعرف السبب الذي من أجله أهمل المؤرخون والكتاب شأن أبي الفرج البصري[1].

قسم البصري حماسته إلى أربعة عشر بابا، وقد ذكر ذلك في مقدمة كتابه الحماسة بقوله:" إن الشعر على اختلاف معانيه وأصوله ومبانيه ينقسم إلى نعوت وأوصاف، فما وصف به الإنسان من الشجاعة والشدة في الحرب والصبر، في مواطنها سمي حماسة وبسالة، وما وصف به من حسب وكرم وطيب محتد سمي مدحا وتقريظا وفخرا"[2] هذا واشتملت حماسته على عدة أبواب منها الحماسة والمديح والرثاء والأدب وغيرها، تشبه حماسة أبي تمام في تصنيفه لأبوابها، إلا أن البصري أضاف على حماسة أبي تمام ثلاثة أبواب تتعلق بباب ما جاء في أكاذيبهم وخرافاتهم، وباب ما جاء من ملح الترقيص، وباب الزهد والإنابة، ولا شك أنه استفاد كثيرا من حماسة أبي تمام من ناحية المنهج وخاصة في التبويب، وحتى في أخذ الكثير من المقطوعات الشعرية التي نقلها إلى حماسته، وهذا الأخذ لم يكن من أبي تمام فحسب، بل نجده يأخذ من حماسة البحتري، وحماسة ابن الشجري، ومن باقي الاختيارات الأخرى.

وأكثر اختيارات البصري من أشعار المتقدمين من جاهليين ومخضرمين، تليها أشعار العصر الأموي، ثم من الشعر العباسي الذي يعتبر قليلا مقارنة بالاختيارات الأخرى، وتتراوح اختياراته مابين المقطوعات الشعرية الصغيرة ذات البيتين والثلاثة والأربعة والخمسة أبيات، تليها المقطوعات

1-ينظر: مصطفى الشكعة: مناهج التأليف عند العلماء العرب، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان،، ط4، 1982 ص:529.

2-مقدمة الحماسة البصرية: تحقيق عادل سليمان جمال: مطبعة الأهرام، القاهرة، مصر، ط1،1978، ج1، مادة (صور)، ص:5.

المتوسطة من ذوات السبعة أبيات إلى الخمسة عشر بيتا، ثم اختياره للقصائد التي تفوق العشرين بيتا، أما أطول اختياراته فكانت للشاعر عنترة بن شداد في ميميته التي بلغت إحدى وثلاثين بيتا، ولامية امرئ القيس التي بلغت ثلاثين بيتا، وأطولها عينية سويد بن أبي كاهل التي بلغت ستة وثلاثين بيتا[1]. والحماسة البصرية من أكبر الحماسات الشعرية جميعا من حيث عدد المقطوعات والقصائد، ووفرة عدد الأبيات فقد استطاع البصري بهذا الاختيار أن يحفظ للشعر العربي أشعارا لم تكن معروفة، وأضاف لدواوين الشعراء أبياتا لم تتضمنها دواوينهم كما أنها تضمنت أشعارا لشعراء مغمورين لم يسمع بهم من قبل[2].

الحماسة الشجرية:

صاحب هذه الحماسة هو هبة الله علي بن محمد بن حمزة بن علي بن عبد الله ينتهي نسبه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه- المعروف بابن الشجري[3] ولد ببغداد في بيت مشهود له بالعلم والدين، وهو أحد علماء آل البيت، كان واسع الذكاء فصيح اللسان حسن الكلام جيد البيان، نبغ في مجالات شتى في اللغة والأدب والشعر والحديث، ووصف بأوحد زمانه وفرد أوانه في علم العربية ومعرفة اللغة وأشعار العرب وأيامها، أقرأ النحو سبعين سنة[4] له عدة تواليف منها كتاب الأمالي، وله في النحو عدة مؤلفات ومعروف بالحماسة الشجرية، توفي بالكرخ ببغداد سنة ثلاثة وأربعين وخمسمائة 543هـ[5].

قسم ابن الشجري حماسته إلى سبعة أبواب، وهو لا يختلف عن غيره من مؤلفي الحماسات من ناحية التبويب والتقسيم، ولم يسم الباب الأول من حماسته باب الحماسة، وإنما سماه باب

1-ينظر: البصري صدر الدين علي بن أبي الفرج بن الحسن: الحماسة البصرية، تحقيق عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط1، 1999، ج1، ص 76، 293.

2-ينظر: مقدمة الحماسة البصرية، ج1، ص:40.

3-ينظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، 1977، ج6، ص:45.

4-السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار الفكر، دمشق، سوريا، ج2، ص:324.

5-ينظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق جمال الدين أبو المحاسن الأتابكي، ج5، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1992، ص:272.

الشدة والشجاعة، فالمؤلف نظر إلى معنى الحماسة الواسع من الشدة وقدمها على الشجاعة التي تكون أقرب إلى الحرب والقتال أما الشدة فتكون في الحرب والقتال وقد تكون في غيرها، ومن نماذج حماسته يقول بشر بن خازم الأسدي لأوس بن حارثة الطائي[1]:

تغيرت المنازل بالكثـــيب وغير آيها نسج الجنـــوب
منازل من سليمى مقفـــرات عفاها كل هطال سكـوب
نأت سلمى فغيرها التنـــائي وقد يسلو المحب عن الحبيب
فإن تك قد نأتني اليوم سلمى وصدت بع إلف عن مشيبي
فقد ألهو إذا ما شئت يومـــا إلى بيضاء آنسة لعـــوب

ويقول بعدها:

ألا أبلغ بني لأم رســـولا فبئس محل راحـلة الغريـب
إذا عقدوا الجـــار أحقروه كما غر الرشاء من الذنـوب
وما أوس ولـم سودتمـــوه بمخشي العرام ولا أريـــب
أتوعدني بقومك ابن سعدى وذلك من ملمات الخطـوب
هم ضربوا فوانس خيل حجر بجنب الرده في يوم عصـيب
وهم تركوا عتيبة في مكـــر بطعنة لا ألـفّ ولا هيـــوب

ما يفهم من أبيات المقطوعة الأولى أنها جاءت تحمل معاني النسيب، وبعد هجاء واضح، ثم كانت أبيات فخر يفخر الشاعر فيها بقومه وبأخلاقهم في السلم والحرب، ويذكر ابن سعدى بما فعلته قبيلة الشاعر بقومه. فالملاحظ أن الكثير من الحماسيات تتضمن معاني مختلفة كذكر الطلول أو الفخر أو الهجاء، إلى جانب ذكر معني الحماسة كذكر الحرب والقتال والسلاح وغيرها.

1-ابن الشجري هبة الله: الحماسة الشجرية، تحقيق عبد المعين الملوحي وآخرون، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سورية، دط، دت، ج1، ص:11.

الحماسة المغربية:

تنسب لأبي العباس أحمد بن عبد السلام الجرّاوي التادلي، وهو شاعر أديب معروف في زمانه له صلات برجال الدولة وبعلماء زمانه، نشأ بالمغرب واستكمل دراسته في الأندلس، كانت وفاته باشبيلية سنة 609هـ[1].

لحماسته شهرة كبيرة رغم كثرة الحماسات التي سبقت عصره، يقول فيه ابن خلكان: "كان هذا الأديب نهاية في حفظ الأشعار القديمة والمحدثة، وتقدم في هذا الشأن ، وجالس به عبد المؤمن ثم ولده يوسف ثم ولده يعقوب، وجمع كتابا كثير الوجود بأيدي الناس، وهو عند أهل المغرب كالحماسة عند أهل المشرق[2]. تعد حماسته من جملة الاختيارات التي تمثل حلقة في سلسلة إسهامات علماء المغرب والأندلس في تصنيف كتب الاختيارات الشعرية من أشعار أهل الأندلس خاصة، ومن شعر غيرهم.

واتبع صاحب هذه الحماسة طريق أبي تمام حيث قسم حماسته على موضوعات، ورتب أشعاره داخل تلك الموضوعات، أو الأبواب مثل باب المديح الذي قسمه إلى قسمين: أحدهما في مدح النبي -صلى الله عليه وسلم-والثاني في سائر المدائح وهو الأكثر، ثم باب الفخر والمراثي، وباب النسيب، والأوصاف والأمثال والحكم، وذم النقائص، والزهد والمواعظ.

وفي اختياراته الشعرية بدأ بشعراء المشرق، ثم بشعراء المغرب، وتميزت الأبواب الأربعة الأولى بوفرة نصوصها، وطول قصائدها، كما تكثر المقطوعات والأبيات المفردة في الأمثال والحكم، والملح وذم النقائص، ومن نماذج حماسته يقول ابن الرومي في قصيدة طويلة تتألف من ثمانين ومائتي بيت من الشعر، اختار منها المؤلف ما يتناسب ومعاني الحماسة، وهي في مدح صاعد بن مخلد[3]:

1-ينظر: المقري أحمد بن محمد: نفح الطيب من غصن أهل الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، دط، 1998، ج2، ص:502.

2-ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج7، ص:137.

3-الجراوي أبو العباس أحمد بن عبد السلام : الحماسة المغربية، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق، سورية، ط1، 1991، ج1، ص:438.

أبين ضلوعي جمرة تتوقدُ على ما مضى أم حسرة تتجددُ

أبا أحمد أبليت أمة أحمد بلاء سيرضاه ابن عمّك أحمدُ

تنزع حماسته إلى الاتجاه التعليمي، فكثيرا ما يلمح إلى أن تكون اختياراته تدرس وتتحلق حوله حلقات المتعلمين، والملاحظ كذلك على الحماسة المغربية وقوف صاحبها عند أسماء محددة في عدد من الأبواب، وإكثاره من نصوصهم المختارة، كوقوفه عند جرير والبحتري والمتنبي وابن المعتز، وذلك لذوقه الخاص وإعجابه بهذا الشعر، لأن كتب الاختيارات عكست ذوق أصحابها، والذوق يعد الأساس الأول في الاختيار.

الحماسة المغربية البياسية:

مؤلفها أبو الحجاج يوسف بن محمد بن إبراهيم الأنصاري البياسي، وهو أحد فضلاء الأندلس وحفاظها المتقنين، كان أديبا بارعا مطلعا على أقسام كلام العرب من النظم والنثر، راويا لوقائعها وحروبها وأيامها[1] له العديد من المصنفات منها تاريخ ذيل به على تاريخ ابن حيان، كتاب الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام، وكتاب تذكير العاقل وتنبيه الغافل، وكتاب الحماسة المسمى بالحماسة المغربية، توفي سنة ثلاث وخمسين وستمائة 653هـ، والبياسي نسبة إلى بياسة وهي مدينة من مدن الأندلس تقع قرب قرطبة على نهر الوادي الكبير فتحها المسلمون عام 92هـ[2].

جمع البياسي في حماسته ما استحسنه من أشعار العرب من العصر الجاهلي والعصر الإسلامي ومن الشعراء المخضرمين، ومن المولدين، والمحدثين من أهل المشرق والمغرب، ومن نماذج هذه الحماسة المغربية ما استفاد منها ابن خلكان بالنقل عنها في كثير من المواضع ومنها في باب

1-ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج7، ص:238. وينظر: البغدادي: هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ج2، ص23.

2- ينظر: ابن الآبار أبو عبد الله محمد بن عبد الله: الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، مصر،ط1963،1، ج2، ص:253.

المراثي، قال أبو على القالي البغدادي أنشدنا أبو بكر بن دريد، قال أنشدنا أبو حاتم السجستاني[1]:

ألا في سبيـــل الله ماذا تضمنت بطون الثرى واستودع البلد القفر

بدور إذا الدنيا دجت أشرقت بهم وإن أجدبت يوما فأيديهم القطر

فيا شامتا بالموت لا تشمتن بهـم ياتهم فخر وموتـــهم ذكـــر

وفي باب النسيب يقول العباس بن الأحنف[2]:

تحمّل عظيم الذنب ممـــن تحـبه وإن كنت مظلوما فقل أنا ظالم

فإنك إن لم تغفر الذنب في الهوى يفارقك من تهوى وأنت راغـم

ويقول الوأواء الدمشقي[3]:

وزائرٍ راع كـــلَّ الناس منظـــرُه أحلى من الأمن عند الخائف الوجل

ألقى على الليل ليـــلا من ذوائبه فهابه الصبح أن يبدو من الخـــجل

أراد بالقتل هجري فاستجرت به فاستل بالوصل روحي من يدي أجلي

فواضح أن صاحب هذه الاختيارات الشعرية قد أجاد كثيرا فيما تذوقه انتقاء من الشعر العربي مشرقا ومغربا عبر مختلف العصور الأدبية، فحفل مؤلفه بهذه الأشعار المختارة وبهذا العدد الكبير من الشعراء، مما جعله يسهم وبحظ وافر في حفظ التراث الأدبي.

1-ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج7، ص:239.

2-المصدر نفسه، ج7، ص:240.

3-المصدر نفسه، ج7، ص:241..

المحاضرة العاشرة: الشعر السياسي في المشرق والمغرب(الفتوحات، الشيعة، الخوارج، السجون، رثاء المدن).

تمهيد:

يرتبط الشعر بالسياسة من خلال ما يعكسه الشعر من انفعالات وجدانية تعبر عن أفكار الشاعر وانتماءاته السياسية، ويعرفه النقاد: بأنه ذلك الفن من الكلام الذي يتصل بنظام الدولة الداخلي أو نفوذها الخارجي ومكانتها بين الدول. والشعر السياسي قصائد تقال لإحياء أو تمجيد دعوة فكرية أو سياسية، فيناصر حزبا سياسيا أو مذهبا فكريا يدور حول شؤون الحكم، ويبرز أهم الأفكار التي تدور حول مختلف الأحداث المرتبطة بالسياسة، فهو شعر يخدم الفكرة والرؤية السياسية مثل الشعر الذي يعبر فيه أصحابه عن مبادئ ونظريات المذاهب والأحزاب والفرق والدفاع عن أرائهم السياسية[1].

ظروف نشأة الشعر السياسي:

تعددت الآراء عن ظروف نشأة الشعر السياسي وتحديد العصر الذي نشأ فيه، فبرأي الباحثين أن جذوره تمتد إلى العصر الجاهلي، فالشعر الذي نظم في شؤون القبيلة يعد شعرا سياسيا، وكذلك في صدر الإسلام، فالشعر الذي نظم في نصرة الإسلام وتعزيزه يعد شعرا سياسيا[2].

وفي العصر الأموي برز الشعر السياسي بصورة واضحة بسبب كثرة الأحداث السياسية التي طبعت هذا العصر، كتلك التي تتعلق بمقتل الخليفة عثمان بن عفان-رضي الله عنه- والشعر لم يلتزم بالسياسة التزاما حقا إلا بعد مقتل الخليفة عثمان وما أعقبه من فتن وصراعات وحروب انقسم فيها العرب إلى شيع وأحزاب، تتنافس على السلطة وتختلف في فهمها لنظام الحكم[3] فهذه الأحداث

1-أحمد الشايب: تاريخ الشعر السياسي، دار القلم، بيروت، لبنان، ط5، 1976، ص2، 3، 4.

2-ينظر: عبد القادر القط: في الشعر الإسلامي والأموي، دار النهضة العربية، دط، 1987، ص276.

3-ينظر: أحمد الشايب: تاريخ الشعر السياسي، ص:2.

تعد مهد الخلافات التي شكلت فيما بعد ما يعرف بالفتنة في التاريخ الإسلامي، وظهور الأحزاب السياسية المتصارعة مثل الحزب العلوي، والحزب الأموي، والخوارج، والزبيرين[1] فبدأ هذا اللون من الشعر في هذا العصر إثر ظهور الفرق الدينية بعد الأحداث الشهيرة التي وقعت بين جيش علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، في تلك الفترة بدأت هذه الفرق في الظهور، بدءا بالخوارج فالشيعة فالمرجئة، وكان لكل فرقة خطباؤها وشعراؤها الذين يذودون عن حياض هذه الفرق، وأشهر هذه الفرق على الإطلاق الخوارج والشيعة.

يرى شوقي ضيف أن نشاط هذا اللون الشعري في العصر الأموي بدأ يظهر ويتعاظم في ظل الصراعات التي صاحبت قيام الدولة الأموية، واختلاف الناس بين مشجع لهذه الدولة الملكية عاصمتها دمشق، وبين مناصر لعودة الخلافة إلى بيت رسول الله عن طريق علي بن أبي طالب وأولاده بعده رضي الله عنهم، منكرا على الأمويين التسبب في قتلهم وما صاحب ذلك من فرق وأحزاب[2] هذا النشاط السياسي البارز في العصر الأموي كان مقترنا بشكل كبير بالشعر السياسي الذي غذته هذه الخلافات السياسية والمذهبية بين الأحزاب المتصارعة على السلطة.

الخوارج:

فرقة إسلامية ترى أن الخلافة حق مشاع لكل مسلم مؤهل لها، عاشوا حروبا طاحنة مع الأمويين ومع جيش علي بن طالب، وعلى هذا النحو عاش الخوارج في هذا العصر مستحلين دماء إخوانهم المسلمين، وهي معيشة طبعت شعرهم بطوابع ميزته من شعر الفرق السياسية، فهو شعر ثوار ترافقهم السيوف في غدوهم ورواحهم وفي استقرارهم وترحالهم[3] ومن أشهر شعرائهم الشاعر قطري بن الفجاءة، والطِّرماح بن الحكيم، وعمران بن حطان.

1-يوسف خليف: تاريخ الشعر العربي في العصر الإسلامي، دار الثقافة للطباعة، القاهرة، مصر، دط، 1976، ص119.

2-ينظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول، ص:190.

3-المرجع نفسه، ص:302.

الشيعة:

ظهرت فرقة الشيعة كفرقة تطالب بحق أبناء علي في الخلافة التي اغتصبها الأمويون، فراح التشيع ينمو في الكوفة التي اتخذها عليّ حاضرة لخلافته، وقد مضى كثير من أهلها بعد وفاته يؤمنون بأن أبناءه وأحفاده أهل الخلافة الحقيقيون وأصحابها الشرعيون، وأن الأمويين اغتصبوها منهم وينبغي أن ترد إليهم[1] ومن شعرائهم الكميت بن زيد الأسدي، وكثير عبد الرحمن، وأيمن بن خريم الأسدي، وأبو الأسود الدؤلي...

ولما آل الأمر إلى بني العباس، وسيطروا على أرجاء الدولة الإسلامية، وأفل نجم الأمويين سنة 132هـ رحل شعراء الدولة الأموية إلى العهد العباسي الجديد ومعهم ميراثهم الشعري الأموي، وقد تعددت في هذا العصر أيضا الأحزاب والفرق والمذاهب والحركات الفكرية المختلفة، وكونت موقفا مناهضا للسلطة العباسية التي أخذت تواجه معارضتهم بقوة وعنف، وكان لهذه الأحزاب والفرق شعراء يرفعون رايتها ويدافعون عن مبادئها، الشيء الذي كون لونا سياسيا في الساحة العباسية.

أسباب ازدهار الشعر السياسي

- تعدد الأحزاب السياسية، إذ أن الصراع السياسي بين هذه الأحزاب المختلفة دفعها إلى اتخاذ الشعراء وسائل للدفاع عن رأيها السياسي.
- تقدير الحكام الأمويين للشعراء، وحرصهم على استغلال وتوظيف الشعر في الصراع، كما عملوا لأجل هذا الغرض لجذب الشعراء إلى قصورهم للدفاع عن حكمهم.
- ازدهار الثقافة الأدبية ووجود المجالس الأدبية، وما يجري فيها من محاورات ومناقشات في قضايا الشعر والشعراء.

1-المرجع السابق، ص:303.

- ازدهار الثقافة الدينية، واتساع دائرة الجدل بين الفقهاء، فالشعراء أدخلوا طرق المجادلة والمناظرة في أشعارهم السياسية.
- التحريض على التهاجي، فبنو أمية كثيرا ما يحرضون الشعراء على بعضهم تحقيقا لمصالحهم السياسية، كتحريض شاعرهم الأخطل على هجاء الأنصار.

شعر السجون:

تحفظ لنا كتب الأدب والأخبار بعض النماذج الشعرية لشعراء ذاقوا مرارة السجن، وشعر السجون شعر يعكس الوجه القاتم لسلطة بعض الحكام والأمراء تجاه الشعراء أو من يخالفونهم الرأي، ومن النصوص ما قاله عدي بن زيد العبادي الذي تولى المناصب العليا في بلاط الأكاسرة ثم المناذرة، واستوزره الملك النعمان ثم سجنه وقتله سنة 590هـ[1] له قصيدة في الشكوى يتقدم بها إلى النعمان يبرئ بها نفسه من تهم الوشاة، ويؤكد فيها إخلاصه للملك يقول فيها[2]:

ألا منْ مبلّغُ النّعمان عنّـي وقد تُهْوى النّصيحةُ بالمغيبِ
أَحظِّي كان سلسلةَ وقيـداً وغُللاً والبيانُ لدى الطبيبِ
أتاكَ بأنَّني قد طالَ حَسَبِـي ولم تسأمْ بمسجونٍ حريـبِ
وبيتي مُقفرُ الأرجاءِ فيـهِ أرامِلُ قد هلكنَ من النَّحيـبِ
فإنْ أخطأتُ أو أوهمتُ أمراً فقد يهم المصافي بالحبيـبِ
وإنْ أظلِم فقدْ عاقبتمـوني وإنْ أُظلَم فذلك من نصيـبِي

وفي صدر الإسلام سجن عمر بن الخطاب الشاعر الحطيئة تأديبا له على هجائه الناس وله في ذلك مقطوعة يقول فيها[3]:

ماذا تقولُ لأفراخٍ بذي مرخٍ زغب الحواصلِ لا ماءٌ ولا شجرُ

1-رئيف خوري: حصاد السجن، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط2، 1961، ص:14.
2-المرجع نفسه، ص:14.
3-المرجع نفسه، ص19.

أهلي فِداؤكَ كمْ بيني وبينهُم من عرض داوية يعمي بها الخبرُ
ألقيتَ كاسبَهم في قعرِ مظلمةٍ فاغفرْ عليك سلامُ اللهِ يا عمرُ

ويقول عبد الله بن معاوية بن أبي طالب، وهو فارس أموي لم يعترف بالسلطة العباسية بعد سقوط الدولة الأموية[1]:

خرجنا منَ الدُّنيا ونحنُ منَ أهْلهَا فلسنا من الأحياء فيها ولا الموتـى
إذا دخل السَّجانُ يوماً لحاجـةٍ عجبنَا وقلنَا جاء هذا من الدّنـيا
ونَفرحُ بالرُّؤيا فجُلُّ حديثِـنا إذا نحنُ أصبحناَ الحديثُ عنِ الدُّنـيَا
طوى عنا الأخبار سجن ممنـع له حارس تهدأ العيون ولا يهـدأ
قبرنا ولم ندفن ونحن بمعـزل عن الناس لا نخشى فنعش ولا تغشى

ومن الشعراء الذين ذاقوا مرارة السجن في العصر العباسي أبو فراس الحمداني، فديوانه زاخر بالروميات التي بث فيها معاناة الأسر والسجن، فهذا الشاعر أسره الروم لما كان في رحلة صيد مع حاشيته، فنقل إلى خرشنة ثم إلى القسطنطينية، وتباطأ سيف الدولة في افتدائه، فشق عليه ذلك، فأخذ يبعث إليه قصائد الاستعطاف ويستحث والدته على الصبر، ومن سجنياته يقول[2]:

وما ذلك بخلاً في الحياةِ وإنَّـها لأوّلِ مبذولٍ لأوّل مُجـتدِ
وما الأسرُ ممّا ضقتُ ذرعًا بحَمْلهِ وما الخطبُ ممّا أقـول له: قدِ
ولستُ أبالي إنْ ظفرتُ بمطلـبٍ يكون رخيصاً أو بوسـمٍ مزوّدِ
ولكنّني أختار موتَ بني أبـي على صهواتِ الخيلِ غير موسّدِ
وتأْبَى وآبَى أنْ أموتَ موسّداً بأيدي النّصارى موتَ أكمد أكبدِ

ويقول في قصيدة أخرى[3]:

1-المرجع السابق، ص:32،33.
2-أبو فراس الحمداني: الديوان، شرح خليل الدويهي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1941، ص265،266.
3-المصدر نفسه، ص:317،318.

يعزُّ على الأحبّةِ بالشّـــامِ حبيبٌ بات ممنوعَ المنامِ
يبيتُ همـــومَهُ واللّيلُ داجٍ تقلّبُهُ على وخْزِ السهامِ
يؤول به الصباحُ إلى صباحٍ ويُسلمُه الظلامُ إلى ظـلامِ
وإنِّي لَلصَّـــبورُ على الرّزاياَ ولكنّ الكلامَ على الكـلامِ
جروحٌ لا يزَلنَ يرِدْنَ منّـــي على جرحٍ قريبِ العهْدِ دامِ

ومن نماذج شعر السجون في الأندلس نلتقي بالشاعر المعتمد بن عباد الذي اقتاده المرابطون إلى سجن أغمات بالقرب من مدينة مراكش بالمغرب سنة 484هـ بعدما ما تم خلعه من إمارته بالأندلس، فنظم في سجنه مجموعة من القصائد دارت موضوعاتها حول الشكوى والتحسر على ملكه وأولاده، يقول في إحدى قصائده[1]:

أنباءُ أسْرِكَ قد طبـــــقن آفـاقاً بلْ عمَمْنَ جهاتِ الأرضِ إقلاقاَ
سَرتْ من الغربِ لا يُطوى لها قـــدمٌ حتّى أتتْ شرقَهاَ تَنعاكَ إشــراقاَ
فأحْرقَ الفـجعُ أكبـادا وأفئـــــدةً وأغرقَ الدّمعُ آماقاً وأحْـــــداقاَ
قد ضاقَ صدرُ المعالِي إذا نعيت لهاَ وقيل: إنَّ عليكَ القيدَ قد ضـاقاَ

ويقول في قصيدة أخرى[2]:

غريبٌ بأرضِ المغربينِ أســـيرٌ سيبكي عليهِ منبرٌ وسريـرُ
وتَندُبُه البيضُ الصَّوارمُ والقـــناَ وينهلُ دمعٌ بينهنَّ غزيرُ
سيبكيهِ في زاهيه والزاهرُ والنَّـدى وطلابُه والعرفُ ثم نكـيرُ
إذا قيل في أغماتٍ قد مات جودُه فما يرتجى للجودِ بعدُ نشورُ

1-المعتمد بن عباد: الديوان، جمع وتحقيق رضا الحبيب السويسي، الدار التونسية للنشر، تونس، دط، دت، ص:110.
2-المصدر نفسه، ص:98.

شعر رثاء المدن:

فن الرثاء فن شعري قديم يختص بالحديث عن مناقب وخصال الموتى، عرفه العرب في العصر الجاهلي، برعت فيه الخنساء في الجاهلية، ويعد من أصدق الأغراض الشعرية في الجاهلية وما بعدها؛ لأنه يلتصق بنفوس منكسرة متألمة أضناها ألم الفراق، ولما شهدت الأندلس تلك النكسات المتتالية، وسقوط عمرانها وممالكها وحواضرها، استخرجوا منه غرضا سموه رثاء المدن والممالك الزائلة، ولقد كتب شعراء المغرب والأندلس في هذا الغرض الكثير من القصائد الشعرية التي تبكي الأوطان والمدن المندثرة.

وقد نظم شعراء الأندلس والمغرب الكثير من القصائد الشعرية، ومن نماذج ذلك نونية أبي البقاء الرندي التي يصور فيها المصائب التي حلت بمدن الأندلس بعدما سقطت في أيدي النصارى، فيذكر التحول الذي حدث فيها وكيف استحالت إلى ساحة الأعداء بعدما كانت تعيش عزة ومنعة، كما يذكر مدنها الزائلة الساقطة كبلنسية وشاطبة وقرطبة وجيان...ثم يصف تحول المساجد إلى كنائس تعلوها الأجراس والصلبان، يصف أحوال المسلمين وما حل بهم من ضياع وتشريد وقتل ونفي، يصور ذلك في قصيدة كلها لوعات وأسى يقول فيها[1]:

لكلِّ شيءٍ إذا ما تمَّ نُقصـــانُ فلا يغرَّ بطيبِ العيشِ إنســـانُ
هي الأمورُ كما شاهدْتُــها دولٌ من سرّه زمنٌ ساءتهُ أزمـــانُ
وهذه الدّارُ لا تُبقِي على أحــدٍ ولا يدومُ على حالٍ لها شـــأنُ
يمزّقُ الدّهرُ حتماً كلَّ سابغــةٍ إذا نبَتْ مشرفيّاتٌ وخرســـانُ
وينتضي كلُّ سيــفٍ للفناءِ ولو كان ابن ذي يزن والغمدُ غمـدانُ
أين الملوكُ ذَوُو التيجانِ من يمنٍ وأين منهم أكاليلٌ وتيـــــجانُ
وأين ما شادهُ شـــــدّادٌ في إرمٍ وأينَ ما ساسَهُ في الفرس ساسانُ

1-أبو البقاء الرُّندي: الديوان، تحقيق ودراسة حياة قارة، مركز البابطين لتحقيق المخطوطات الشعرية، ط1، 2010، ص231.

وأين ما حازه قارونُ من ذهــبٍ وأين عادٌ وشدادٌ وقحطـــانُ

ثم يقول في نفس القصيدة[1]:

فجائعُ الدّهــرِ أنـواعٌ منوّعـــةٌ وبعضها فوق بعضٍ وهي أنــواعُ

وللحوادثِ سلوانٌ يسهلـــــهاَ وما لما حلَّ بالإسـلامِ ســلوانُ

دهى الجزيرةُ خطبٌ لا عــزاءَ لهُ هوى له أحدٌ وانْهدَّ ثهـــلانُ

فاسألْ بلنسيةً ما شانُ مرســيةٍ وأين شاطبةٌ أم أين جيّـــانُ

وأين قرطبةٌ دار العلومِ فـــكمْ من عالمٍ قد سمَا فيها له شــانُ

وأين حمـصٌ ومـا تحويـه من نــزهٍ ونهرها العذبُ فياضٌ مـــلآنُ

قواعدٌ كنَّ أركانُ البـــــلادِ فما عسى البقاءُ إذا لم تبــقَ أركانُ

تبكي الحنيفيّةُ البيضاءُ من أسـفٍ كما بكتْ لرسولِ الله أجفــانُ

على بيوت الإسلامِ عاطـــــلةٍ كأنّها لم تكــن بالذكرِ تزدانُ

صارت كنائسَ قد طال الضلالُ بها فليس إلا نواقيسُ وصلـــبانُ

حتى المحاريبُ تبكي وهي جـامدةٌ حتى المنابرُ ترثي وهي عيــدانُ

رثاء تيهرت:

مدينة تاهرت عاصمة الرستميين، عاشت زمنا تنعم بالحرية والرخاء والأمن رغم ما كان ينتابها من اضطرابات سياسية فيعكر صفو حياتها الآمنة، ولكن الكارثة التي داهمتها كانت سنة 296هـ لما هاجمها الفاطميون، وقوّضوا أركانها، وبوقوع تلك النازلة الأليمة طويت صفحة مجدها، وأفل نجم تاهرت الساطع في سماء المغرب، وأخذت تسير نحو الزوال والاندثار بعدما تحولت إلى خراب وزالت معالمها من الوجود وصارت أطلالا يرثيها الشعراء.

1- المصدر السابق، ص:232.

والشاعر بكر بن حماد أحد أبنائها البررة الذين احترقوا بحبها وتفجعوا بالكارثة التي ألمت بها عندما خربها العبيديون، وهي نفس السنة التي مات فيها الشاعر بعد أن فقد ابنه في السنة التي قبلها 295هـ وقد شاهد بأم عينه خراب ملاعب صباه ومدارج شبابه، ولما كان الشعر المؤثر في النفس الإنسانية هو الشعر الذي ينبعث عن عاطفة صادقة ومتدفقة من وجدان سليم يصور ما يجول بخاطر صاحبه، فذلك ما طبع به بكر بن حماد مرثيته في تاهرت فقال يرثيها بعد خرابها[1]:

زُرنَا مَنــازلَ قَــومٍ لمْ يزُورُونَـا إنَّا لفِي غَفْلةٍ عمَّا يُقاسُونَـا

لوْ ينطِقُونَ لقالُوا :الزَّادَ ويْحَكُمْ حَلَّ الرَّحيلُ فمَا يَرجُو المقِيمُونَا

الموتُ أجحفَ* بالدُّنيَا فخربَّهَا وفِعْلُنَا فِعْلَ قَومٍ لا يَمُوتُـونَا

فالآنَ فابْكُوا فقدْ حقَّ البُكاءُ لكمْ فالحَاملونَ لعرشِ اللهِ بَاكُونَا

ماذا عسَى تَنْفَعُ الدُّنيَا مَجْمَعَهَا لوْ كانَ جُمِعَ فيهَا كنزُ قَارُونَا

يتحدث الشاعر إلى أولئك النائمين بلا حراك، الراحلين عن هذه الحياة الدنيا والهامدين في قبورهم، هؤلاء الذين بالأمس فقط شيّدوا المدينة، وأقاموا صرحها، ولكن نائبات الدهر لم تترك لهم مجالا للتمتع بزينة الحياة، فمضوا إلى عالم الغيب.

ولقد شاءت الأقدار أن تخرب مدينة الشاعر في السنة التي سيودع فيها الحياة وربما تكون آخر نفثة اِلْتاع بها وهو يشاهد خراب مرابع الصبا، وقد سلك الشاعر في المرثية سبيل الوعظ والتحذير من دنيا الغرور حين استنطق تلك القبور لمعرفة وإدراك سر الحياة والموت، ويعرض الشاعر كل هذا في أسلوب حكمي، فتراه يحاور ويستشف من أحاديثهم الندامة على زمن التفريط (قالوا: الزاد ويحكم).

وبنظرة فيها الكثير من معاني الزهد والتبصر لعواقب الأمور، ومن المفيد أن نذكر أن ابن حماد قد كابد آلام الحياة وتأثر من أوجاعها، وقد استفاد من تجاربه الشخصية إلى ما يرشده إلى نور

1-محمد بن رمضان شاوش: الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي، المطبعة العلوية، مستغانم، الجزائر،ط1، 1966،ص 90.

الحكمة، الشاعر يقف موقف الناصح والواعظ والمدرك لخفايا الأمور وتقلبات الزمن، فقد رأى خراب مدينة شارك في صناعتها وعاش أحداثها، وظاهرة التأمل في ثنائية (الموت والحياة) ظاهرة قديمة قدم العصور الأدبية العربية وما أكثر النظرات التأملية في الحياة والموت وفي الأحياء في شعرنا العربي مند زمن الجاهلية .

رثـاء القيـروان :

مدينة القيروان هي أقدم مركز بأرض المغرب الإسلامية، أسسها عقبة بن نافع سنة 50هـ وكانت عاصمة للولاة والأمراء وهي قاعدة المغرب الإسلامي آنذاك ، وعدت وقتذاك رابعة الحواضر الإسلامية بعد البصرة والكوفة ودمشق، كما وصفت بالقلعة الشامخة للمذهب المالكي وقبلة أهل العلم والورع والصلاح، كما كانت مدينة للشعر والشعراء في عهد الصنهاجيين، وكتاب ابن رشيق الموسوم بأنموذج الزمان في شعراء القيروان الذي يضم مئة شاعر وشاعرة دليل عن ثراء الشعر في بلاط الصنهاجيين بهذه الحاضرة .

والشاعر ابن رشيق كان يقيم بهذه المدينة، وما هي إلا أيام حتى أظلم جوها وانهارت أركان الدولة الصنهاجية أمام حملات بني هلال التي حولت القيروان خرابا ودمارا، فكان إحساسه بالكارثة كبير ولوعته بالمصيبة أكبر، فبكى وتحسر وتأسى لما أصاب كعبته على أيدي الأعراب، ورثاها ووصف كيف كانت القيروان في أيام عزها، يغشاها الأمن والأمان والعيش الرغيد، وكيف استحالت إلى موضع خوف وذعر وهوان، كما يشير إلى اغتمام جميع المسلمين من الخليج إلى الأندلس بهذه النكبة التي ألمت بوطنه . يقول راثيا[1]:

كمْ كانَ فيهَا من كِرامٍ ســـادةٍ بيضِ الوُجوهِ شَوَامِخِ الإِيمَانِ
متعاونينَ علَى الدِّيانةِ و التُّقَـى للهِ في الإسْـــرارِ والإِعْـلاَنِ
وأئِمَّةٍ جَمَعُوا العُلومَ و هذّبـُوا سُنَنَ الحَديثِ ومُشْكلَ القُـرْآنِ

1-ابن رشيق: الديوان، شرح صلاح الدين الهواري وهدى عودة، دار الجيل، بيروت، لبنان، دط، دت، ص 156،157.

عُلماء إنْ سَاءَلْتهُمْ كشَفُوا العَمَى بفَقَاهَةٍ وفصَـاحةٍ وبـــيَـانِ

وإذَا دجَا اللَّيْلُ البَهيمُ رأيتـَهُمْ مُتبَتِّلِينَ تَبَتُّـلَ الرُهبَـــانِ

يبدأ الشاعر رثائيته بذكر من كان بالقيروان من أهل العلم والإيمان من علماء ورجال إصلاح، هؤلاء العلماء كانوا كالمنارات يهدون الناس إلى طريق الحق بفهمهم الصحيح لمنهج الإسلام، وبعلمهم وحسن بيانهم، ويمضي الشاعر ونفسه تذهب عليهم حسرات، فهم صفوة القيروان الذين جمعوا العلوم وشرحوا الأحاديث النبوية كما هذبوا مختلف الروايات وبينوا للناس ما غمض عليهم من آيات، يقول[1] :

حَلُّوا غَوامضَ كلِّ أمْرٍ مُشْكِـلٍ بدليلِ حقٍّ واضـحِ البُرهَـــانِ

هَجرُوا المضَاجعَ قَانتينَ لربِّهِمْ طَلَبًا لخيرِ مُعَرَّسٍ ومَغَـــانِ

خافوا الإلهَ فَخَـافَهُم كـلُّ الوَرَى حتَّى ضِرَاءُ الأُسْد في الغِيلاَنِ

تُنْسيكَ هيبتهُم شماخةَ كلِّ ذِي مُلك وهَيْبَةَ كُلِّ ذِي سُلْطَـانِ

ومن صفاتهم يهجرون النوم، عبادة لله تعالى، وطلبا لما أعده للطائعين من منازل في الجنة ولشدة خوفهم من الله خافهم كل الناس وخشيت من بأسهم الأسود المفترسة، ولهم مهابة من الوقار فإذا رأيتهم تنسيك هيبتهم علّو كل مكان، ومخافة كل حاكم جبار، ويواصل بكاؤه قائلا[2]:

كانتْ تُعدُّ القيـــروانُ بهـم إذا عُدَّ المنابرُ زَهـرةَ البُلْـــدَانِ

وزهتْ على مِصر وحَقَّ لها كَمَا تَزْهُو بهم وغَدَتْ على بَغْدانِ

حَسُنَتْ فلما أنْ تكاملَ حُسـنُهَا وسَمَا إليْـهَا كُلُّ طَرْفٍ رَانِ

وتَجمَّعتْ فيهَا الفضائلُ كُلُّـهَا وغَدَتْ مَحَلَّ الأَمْنِ والإيمَانِ

نظرتْ لهَا الأيَّامُ نَظْرَةَ كَاشِـحٍ تَرْنُوا بنَظرةِ كاشـحٍ مِعْيَانِ

حتَّى إذَا الأقْدَارُ حُمَّ وُقُوعُـهَا وَدَنَا القَضَـاءُ لمـدَّةٍ و أوَانِ

1-المصدر السابق، ص 158،159.

2-المصدر نفسه، ص 160،161.

أهدتْ لهَا فِتنًا كَلَيْلٍ مُظْلِـــمٍ وَأَرَادَهَا كالنَّاطِـــحِ العِيدَانِ

يصور الشاعر جمال القيروان وحسنها ومكانتها بين البلدان لكنه تصوير ينبئ عن حلول الفاجعة، فيبين أنه لما تكامل حسنها وأدامت العيون النظر إليها، وما إن تجمعت فيها مكارم الأخلاق وغدت بلاد أمن وأمان حتى نظرت إليها الأيام نظرة عداء ماحق فقضى الله ما قضى فأهدت لها الأيام فتنا سوداء كقطع الليل المظلم ثم انتقل الشاعر وهو في حسرة يذكر المصائب والأحداث الأليمة التي ألمت بالقيروان على أيدي بني هلال وبني سليم وسائر الأعراب فيقول[1] :

فتَكُـوا بأمَّـةِ أحْمَـــد أتَرَاهُـمْ أَمِنُوا عِقابَ اللهِ في رَمَضَـانِ
نقضُوا العُهُودَ المِرْمَاتِ وأخْفَرُوا ذِمَمَ الإلَهِ و مْ يَفُوا بِضَمَـانِ
فاسْتحسنُوا غَدْر الجِـوارِ وآثرُوا سَبْيَ الحَرِيمِ وَ شْفَةَ النِّسْوانِ
سامُوهُمْ سُوءَ العَذابِ وأظهَـــرُوا مُتَعَسِّفِينَ كَوَامِنَ الأضْغَـانِ
والمسلمونَ مُقَسَّمونَ تَنالـــهُـم أيْدي العُصَاةِ بِذِلَّةٍ وهَـوَانِ
ما بينَ مُضطرٍّ وبين معـــذَّبٍ ومُقَتَّلٍ ظُلْمًا وآخرَ عَـانِ
يستصْرِخُونَ فلاَ يُغَاثُ صريخُهمْ حتَّى إذا سَئِمُوا من الإرْنَانِ
خرجُوا حُفاةً عائذِينَ بربِّـــهـمْ منْ خَوفِهِمْ ومَصائِبِ الأَلْوَانِ
هَرَبُوا بكلِّ وليـدَةٍ وفطيـــــمةٍ وبكلِّ أرملةٍ وكلِّ حَصَـانِ
وبكلِّ بكرٍ كالمِـــهَاةِ عَزيـزَةٍ تَسْبِي العُقولَ بطَرفِهَا الفَتَّانِ

فهاهو يصور الفاجعة بألم شديد وهو يتأمل أحوال المسلمين وكيف آلت إلى الحضيض، فالمسلم يسحق أخاه المسلم فلا يرحم ضعفه ولا يؤمّن نساءه، فتراهم يخرجون مذعورين إلى الطرقات بكل وليدة وفطيمة وأرملة، حفاة عراة ملتمسين سبيلا للنجاة، وتمتد يد الإثم والعدوان إلى المقدسات فيقول[2]:

1-المصدر السابق، ص 161،162،163.
2-المصدر نفسه، ص 164.

والمسجدُ المعمُورُ جامعُ عُقبةٍ خَرِبُ المعَاطنِ مُظْلِمُ الأركَانِ

قفرٌ فمَا تغشَاهُ بعدُ جمـاعةٌ لصلاةِ خمـسٍ لاَ ولاَ لأَذَانِ

بيتٌ به عُبِدَ الإلهُ وبُطّـلتْ بعدَ الغُلوّ عبـادةُ الأوثـانِ

بيتٌ بوحْيِ اللهِ كانَ بِنـاؤُهُ نِعْمَ البِنَا والمبْتَنَى والبـانِي

ولعل أهم ما يلفت النظر في هذه المرثية التي يصور فيها الشاعر انقلاب الأحوال، أنه كان يصدر عن شعور ديني عارم، فهذا أمر طبيعي، فلم يكن من هم الأعراب أن يخربوا المساجد أو يدنسوا المقدسات ما داموا يدينون بالإسلام، ومهما يكن فمرثية ابن رشيق تشير إلى ما حدث في القيروان على يد قبائل بني هلال من استباحة للحرمات وتعرض للمقدسات، إنما كان مشابها لما ارتكبه الفرنجة من هول في ممالك المسلمين.

ثم يتنهد الشاعر ملتاعا متمنيا لو عادت القيروان كما كانت في سالف عهدها فيقول[1]:

أتَرَى الليَالِي بعدمَا صَنعَتْ بنَـا تقضي لنا بتواصـُلٍ وتَـدَانِ

وتعيدُ أرضَ القيروانِ كعَهْـدِهَا فيمَا مَضَى من سَالفِ الأزْمَانِ

من بعِد ما سَلَبَتْ نضَائرَ حُسْنِهَا الـ أيَّامُ واختلفـتْ بها فِتَنَـانِ

وغدَتْ كَأنْ لمَ تَغْنَ قَطُّ ولمْ تكنْ حرمًا عَزيزَ النَّصْرِ غيرَ مُـهـَانِ

أمستْ وقدْ لعِبَ الزَّمَانُ بأهلـهَا وتقطَّعتْ بـهم عُرَا الأقْـرَانِ

ويختم الشاعر قصيدته بالتساؤل عما إذا كان في الإمكان أن تعود القيروان إلى سابق مجدها وعزها، ترفل في ثياب الحسن والأمان، فيعود إليها ولكن كيف السبيل إلى ذلك بعدما لعب الزمان بأهلها وسلبتها الأيام حسنها وجمالها، ولكن الله يقضي أمرا كان مفعولا، ويتبدد أمل الشاعر ويتقطع حينما ساقه القدر إلى ديار الغربة بجزيرة صقلية حيث توفي هن

1-المصدر السابق، ص 166.

المحاضرة الحادي عشر: الشعر الفلسفي وشعر الحكمة(نصوص لأبي العلاء المعري، نصوص للمتنبي، نصوص لأبي تمام).

لمحة عن الفلسفة عند العرب:

لم يكن للعرب قبل الإسلام ما يمكن إن يطلق عليه فكرا فلسفيا، فالترحال الذي لازم حياتهم طويلا لم يتح للعقل العربي ما أتيح لعقول الأمم الأخرى المتحضرة من استقرار وحمل على الأناة والتأمل والبحث والاستقصاء، ومع ذلك استطاع العقل العربي أن يلخص تجارب حياته في الحكم والأمثال والوصايا والخطب والقصائد، وأن يطبع هذه الفنون بطابع فكري عميق لكنه لا يرقى إلى مستوى الفلسفة النظرية المتكاملة التي تبحث في مظاهر الوجود استنادا إلى المنطق المشفوع بالبراهين لتصل إلى حقائق مجردة، ولتضع نظاما متماسكا يفسر مظاهر الوجود[1].

وما خلفه العرب من شعر ونثر هي نظرات فلسفية تميل إلى الطبع وخطرات الفكر، ولم يكن لديهم اهتمام بالتعليل أو محاربة التقليد والخرافات، أو البحث عن العلاقة بين المقدمات والنتائج والمقدمات فيما كان منتشرا لديهم من آراء، ومعارف فلكية وطبيعية متصلة بمعارف الكلدانيين والصابئة، ومعارف طبية تجريبية مصحوبة بالرقى والعزائم والتمائم وأساطير زاخرة بأخبار الجن والسعالي والغيلان والشياطين، وأمثال وحكم تدل على منازعهم العقلية، وشعر تغلب عليه العناصر الخلقية والروحية، لكن ذلك كله لا يؤلف مذاهب فلسفية كاملة؛ لأن التفكير الفلسفي لم يبدأ عندهم إلا بعد ظهور الإسلام.

فالإسلام هو من نقل العرب إلى أفق فسيح من العلم والمعرفة والبناء، فقد كان الحجر الأساس في بناء الحضارة، ونظر إلى الإنسان فجعله خليفة الله في الأرض: ((إني جاعل في الأرض خليفة))(البقرة، الاية30) وفضله على كثير ممن خلق وكرمه: ((وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا)) (الإسراء، الاية70) وسخر له الكون ليتدبر آياته بالعلم والدراسة والفهم والنظر والتأمل، وقد

1-ينظر: أحمد إبراهيم هبو: تاريخ العرب قبل الإسلام السياسي والحضاري، منشورات جامعة حلب، سوريا،دط، 2004، ص24.

عظم الإسلام العقل، وأشار إليه في القرآن الكريم في كثير من الآيات بمختلف الصيغ والعبارات، فدعاه إلى استخدام ملكاته الفكرية وجعل التفكير واجبا وفريضة، وعاب القرآن على المشركين تقليدهم لأعرافهم وأسلافهم مستنكرا ذلك «حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا. أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون»(المائدة، الاية104) وهيأ للإنسان المناخ الذي يساعده على التفكر والتأمل، وأطلق سلطان العقل وخلصه من كل تقليد كان يستعبده، وبهذا تم للإنسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما وهما: استقلال الإرادة واستقلال الرأي والفكر[1] وكان للقرآن الأثر الكبير في الحياة العقلية التي طبعت حياة المسلمين.

كما كان للحضارة العربية الإسلامية الأثر الكبير أيضا الناتج من احتكاكهم بغيرهم من الحضارات كاليونانية وغيرها من الأمم، فاستفادوا منها الكثير كاستفادتهم من صناعة الورق، ووسائل التدوين عموما، وتفتحت عقولهم على مختلف العلوم التي سبقت إليها الفرس واليونان والهنود، فنقلوا عنهم العلوم العقلية، والفلك والطب، والرياضيات والمنطق والفلسفة. يقول طه حسين: "لقد تم للأمة الإسلامية نقل ما أورث اليونان من أنواع الفلسفة والحكمة، فترجمت لها كتب أرسطوطاليس وأفلاطون وإقليدس وجالينوس في الفلسفة الطبيعية والإلهية والرياضية والأدبية، فكانت بين أيديهم كتب أولئك الفلاسفة وما يتصل بها في المنطق والطبيعة والطب والتشريح في الهندسة والعدد والهيئة، وفي الإلهيات والسياسة والأخلاق، وكل ذلك كان في أيديهم يدرسونه ويتفهمونه في المساجد أو في المنازل، أو في المدارس أو في قصور الخلفاء والأمراء"[2].

وكان لتأسيس بيت الحكمة في عاصمة الخلافة بغداد عظيم الأثر في بعث التراث اليوناني الذي روج له كثير من العلماء في العالم الإسلامي، فأصبحت الفلسفة الإسلامية شرقية في أعلامها ومشاهيرها: كالكندي، والرازي، وابن سينا، وإخوان الصفا، وإلى مغربية أندلسية ومن مشاهيرها: ابن باجة، وابن طفيل، وابن رشد.

1-محمد عبده: رسالة التوحيد، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، دط، 1979، ص123.

2-ينظر: طه حسين: الأعمال الكاملة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، دط، 1974 ، ص85.

هذا ويختلف الباحثون في شأن الفلسفة الإسلامية من حيث هي مجرد استمرار للفكر الفلسفي اليوناني، وأن المسلمين لم تكن لهم فلسفة خاصة بهم، ويرجع هذا الطرف السبب إلى ضحالة العقلية الإسلامية وعجزها عن التعمق في مشكلات الفكر والغور في المذاهب الفلسفية، وأنه ليس للمسلمين إلا دور النقل، فكل ما عملوه أخذوا هذا التراث الفلسفي عن الإغريق وسلموه إلى فلاسفة القرون الوسطى فهم نقلة للفكر الفلسفي ولم يأتوا بشيء جديد يستحق أن يضاف إلى محصلة الفكر الإنساني.

وفريق أخر يرجح أن هناك فلسفة إسلامية نشأت في أحضان الثقافة العربية الإسلامية والعلوم العربية، ولم يكن تيار الفلسفة اليونانية سوى رافد من روافد التثاقف الفكري، أو حتمية التأثير الثقافي المتبادل بين الأمم والحضارات، فاستفاد المسلمون من الفلسفة اليونانية ورفضوا ما يتعارض مع دينهم وقبلوا ما لا يناقض العقيدة، فهم لم يطلبوا الفلسفة إلا في فترة كانوا قد وصلوا فيها من الناحية العقلية إلى مستوى هذا التراث الفلسفي[1].

الشعر الفلسفي عند العرب:

يرى الدارسون أن العلاقة بين الفلسفة والشعر علاقة قديمة لأن الفلسفة أم العلوم، والشعر رؤية فلسفية للوجود والمشاعر والأحاسيس، ولقد اهتم الشعراء بفلسفة معانيهم فالملاحظ أن شعراء العصر العباسي كانوا أكثر قربا واهتماما بالفلسفة، ولقد سار تيار الفكر الفلسفي مواكبا للحركة الأدبية، فإذا كانت الحكمة هي الصورة الأولى التي التقى حولها الشعراء فكانت بمثابة الفكر الفلسفي لحياتهم، لكنها لم تظل الشكل الوحيد للفكر الفلسفي بل تخطى الشعراء هذا المدى حين اشتد الجدل بين الفرق الدينية، وشغل الناس بقضية الإنسان وبين سلوكه ومصيره، وبين الجبر والاختيار، فكان العصر مجالا خصبا لهذا التنوع الفكري الذي أفرزته فرق الجبرية والقدرية والمرجئة

1-ينظر: النزعة الفلسفية في الشعر العباسي العصر الثاني، رسالة دكتوراه، إشراف محمد عباس، إعداد بوزيزة علي، جامعة تلمسان، 2013، ص133.

والمعتزلة[1] يدفعهم في ذلك النهضة العلمية والثقافية والفكرية التي أمدّت الشعراء بمعان وتشبيهات جديدة مستقاة من الحوارات العلمية ومن الثقافات الأجنبية التي نقلت إلى العربية عن طريق المترجمين، فشاعت المعاني العقلية في أبيات الشعراء وظهرت الألفاظ الفارسية والحكم اليونانية والهندية، واتجه الشعراء إلى فلسفة أقوالهم وصارت الفلسفة منهجا ووسيلة للتعبير عن الأشياء.

وقد أنتج العصر العباسي شعرا أبدعه شعراء عرفوا الفلسفة وكان الشعر عندهم لونا من ألوان التعبير الفني عن تجاربهم وعن أفكارهم وعواطفهم، واستطاعت مصطلحات علم الكلام أن تجد طريقها إلى المعجم الشعري في هذا العصر، ولأن المناخ الفكري السائد والقدرة اللغوية التي كان عليها الشعراء أتاحت حرية الحركة الشعرية في صياغة معاني جديدة من حيث اشتمالها على كثير من الأفكار الفلسفية المستخلصة من الفلسفة اليونانية والمنطق الأرسطي، ومن الديانات المختلفة، ومن علم الكلام والتصوف، فهذا التراكم المعرفي كان عملا أساسيا في بروز الشعر الفلسفي.

شعر الحكمة:

إن هذا الموضوع لا يبحث في علاقة الفكر بالشعر ولا يبحث في الآراء والقضايا الفلسفية التي قال بها الفلاسفة، وإنما هو وصف واستخلاص ما جاء به الشعراء بطريقة شعرية بها فلتات عقلية صائبة نتيجة خبرة واحتكاك وثقافة، وهي نظرات في الحياة، والموت، والدهر، والناس، وبعض الخواطر في النفس البشرية، يغلب عليها النظر والتأمل، عبروا عنها في تجاربهم الشعرية، وهذا الموضوع لا يستقل بذاته عندهم، وإنما هو موزع داخل الموضوعات الأخرى، ويكثر عادة في الرثاء. والحكمة هي آثار التفكير في الإنسان والمجتمع والوجود والحقائق والأشياء، وهي ثمرات العقل الإنساني، والإحساس الفكري بالحياة[2] وشعر الحكمة هو شعر يتعلق بما لدى الشعراء من تجارب العقل والحياة، ويعد زهير بن أبي سلمى من أشهر شعراء الحكمة في العصر الجاهلي، ومعلقته الشهيرة مزيج من المديح لهرم بن سنان والحارث بن عوف، ووصف لأهوال الحروب، رغبة منه في

1-ينظر: عبد الله التطاوي: حركة الشعر بين الفلسفة والتاريخ، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر،دط، 1992، ص87، 87.

2-ابن طباطبا العلوي: عيار الشعر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2005، ص13.

إقناع المتحاربين بالمصالحة والسلام، كل ذلك يصوغه في أسلوب من الحكمة تمنح قصيدته بعدا إنسانيا رفيعا، والحكمة في العصر الجاهلي تستمد من تجارب الشاعر وآرائه الخاصة في الحياة.

وفي العصر الإسلامي ومع ظهور القرآن الكريم والحديث النبوي، كثرت الحكمة وتنوعت مستفيدة من المعاني الإسلامية الجديدة، وفي العصر العباسي ومع تفتق الأفكار والثقافات نجد شعراء يعدون من أعلام ومشاهير شعر الحكمة فيظهر: أبو تمام والمتنبي وأبو العلاء المعري، فقد خلف الشاعر أبو تمام ميراثا شعريا زاخرا بالمعاني الحكمية أفاد فيما بعد منه المتنبي، كم استفاد من علوم عصره وثقافاته المختلفة الكثيرة المشارب، فكان أوفر حظا من شعر الحكمة، فحكمه آراء وخواطر جاءت وليدة تجاربه مع الحياة والناس وكثرة الترحال من بلد إلى آخر، فقد حمل المتنبي منذ صباه هما إنسانيا كبيرا وتقمص شخصية الإباء والكبرياء، فنطق بلسان ذاته وبلسان الإنسان المثالي الذي يتجسدة ويريد تحقيقه، فجاءت حكمه إفرازا ذاتيا لرؤياه العقلية والثقافية[1].

لقد أشار العقاد في كتاباته إلى أن المتنبي شاعر له رؤية شاملة في قضايا الحياة وطبائع الناس وأخلاقهم، وفلسفة علمية تستطيع إخراجها من شعره، مثله مثل أبي العلاء المعري، أما أبو تمام فتجده عند المنظر الجميل والمعنى العميق البديع، لكن لا تجد له تلك الرؤية الفلسفية الشاملة، والحكمة عند المتنبي ليست نظرية تجريدية؛ بل هي منتزعة من تجاربه الشخصية، وخبرته بالناس، يقول[2]:

ومن عرفَ الأيامَ معرفتي بها وبالنَّاس روَّى رمحَه غيرَ راحـــمِ

فليس بمرحومٍ إذا ظفروا بهِ ولا في الرَّدى الجاري عليهم بآثمِ

فالمتنبي بحق هو شاعر التجارب والحكم[3].

1-يوسف خليف: في الشعر العباسي نحو منهج جديد، دار غريب، القاهرة، مصر، دط، دت، ص141.

2-المتنبي: الديوان، ص112.

3-ابن طباطبا العلوي: عيار الشعر، ص13.

يقول أحمد شوقي: "لا يزال الشعر عاطلا حتى تزينه الحكمة، ولا تزال الحكمة شاردة حتى يؤوبها بيت من الشعر" فبيت الشعر في القصيدة العربية محصن بسياج قوي من القافية والوزن والموسيقى الشعرية، وتظل الحكمة مصونة بداخله على مر الزمان[1].

أبو الطيب المتنبي:

هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي من بني جعفى من مَذحِج من عرب الجنوب، وهي قبيلة يمانية فيها فصاحة ولسن، ولد في حي بني كندة في الكوفة، ولذلك يقال له الكندي والكوفي أيضا، نشأ بالكوفة، وتلقى فيها جانبا من العلوم، ثم غادرها مع أبيه في الأغلب، وأخذ يطوف بين بلاد الشام والعراق، بين بعلبك وطرابلس واللاذقية، وقد كانت هذه المدن في ذلك الحين مراكز للعلم والتعليم، وينتقل إلى البادية مصاحبا الأعراب، وكانت الديار الإسلامية دريئة للفتن والدعوات المخالفة، فالفرق الباطنية من قرامطة وإسماعيلية وسواهم، يدون لأبناء علي بن أبي طالب، ويبشرون الناس بظهور المهدي ليطهر الأرض من الجور والفساد، والخوارج على السلطان يؤرثون نار الفتن في الأمصار والديار[2]

فلسفته وآراؤه في الحياة:

للشعر أغراض متفاوتة يعلو بعضها على بعض، فمنها الغزل وما يتبعه من تشبيب بمحاسن المحبوب وتصوير لأخلاقه، ووصف لمشاعر النفس في حالتي اللذة والألم، ومنها وصف الطبيعة وما يتعلق بها واستجلاء أسرارها والاتصال بمحاسنها وألوانها، ومن الأغراض ما يتصل بالنظر في الحياة، وما يتعلق بها من عادات الناس وأخلاقهم وطبائعهم وأذواقهم ولذاتهم وآلامهم، وتآلفهم وتخالفهم وسياساتهم واجتماعاتهم، والمتنبي شاعر له عبر ومواعظ من حياته وحياة عصره أعمل فيها فكره، وبنى عليها آراؤه، وكان له إطلاع على الفلسفة العربية اليونانية، ساعدته على إبراز أفكاره المتشبعة بالأحكام السديدة.

1-مصطفى أمين الرفاعي: المتنبي وشوقي، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، دط، 2002، ص247.

2-عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي الأعصر العباسية، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط4، 1981 ، ص457.

فقد أوتي الشاعر نفسا أبية تسامت به إلى أرفع الدرجات، وخالفتها الأقدار، فأخفقت مرارا، فأفضى به الإخفاق المتتابع إلى التشاؤم بالزمان وأهله، وتشاءم بأهل زمانه لأنه رأى فيهم أعداء وحسادا يعكسون أماله ويخضدون شوكته، ورأى أن هناك من يساعده الحظ فيبلغ أعلى الرتب وهو عنده لا يستحق هذا المقام، فكره زمانه واحتقره في قوله[1]:

أريدُ من زمني ذا أنْ يُبَلِّغَني ما ليس يَبْلُغُهُ من نفسِهِ الزَّمنُ

ولا تلقَ دهرَك إلاّ غيرَ مكترثٍ مادام يصحبُ فيه روحَكَ البَدَنُ

وكره أهل زمانه ورماهم بأقبح الأوصاف، فهم قوم ليس الإحسان عندهم في صنع الجميل، وإنما في ترك القبيح. يقول المتنبي[2]:

إنَّا لفي زمنٍ تركُ القبيـــحِ بهِ من أكثرِ الناسِ إحسانٌ وإجمالُ

ذكرُ الفتى عمرُه الثاني وحاجتُه ما قاتَه وفضولُ العيشِ أشـغالُ

وقد قاده أيضا تشاؤمه بالزمن وأهله إلى كره النسل فيقول[3]:

إذا ما تأمَّلتَ الزمانَ وصرفَـهُ تيقَّنت أنَّ الموتَ ضربٌ منَ القتلِ

وما الدهرُ أهلٌ أن تؤمَّلَ عندهُ حياةٌ، وأنْ يشتاقَ فيه إلى النسـلِ

وقد قضى على أهل زمانه باللؤم والقبح والظلم والجهل، فاتهم مودتهم ودينهم في قوله:

فلم أر وُدَّهُم إلاّ خداعاً ولم أر دينَهم إلاّ نفاقاَ

وتوالت الإخفاقات المتوالية في حياة المتنبي إلا أنه ظل صامدا لم يخنع ولم يذعن، بل لم تزده صروف الدهر إلا عزما وإقداما فيقول في هذه المعاني[4]:

ذريني أنلْ ما لا يُنالُ من العُلى فصعبُ العُلى في الصّعبِ والسّهلُ في السّهلِ

تريدين لقيانَ المعالي رخيصةً ولابـدّ دون الشَّهـدِ من إبـرِ النّـــحلِ

1-المتنبي: الديوان، شرح أبي البقاء العكبري، ضبط وتصحيح مصطفى السقا، مطبعة البابي الحلبي وأولاده، مصر، دط، 1936، ص234.

2-المتنبي: الديوان، ص490.

3-المصدر نفسه، ص281.

4-المصدر نفسه، ص518.

ويقول في موضع آخر[1]:

وإذا كانتِ النُّفوسُ كِبارًا تَعبتْ في مُرادِها الأجسامُ

وكذا تطلعُ البدورُ علينا وكذا تقلقُ البحورُ العظام

ولنا عادةُ الجميلِ من الصّـــــبرِ لو أنّا سوى نَواكَ نُسامُ

كلُّ عيشٍ ما لم تطبْهُ حِمامٌ كلّ شمسٍ ما لم تكنْها ظلامُ

وكان يرى أن لكل امرئ من دهره ما تعوّد، فمن عود نفسه الذل هان عليه احتماله، يقول[2]:

مَنْ يهنْ يَسْهلِ الهوانُ عليهِ ما لجرحٍ بميّتٍ إيلامُ

ومن حمل نفسه على ركوب الأخطار هانت عليه مكارهها، يقول في ذلك[3]:

غاضَ الوفاءُ فما تلقاهُ في عِدَّةٍ وأعوزَ الصدقُ في الإخبارِ والقسمِ

سبحانَ خالقِ نفسِي كيف لذَّتُها فيما النّفوسُ تراه غايةَ الألمِ

الدهر يعجب من حملي نوائبه وصبر نفسي على أحداثه الحطمِ

وقتٌ يضيعُ وعمرٌ ليتَ مدّتَهُ في غير أمَّتِه من سالفِ الأممِ

وغير جدير بالشاعر المتنبي أن يطلب من المجد أدناه، فهو يرى أن طعم الموت في الأمر الحقير مثله في الأمر العظيم، ومدّ نظره إلى أسمى الدرجات وقال[4]:

إذا غامرتَ في شرفٍ مرومٍ فلا تقنعْ بما دون النُّجـومِ

فطعمُ الموتِ في أمرٍ حقـيرٍ كطعمِ الموتِ في أمرٍ عظيمِ

ووطّن نفسه على الجهاد في سبيل المجد، فعانى الأسفار، وركب الأخطار فما الدنيا عنده إلا غنيمة الجسور(والبرّ أوسع والدنيا لمن غلبا) فأضعف فيه ذلك حب الوطن فكان يقول:(وكل

1-المصدر السابق، ص261.

2-المصدر نفسه، ص94.

3-المصدر نفسه، ص498.

4-المصدر نفسه، ص119.

مكان ينبت العز طيب) أو يقول: (إن الدليل غريب حيثما كانا)[1]. وكثير من أشعار المتنبي حكم سائرة وأمثال واردة، يرددها الناس في كل زمان ومكان، ومن ذلك قوله[2]:

كلَّما أنبتَ الزمانُ قناةً ركَّبَ المرءُ في القناةِ سِنَانا

ومرادُ النُّفوسِ أصغرُ منْ أنْ نتعادَى فيهِ وأنْ نتَفانَى

ويقول[3]:

ماكلُّ ما يتمنَّى المرءُ يدركُه تجري الرياحُ بما لا تشتهي السُّفنُ

أبو العلاء المعري:

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان التنوخي ولد في معرة النعمان، أصيب بالجدري صغيرا بعد أربع أعوام من مولده فذهب بصره، وانطفأت عيناه، غشي يمنى عينه بياض وكانت نادرة، وانطفأت اليسرى تماما وكانت غائرة، لم يعرف من الألوان سوى الأحمر وهو لون الثوب الذي لبسه يوم أصابه الداء، أخذ عن والده مبادئ العلم، ثم قصد حلب وتحدث إلى علمائها وزار مكتباتها، ثم ذهب إلى أنطاكية واللاذقية وعاد إلى طرابلس، وأخيرا قصد بغداد وجالس علماءها في مجالس العلم والأدب، ولما بلغه نعي أمّه رجع إلى المعرة وحبس نفسه في بيته، فسمي رهين المحبسين؛ أي العمى والبيت، وربما أضاف محبسا ثالثا نلمس ذلك في قوله[4]:

أراني في الثلاثة في سجوني فلا تسـأل عن الخــبر النبيثِ

لفقدِ ناظري ولزوم بيــتي وكونِ النفسِ في الجسد الخبيثِ

ترك الدنيا فجاءت إلى بيته الذي أصبح مزارا لكبار العلماء والأدباء وطلاب العلم، وقد ظهر وجهه مجدورا طوال عمره، وأما جسمه كان نحيلا منذ النشأة، وزاد نحولا أيام لزومهم محبسه، وحرم على أكل اللحوم من أي نوع، وبيض الحيوان، ولبنه، وهي شيمة قدامى فقراء الهند ودراويش

1-ينظر: بطرس البستاني: أدباء العرب في الأعصر العباسية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، ط1، 2014، ص270.

2-المتنبي: الديوان، ص240، 241.

3-المصدر نفسه، ص236.

4-أبو العلاء المعري: اللزوميات، تحقيق أمين عبد العزيز الخانجي، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، دط، دت، ج1، ص188.

الصوفية، ودامت نباتيته سبعا وأربعين سنة، ألذ فاكهة لديه التين، وأشهر طعام العدس إلى أن توفي سنة 449هـ. تذكر الروايات أنه كان زاهدا في حطام الدنيا، كبير النفس، متوقد الذكاء، وهو من نوابغ العميان، وهو شاعر في ديوانيه: سقط الزند وضوء السقط، وأغراض هذين الديوانين: فخر ورثاء ووصف ومدح، وأما في ديوانه اللزوميات طرق المعري جميع القضايا التي تشغل العقل الإنساني، فهي مجموعة آرائه في المشاكل العقلية، فألّه العقل، وعاش نباتيا، وتحدث عما وراء العقل، وقبح الزواج، وأساء الظن بالمرأة[1].

فلسفته وآراؤه:

جمع المعري فكره وفلسفته في الحياة في ديوانه اللزوميات، وهذا الديوان يختلف في نظمه عن ديوان سقط الزند شكلا ومضمونا، فمن ناحية الشكل اختص بنظم اللزوميات بقيود لم يكن العرب على عهد بها وألزم فيها ما لا يلزم، ومن ناحية المضمون لم ينشئ قصائد في المديح والنسيب والغزل والرثاء والهجاء، وإنما اختص بالتعبير عن أفكاره وتأملاته تجاه القضايا الكونية والفلسفية وكل ما يتصل بالإنسان،

يقول في الدهر[2]:

من أحسنِ الدهر وقتا ساعةٌ سلمتْ من الشُّررِ وفيها صاحبٌ حدثُ

أعجب بدهـــرك أولاهُ وآخـــرهُ إنّ الزمان قديم سنه حـــدثُ

أردى رداهُ بأجيالٍ فكم حُفـرتْ أجداثُ قومٍ ولم يحفر له جدثُ

يقول فيما يعتقد البشر مشككا[3]:

في اللاذقية ضـــجةٌ ما بين أحمـد والمســـــيح

قسٌّ يعالج دلـــــبةً والشّيخ من حنق يصـــيح

1-ينظر: مارون عبود: أدب العرب، ص227.

2-أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص187.

3-ينظر: مارون عبود: أدب العرب، ص228.

كلٌّ يصحّح ديـــنَهُ يا ليت شعري ما الصحيح

ويقول في المذاهب[1]:

عجبت لكسرى وأشيـــاعه وغسل الوجوه ببول البـقر

وقول النصارى إله يُضـام ويُظلم حيا ولا ينتـــصر

وقول اليهود إله يحـــب رشاش الدماء وريح القـتر

وقوم أتوا من أقاصي البلاد لرمي الحجار ولثم الحـجر

فوا عجبا من مقالاتـــهم أيعمى عن الحق كلّ البشر

ويقول لمن يبحث عن الحق[2]:

أمور تستخفُّ بها حلـــومٌ ولا يدري الفتى لمن الثبورُ

كتاب محمد وكتاب موسى وإنجيل ابن مريمَ والزبـورُ

نهتْ أمماً فما قبلتْ وبارتْ نصيحتُها فكلُّ القوم بورُ

أصولٌ قد بُنينَ على فسادٍ وتقوى الله سوقٌ لا تبورُ

ليطّلعَ الملك عليك فيها وأنت على نوائبها صبورُ

ثم تراه يوضح مقاله قائلا[3]:

إذا رجع الحصيفُ إلى حجاهُ تهاونَ بالمذاهبِ وازدراهَا

وهتْ أديانُهم من كلِّ وجـــهٍ فهل عقلٌ يشدُّ به عُراها

ثم يقول[4]:

قال افتكارٌ في الحوادثِ صادقٌ جعل الصعاب من الحوادث مذلَّله

هَفتْ الحنفيةُ والنصارى ما اهتدتْ ويهودٌ حارتْ والمجـوسُ مـــضلَّله

1-ينظر: المرجع السابق، ص228.

2-أبو العلاء المعري: اللزوميات، ج1، ص319.

3-المصدر نفسه، ج2، ص427.

4-المصدر نفسه، ج2، ص208.

اثنان أهلُ الأرضِ ذو عقلٍ بــلا دينٍ وآخـــر دَيِّنٌ لا عــقلَ لَـه

ثم يدعو إلى عبادة العقل فيقول[1]:

أيها الغِرُّ إن خُصِصْتَ بعقلٍ فاسْألنّهُ فكلُّ عقلٍ نبّي

يقول في النهاية[2]:

ضحكنا وكان الضحكُ منّا سفاهةً وحُقَّ لسكانِ البسيطةِ أن يبْكُوا

يُحطِّمنا ريبُ الزمّــانِ كأنّـــنا زجاجٌ ولكن لا يُعادُ لهُ سَبْكُ

1-المصدر السابق، ج2، ص439.

2-المصدر نفسه، ج2، ص147.

المحاضرة الثاني عشر: الموشحات والأزجال (نصوص لابن زمرك، نصوص للسان الدين بن الخطيب).

تعريف الموشح:

الموشح في اللغة من الوشاح والإشاح، وكله من حلي النساء كرسان من لؤلؤ وجوهر منظومان مخالف بينهما معطوف أحدهما على الأخر، وعند الفيروز آبادي" الوُشاح بالضم والكسر: كرسان من لؤلؤ وجوهر منظومان يخالف بينهما، معطوف أحدهما على الآخر، وهو أديم عريض يرصع بالجواهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحها، جمع وُشح وأوشحة ووشائح[1]. وجاء في المعجم الوسيط: التوشيح اسم لنوع من الشعر استخدمه الأندلسيون وله أسماط وأغصان وأعاريض مختلفة، وأكثر ما ينتهي عندهم إلى سبعة أبيات، ومن الديكة ماله خطتان كالوشاح، وثوب موشح: موشى والموشحة من الظباء والشاء والطير التي لها طرتان مسبلتان من جانبيها[2].

يقول ابن خلدون في مقدمته عن الموشح إنهم: "ينظمونه أسماطا وأغصانا يكثرون من أعاريضها المختلفة ويسمون المتعدد منها بيتا واحدا، ويلتزمون عند قوافي تلك الأغصان متتاليا فيما بعد إلى آخر القطعة[3]. والموشح لون من ألوان النظم ظهر بالأندلس في عهد الدولة المروانية في القرن التاسع الميلادي، ويختلف عن غيره من ألوان النظم بالتزامه قواعد معينة من حيث التقفية، وخروجه أحيانا عن الأعاريض الخليلية، وبخلوه أحيانا من الوزن الشعري، وباستعماله اللغة الدارجة والعجمية في بعض أجزائه وباتصاله الوثيق بالغناء[4].

والموشح فن شعري فيه لون جديد من النظم ظهر بالأندلس في أواخر عهد الدولة المروانية وازدهر في القرن العاشر للميلاد، فيه خروج عن وحدتي الوزن والقافية وعناية خاصة بالموسيقى، إذ

1- ينظر: ابن منظور: لسان العرب، والفيروز أبادي: القاموس المحيط، مادة (وشح).

2-إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2، 1980، مادة (وشح).

3-ابن خلدون: المقدمة، ج3، ص390.

4-ينظر: مصطفى عوض الكريم: فن التوشيح، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط2 ، 1974، ص18.

أنه وضع أساسا للغناء، كما تدخل على الموشح ألفاظ عامية واسبانية، والموشح يعني الموشى والمزخرف، وسميت الموشحات بهذا الاسم تشبيها لها بالوشاح الذي هو عبارة عن نسيج أو جلد يرصع بالجواهر وتشده المرأة على عاتقيها وكشحيها، أما وجه الشبه فيه، تبدو الأغصان والخرجات شبيهة بأطراف الوشاح، كما أن الموشحة بصورها المنمقة وألوان الإيقاع فيها تبدو كالوشاح المرصع فالتزيين هو وجه الشبه بينهما[1].

وهذا الفن الشعري هو وليد الحياة الفنية الأندلسية والسبب في ظهوره هو تطور القصيدة العربية الأصيلة فقد سارت في البداية على سنن العرب، فكانت بعثا على الجزالة والأسلوب السلس، ثم سارت في طريق المحدثين فانتحلت بعدا فكريا جديدا وامتزجت بالفلسفة والمنطق، وبين هذين الاتجاهين ضاعت الغنائية الرقيقة، فكان لزاما على الشعراء سلوك طريق يعيد للشعر شاعريته المفقودة، وفي هذا اتسع نطاق الموشح لتتسع الناحية الغنائية، فالموشح بهذا المعنى ثورة على طبيعة القصيدة ولذلك يعد حركة تجديدية، وهو أيضا رجعة إلى الغنائية من وجهة أخرى أي زخرف حضاري قد ينطوي على كل مقومات السطحية الجذابة والترف المسترخي[2].

نشأة الموشح:

نشأت الموشحات في الأندلس أواخر القرن الثالث الهجري أين ازدهرت في هذه الفترة الموسيقى وشاع الغناء من جانب، وزاد احتكاك العنصر العربي بالعنصر الاسباني من جانب آخر، فكانت النشأة استجابة لحاجة فنية، لأن الأندلسيين قد أولعوا بالموسيقى وكلفوا بالغناء منذ أن قدم زرياب، وأشاع فيهم فنّه، فكان لازدهار الغناء والموسيقى تأثير في الشعر، وقد اتخذ هذا التأثير صورة خاصة في الحجاز والعراق حين ازدهر فيهما الغناء والموسيقى في عهد بني أمية ثم في العصر العباسي، وكذلك اتخذ هذا التأثير صورة مغايرة في الأندلس، فيظهر أن الأندلسيين أحسوا بتخلف القصيدة الموحدة إزاء الألحان المنوعة وشعروا بجمود الشعر في ماضيه التقليدي الصارم أمام النغم في

1-ينظر: يوسف عيد: دفاتر أندلسية في الشعر والنثر والنقد والحضارة والأعلام، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، 2006، ص365 .

2-إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط8، دت ، ص217.

حاضره التجديدي المرن، وأصبحت الحاجة ماسة إلى لون جديد من الشعر يواكب الموسيقى والغناء في تنوعهما واختلاف ألحانهما ومن هنا ظهر هذا الفن الشعري الغنائي الذي تتنوع فيه الأوزان، وتتعدد فيه القوافي والذي تعتبر فيه الموسيقى أساسا من أسسه فهو ينظم ابتداء للتلحين والغناء.

وأما من الناحية الاجتماعية فامتزاج العرب بالإسبان وظهور عنصر فيه عروبة وإسبانية فكان من مظاهر هذا التمازج أن عرف الأندلسيون العامية اللاتينية Romance كما عرف العامية العربية، فكان هناك ازدواج لغوي نتيجة للازدواج العنصري، فنشأ أدب يمثل تلك الثنائية اللغوية، فمن المقرر أن الموشحات كانت منذ نشأتها تنظم بالعربية الفصحى إلا الفقرة الأخيرة منها وهي الخرجة، فقد كانت تعتمد على عامية الأندلس وهي عامية العربية المستخدمة لألفاظ من عامية اللاتينية، فكان للموشحات جانبان: جانب موسيقي يتمثل في تنويع الوزن والقافية، وهذا استجابة لحاجة الأندلس الفنية حين شاعت الموسيقى والغناء، وجانب لغوي يتمثل في كون الموشحة فصيحة في فقراتها عامية في خرجتها وهذا الجانب قد جاء نتيجة للثنائية اللغوية التي تعكس العنصر البشري الأندلسي[1].

والموشحات التي منحت الأندلس تميزا خاصا على الشعر المشرقي، فقد نبتت أصولها على نحو غامض فلا يزال النص الذي أورده ابن بسام في ذخيرته عن نشأتها في حاجة إلى توضيح "وأول من صنع أوزان هذه الموشحات بأفقنا واخترع طريقتها- فيما بلغني- محمد بن محمود القبري الضرير، وكان يصنعها على أشطار الأشعار غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة، يأخذ اللفظ العامي والعجمي ويسميه المركز ويضع عليه الموشحة دون تضمين فيها ولا أغصان".

وقيل: إن ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد أول من سبق إلى هذا النوع من الموشحات، ثم نشأ يوسف بن هارون الرمادي، فكان أول من أكثر فيها من التضمين في المراكيز، ثم جاء ابن ماء السماء فأحدث التغيير واعتمد مواضع الوقف في الأغصان، هذا وتختلف الآراء حول كيفية

1-ينظر: أحمد هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط14، 2004 ص143،144.

نشوء فن التوشيح، لكن المؤرخين الأندلسيين يتفقون على أن هذا الفن نشأ عندهم ثم انتقل إلى المشرق وفي طليعة أولئك المؤرخين المقّري في نفح الطيب، وابن سناء الملك في دار الطراز، وابن خلدون في المقدمة، على أن بعض الدارسين يشك في نسبة هذا الفن إلى الأندلسيين، مستندين في ذلك إلى موشحة وردت في ديوان ابن المعتز الشاعر العباسي، وهي نفس الموشحة التي نسبت إلى الحفيد بن زهر التي مطلعها:

أيّها السّاقي إليك المشتكَى قدْ دعوناكَ وإنْ لمْ تسمعِ

وأما بداية التوشيح فلا ندري بالتحديد متى كانت، وعلى يد من نشأت، فابن خلدون يقول في مقدمته: "وكان المخترع له بجزيرة الأندلس مقدم بن معافر الفريري من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني، وأخذ ذلك عنه أبو عبد الله أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد، والواقع أنه لم يصلنا شيء من موشحات مقدم بن معافر ولا من ابن عبد ربه، وهذا ما يؤكد غموض نشأة هذا الفن، وقد عرف في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الميلادي على أيدي مجموعة من الشعراء، وأقدم ما وصلنا من هذا الفن هو لعبادة القزاز (ت422هـ)[1].

ومن أشهر الوشاحين الذين تركوا أثرا في صنعة الموشح نذكر: يوسف بن هارون الرمادي(ت403هـ) وهما شاعران وعبادة بن ماء السماء(ت419هـ) ومحمد بن عبادة القزاز(ت488هـ) شاعر المعتصم بن صمادح بالمرية، وأبو بكر محمد بن أحمد الأنصاري الملقب بالأبيض(ت525هـ) وأبو بكر بن اللبانة (ت507هـ) والأعمى التطيلي (ت) والحفيد بن زهر(ت525هـ) وابن زمرك(ت) ولسان الدين بن الخطيب(ت)...

شكل الموشح: أكثر الموشحات تأتي في خمسة أغصان يكنفها ويتخللها ستة أقفال، لكن الوشاحين لا يلتزمون بهذا دائما فقد تنقص فتجيء أربعة أغصان لخمسة أقفال أو أربعة، وقد تزيد إلى ستة أغصان وسبعة، بل ربما طالت الموشحة كالذي نجده في موشحة لسان الدين بن الخطيب:

1-ينظر: يوسف عيد: دفاتر أندلسية، ص366.

جادَكَ الغيثُ إذا الغيثُ همَى يازمانَ الوصلِ بالأندلـــــسِ

لم يكنْ وصلُك إلا حلـــماً في الكرى أو خلسةِ المختلسِ

ويتشكل الموشح من وحدتين أساسيتين هما القفل والغصن، تتكرران عدة مرات، وإذا أهمل الوشاح الوحدة الأولى (القفل) وبدا بالوحدة الثانية سمي الموشح بالأقرع، ويتكون الموشح النموذجي في العادة من ستة أقفال تحصر بينها خمسة أغصان لكن الوشاح غير ملزم بذلك إن شاء يزيد أو ينقص، واجتماع القفل والغصن التالي يسمى دورا، وبعضهم يسميه بيتا، وعلى هذا الأساس فالموشح يتشكل من خمسة أدوار أو أبيات وقفل ختامي يدعونه الخرجة [1].

نموذج تخطيطي لشكل موشحة:

.... القفل الأول

....

القفل الأول مع الغصن يسمى الدور أو البيت

....

.... غصن

....

.... قفل

....

.... غصن

....

....

.... القفل الأخير (الخرجة)

....

1-ينظر: إحسان عباس: تاريخ الأدب العربي، ص235.

يقول الحفيد بن زهر[1]:

أيُّها السّاقِي إليكَ المشْتَكَى قد دعوناكَ وإنْ لمْ تَسْمَعِ

وندِيمٍ هِمْتُ في غرَّتِـــهِ

وبشربِ الرّاحِ منْ راحَتِـهِ

كُلّما استيقظَ منْ سَكْرتِـهِ

جَذبَ الزقّ إليهِ واتكا وسَقانِي أربعًا في أربـــعِ

نماذج الخرجة:

يسمى القفل الأخير بالخرجة وهي أهم جزء في الموشحة ومقامها عند الوشاحين مقام المطلع في القصيدة عند الشعراء، يخصونها بعناية فائقة، ومن نماذجها:

-**الخرجة المعربة:** وهي التي تأتي بلغة عربية فصيحة مثل قول ابن بقي في الغزل[2]:

تجاوزَ الحَدّا قلبِي اشْتياقَا

وكَلَّفَ السَّهَدا مَنْ لوْ أَطاقَا

قلتُ وقدْ مَدّا لَيْلِي رُواقَا

ليلِي طويلْ ولا مُعِينْ يا قلبَ بعض الناسِ أمَا تلينْ (القفل الأخير-الخرجة)

-**الخرجة العامية:** وهي التي تأتي بلهجة عربية محلية: يقول الأعمى التطيلي[3]:

ألقاكَ منْ عَفَرٍ فلا أناجيكا إلاَّ اشْتِيَاقْ

واللهِ ما أدري قدِ الْتَوَى فيكاَ أمري وضَاقْ (الغصن الأخير)

أشدو وما عُذْري ألاَّ أُقاضيكاَ إلاَّ العِنَاقْ

يا ربّ ما أصبرِني نَرَى حْبِيبْ قَلبِي ونَعشْقُو

1-يوسف عيد: دفاتر أندلسية، ص370.

2-إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، ص238.

3-المرجع نفسه، ص239.

لوْ كانْ يكونْ سُنَّهْ فِيمَنْ لْقَى خِلُّو يْعَنْقُو (خرجة عامية)

-**الخرجة الأعجمية:** وهي التي تأتي بلغة رومانثية أعجمية ووشاح المشرق في ما بعد استعملوا في الخرجة لغات أخرى كالفارسية والتركية، مثل قول الوزير ابن المعلم[1]:

بَنْ يا سَحّارَة ven ya Sahhara

أَلْبَ قِشْتَ كن بِلْفِغُور Alba qu esta con bel vegore

كونْدُ بني بِدِي أمَور Cuando Vene bide Amore

وترجمته: تعالي يا سحارة... الفجر الذي هو جميل...حين يجئ يتطلب حبيبا.

أوزان الموشحات:

لم يلتزم الأندلسيون في الموشح قافية واحدة أو وزنا واحدا، لأنهم وجدوا أن إيجاد وزن يناسب النغم أسهل من إيجاد نغم يناسب الوزن، لذلك كان الموشح تابعا لما تقتضيه الأنغام، فتارة يوافق أوزان الشعر العربية التي ابتكرها الخليل، وتارة يخالفها، ومنها ما جاء على أوزان العرب ومنها ما لا وزن له، فقول ابن بسام أنها جاءت على غير أعاريض أشعار العرب معناه أنها على غير الأعاريض المألوفة أي على الأعاريض المهملة.

وقول ابن سناء الملك أنها ليست جارية على الأوزان التي تنظم فيها صنوف الشعر، فبعض أوزان الموشحات من الأوزان العربية، وبعضها نابٍ لا يمكن للأذن أن تستسيغه إلا عن طريق التلحين، وعلى هذا فأوزان الموشحات لا تخرج عن التفعيلات العربية، فإذا كانت في نطاق الكلام المعرب فهي ذات تفعيلات متناسقة، سواء استعمل الوشاح عددا واحدا من التفعيلات، أو أعدادا متباينة المقدار، فالإيقاع فيها عربي خالص، لكن بعض أوزانها مجزأة لم تجد خليلا أخر ليمنحها أسماءها، وظلت تستعمل دون أسماء برأي إحسان عباس[2].

1-المرجع السابق، ص240.

2-ينظر: المرجع نفسه، ص227.

موضوعات الموشحات:

إذا كانت الغاية الأساسية من الموشحات هي الغناء فكان لابد أن تتناسب موضوعاتها وهذه الغاية، فقد اهتم الوشاحون أول الأمر بالغزل والخمر والمجون ووصف الطبيعة، ودخل المديح في هذا الفن أيضا، لأن أفضل مجالس الغناء كان يعقد في قصور الملوك والأمراء، فاتخذت الموشحات سبيلا للحصول على عطايا الممدوح، ومن الأغراض التي عالجها فن الموشح التصوف الذي نجده عند كل من محي الدين بن عربي، وأبي الحسن الششتري، وهذه الموشحات تضمنت عبارات ومصطلحات صوفية وإشارات ورموز يكتنفها الغموض، كما يلحق الزهد شعر التصوف في الموشحات.

إن فن التوشيح لم يترك ميدانا من الميادين الشعرية المعروفة إلا عالجها، فكما هو معروف فقد أثرت طبيعة الأندلس على شعرائها ووشاحيها فتعلقوا بها ولم يتخلوا عنها في أشعارهم وقصائدهم، وكان لها الحظ الأوفر في الموشحات، ونادرا ما نقرأ موشحة من دون أن نرى فيها ذكرا للطبيعة بألوانها وأزهارها وعمرانها، يقول ابن بقي[1]:

يومنا يوم أنيـــــقُ يوم شرب والتـذاذِ
طرزت فيه البـروقُ لابسا أثـواب لاذِ
وسقى الغيم الرقيـقُ مـــاء ورد برذاذِ
أظهر السحر المبينا حين رشّ الياسمينا
وبكى من دون عين فضحكنا فاكـهينا

الخصائص الفنية:

كما سبق وأشرنا إلى أن الموشح نشأ تلبية لحاجة فنية تتعلق بالموسيقى والغناء، وخصوصا الغناء الشعبي، وما يقترب منه، والنظم لهذه الحالة لا يقتضي الجزالة في الألفاظ ولا القوة في

1-يوسف عيد: دفاتر أندلسية، ص378.

التراكيب ولا العمق في المعاني ولا البعد في الخيال، لذلك النظم الرقيق والمعنى اللطيف والألفاظ العذبة ذات الجرس الموسيقي والأداء المباشر والسهل الواضح، كل ذلك يسيطر على الموشح والموشح بصفة غالبة يميل إلى السهولة والعفوية والتلقائية.

يراوح الوشاح بين القوافي المطلقة والقوافي المقيدة في أجزاء الموشحة وأشطارها، وكثيرا ما يكون تقييد القافية فرصة للوشاح للتخلص من الحدود النحوية والقيود والإعرابية.

البحور الشعرية التي يلجأ إليها الوشاحون حين ينتقلون بالموشح من غير الشعري إلي الشعري، هي بحور قليلة مثل الرمل والهزج ومخلّع البسيط والخفيف والمنسرح، ويعتمد الموشح على التنويع في النغم، وهذا يتعلق بالمعرفة الموسيقية في تغيير الأوزان وتنويع القوافي، وهنا تبرز مقدرة الوشاح في صياغة العبارة وأداء المعنى الطريف الجديد أو المولّد من العتيق في شكل حسن ونغم بارع. وقد تبدو العلاقة غير وثيقة بين فقرة وأخرى داخل الموشحة الواحدة، إذ يكتفي الوشاح بالإطار العام للموشحة وفكرتها العامة[1].

نماذج من الموشحات:

يقول ابن زمرك في موشحة منها[2]:

والحبُّ ذو عدوانِ يجهدُ في ظلمِ البَرَى
وصارمُ الأجفانِ مؤيدٌ بالحـــــورِ
رُحماكَ في صبٍّ أذكرتَهُ عهْدَ الصِّبَا
بواعـــثُ الحبِّ قادتْ إليهِ الوصباَ
لم تهف بالقلبِ ريحُ الصَّبَا ألا هَبَا

يقول لسان الدين بن الخطيب في موشحة منها[3]:

1-ينظر: محمد رضوان الداية: في الأدب الأندلسي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط1، 2000، ص191،192.

2-يوسف عيد: دفاتر أندلسية، ص383.

3-رضوان الداية: في الأدب الأندلسي، ص197.

يا حادي الجِمَالْ عرّج على سلاَ قد هام بالجَمالِ قَلبِي وما سلاَ

عرج على الخليج والرَّملِ والحِمَى

في المنظرِ البهيجِ بالبِيض كالدِّمَى

والأبْطحِ النسيجِ مِنْ صَنْعةِ السَّمَا

للهِ من خِلال تختالُ في حُلى لم تُلْفِ في اعتدالْ عنهنَّ مُعْدِلاَ

وطُـفْ بالرباطِ بركنِ طائِفِ

بمنــزلِ اغْتِباطِ دارِ الخلائِف

مُقدَّسِ المواطِي جمّ المعارفِ

كمْ مِنْ سَنَا هِلالْ بأفْقِهِ انْجَلَى أنْحَى على الظَّلال فانْجابَ وانْجلَى

جَنَى النَّعيمِ دانٍ والبَحرُ والغَديرْ

أهِلّةُ الشَّوابِي في أفْقِه تَسيرْ

وقهوةُ الدِّنانِ يديرها مُديرْ

أغرُّ كالغزال مُقلَّد الطُّلاَ يَسْطُو ولا يُبالِي بالأُسْدِ في الفَلاَ

أَوْلَى إليكَ أولَى مِنْ ذكرِ مَعهدِ

أَكْثرتَ فيهِ قَوْلا في كلِّ مَشهدِ

خُذْ في امتداحِ مَوْلَى نَدْبٍ مُؤيدِ

ممجَّدِ الجلال مُشهَّرِ العُلا قد فاقَ في كمالِ وراقَ مُجتلَى

مُوافقُ الخليلِ في الاسْمِ والسّماتِ

ذي المنظرِ الجَميلِ الرّائقِ الصِّفاتِ

مُكرَّمِ الدَّخـــيلِ ومُجْزِل الهِباتِ

ومُحسب النَّوالِ لمن توسلا ورافع المعالي سُحْبًا مُضلَّلاَ

يا مَنْ عُلاهُ دَرَّتْ بِكلِّ نائــلِ

خُذْها إليكَ جرّتْ ذيلَ الخَمائلِ

وفي حُلاكَ أَزْرتْ بقولِ قائـــلِ

يا مَنْزلَ الغزالِ حُيِّيتَ منزلاً فما أُرَى بسالِ عَنْهُ وإنْ سَلاَ

الأزجال:

تعني كلمة الزجل في اللغة التطريب ورفع الصوت والترخيم، والزجل بالتحريك اللعب والجبلة ورفع الصوت، وخص به التطريب[1] وسمي هذا اللون من ألوان الأدب زجلا لرفع الصوت فيه وترجيعه به في الإنشاد، وهو ضرب من ضروب النظم يختلف عن القصيدة من حيث الإعراب والقافية، كما يختلف عن الموشح من حيث الإعراب، ولا يختلف عنه من جانب القافية إلا نادرا، وهو يعد موشحا ملحونا يكتب بلغة مهذبة غير معربة[2] وهو نوع كذلك من الشعر العامي. والأندلس بيئة الزجل الأولى كالموشح، وإن كان متأخرا عن الموشحات، فقد ذاع فن الزجل وتعددت لهجاته بتعدد الأماكن التي نشأ فيها واشتمل على أنواع من الشعر كالوصف والغزل، وكثيرا ما كان الزجل أصدق في التعبير عن النفوس من الشعر الفصيح لقربه من تعبير العامة، واشتماله على عباراتهم المألوفة وعدم احتياجه للتكلف في الصناعة واختيار اللفظ[3].

وأما الأسباب التي أدت إلى ظهوره فهي نفس الأسباب التي أدت إلى ظهور فن الموشح فهو كذلك ظهر في جو الغناء والموسيقى، إضافة إلى ذلك شيوع الموشح بين العامة والخاصة، وإقبال الناس عليه لسهولته وطواعيته للحن والحفظ، واختلاطه بعموم الناس بعدما كان مقتصرا على قصور ومجالس الأمراء. يقول ابن خلدون في مقدمته: "ولما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس، وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه، وترصيع أجزائه نسجت العامة من أهل الأمصار على

1-ابن منظور: لسان العرب، مادة (جزل).

2-ينظر محمد عباسة: الموشحات والأزجال الأندلسية وأثرها في شعر التراباادور، دار أم الكتاب للنشر، مستغانم، الجزائر، ط1، 2012، ص:105.

3-ينظر: يوسف عيد: دفاتر أندلسية، ص385.

منواله، ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيه إعرابا، واستحدثوه فنا سموه الزجل"[1].

نشأة الأزجال:

تذكر الكتب والأخبار الأندلسية أن أول من أبدع في هذه الطريقة الزجلية أبوبكر ابن قزمان(ت554هـ) ولم تظهر حلاها ولا انسكبت معانيها واشتهرت إلا في زمانه، وهو إمام الزجالين، إلا أن التساؤل عن مخترع الزجل يعده الدارسون من قبيل الجهد الضائع لأن الأغنية الشعبية تظل في العادة جهد جنود مجهولين، ولابد أنه مضى وقت غير قصير قبل أن ينتقل هذا اللون من الشعبية الخالصة إلى الفرد الزجال، ولذلك يرتبط بنشأة فن الزجل الكثير من الزجالين على غرار أخطل بن نمارة، وابن راشد، وكان لابن قزمان فضل الشهرة والتجويد، وعاصره محلف الأسود[2]، واتصلت الأزجال منذ نشأتها إلى آخر عهد ابن قزمان بالتوشيح والغناء، فلما جاء بعدهم مُدْغَلِّيس ظهر على يديه واقترن باسمه نوع جديد من الزجل وهو القصيدة الزجلية، وكان أهل الأندلس يقولون: إن ابن قزمان في الزجالين بمنزلة المتنبي في الشعراء ومُدغليس بمنزلة أبي تمام، بالنظر إلى الانطباع والصناعة، فإن ابن قزمان ملتفت إلى المعنى، ومُدغليس ملتفت إلى اللفظ[3].

ومن نماذج الزجل نورد هذه المقطوعة لابن قزمان التي يقول فيها[4]:

يا جَوْهرَ الجَـــلالْ يا فخرَ الأ ندَ لوسْ
طولْ ما نَكُنْ بجاهَكْ لِـسْ نشْتكي بُوسْ
صار الزمانْ صديقي أرادْ أو لو يريــدْ
وَرِيت أنا سُـــروري جديـدْ وَرَا جديـــدْ
وكلّ ليلةَ فرحَــةْ وكلّ ليلــةَ عيـــدْ

1-ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج1، ص:524.
2-محمد عبد المنعم خفاجي: الأدب الأندلسي التطور والتجديد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1992، ص:415.
3-محمد رضوان الداية: في الأدب الأندلسي، ص:206.
4-إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، ص: 262، 263.

وأجليتْ فيه آمـــالي وبتّ أنا عـــروسْ

وتتكون الوحدة في الزجل غالبا من قفل ذي أربعة أشطار دون قافية في الشطرين الأول والثاني، فقد نسج ابن قزمان نصه وجاء بقفل من أربعة أشطار مقفاة الشطر والعجز، ثم جاء بغصن بستة أشطار دون قافية في الاشطر الأولى، ثم جاء بقفل من شطرين فقط.

المحاضرة الثالثة عشر: الأدب الأندلسي.

لمحة تاريخية وجغرافية عن بلاد الأندلس:

أطلق اسم الأندلس على القطر الواقع شمال المغرب، واختلف المؤرخون في تسميتها فمنهم من قال أنها سميت على الأندلس بن طوبال بن يافث بن نوح الذي نزلها، كما نزل أخوه سبت العدوة المقابلة وإليه تنسب سبتة[1] ويذكر القلقشندي أنها سميت بالأندلس نسبة إلى قبائل الوندال Vandalos(الفندال) الذين نزلوا بالسهل الواقع جنوب النهر الكبير فأطلقوا اسمهم عليها(فاندلوسيا) Wandalos ولما قدم العرب عربوا هذا الاسم إلى الأندلس[2].

فتح العرب الأندلس في أواخر القرن الأول الهجري على يد طارق بن زياد وموسى بن نصيرسنة92هـ، وظلت ولاية تابعة للحكم الأموي في دمشق، ولما سقطت دولة بني أمية سنة132هـ وأسس العباسيون ملكهم في بغداد، وأخذوا يضطهدون الأمويين، فر الأمير عبد الرحمن بن معاوية الملقب بالداخل إلى الأندلس في سنة 138هـ، وقد أفلح في تجديد ملك بني أمية بالأندلس، لكنه لم يتسمّ هو أو خلفه بلقب أمير المؤمنين أو خليفة المسلمين، وإنما كان ذلك في عهد عبد الرحمن الثالث الأموي، وظلت الخلافة قائمة حتى سنة 422هـ، حين غُلب الأمويون على أمرهم، وانتشرت الفتن في البلاد، وضرب البربر قرطبة، ومن ثمَّ استقل كثير من الأمراء بمقاطعات صغيرة، ودعوا بملوك الطوائف: كبني عباد بإشبيلية، وبني الأفطس ببطليوس، وبني ذى النون بطليطلة، وبني هود بسرقسطة، وبني عامر ببلنسية، ومجاهد العامري بجزر البليار...

وفي ذلك الوقت قامت في المغرب ثورة تدعو إلى استقلاله عن الأندلس، وانفرد بالحكم فيه المرابطون. وقد حدث أن دعا ملوك إشبيلية المرابطين لنجدتهم في بعض حروبهم ضد الفرنجة، فأعانوهم، ثم تغلبوا على بقية الأندلس وظلوا يحكمونها أكثر من نصف قرن حيث ذهب ملكهم

1-ينظر: المقّري أحمد بن محمد: نفح الطيب من غصن أهل الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، دط، 1998، مج1، ص125.

2-ينظر: القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المطبعة الأميرية، القاهرة، مصر، دط، 1915، ج5، 211.

في بلاد المغرب على يد الموحدين الذين ورثوا عنهم الأندلس، وحكموها مدة قرن من الزمان سنة541هـ، وبعد سقوط هذه الدولة عادت الأندلس إلى التفرقة والانقسام، ثم أخذ ملك حكامها يتقلص تدريجياً إلى أن أجلى العرب عن غرناطة آخر حصونهم سنة 897هـ.

ويقسم الحكم العربي الإسلامي في الأندلس إلى الفترات الآتية[1]:

1-عصر الولاة (92- 138هـ).

2-الدولة الأموية المروانية (138- 422هـ) ويشمل:

-عصر الإمارة (138- 316هـ).

-عصر الخلافة (316- 422هـ).

3-عصر دول أو ملوك الطوائف (422- 484هـ).

4-عصر المرابطين: دخول يوسف بن تاشفين المرابطي الأندلس للمرة الثالثة سنة 484هـ بنية القضاء على دول الطوائف، وصارت الأندلس والمغرب موحدة.

5-عصر الموحدين: دخل جيش الموحدين الأندلس سنة 541هـ لإنهاء نفوذ المرابطين.

6-دولة غرناطة: (635- 897هـ) أو مملكة غرناطة، أو دولة بني نصر، أو بني الأحمر.

واسم الأندلس يطلق جغرافيا على القطر الواقع شمال عدوة المغرب، يقول الإدريسي:"إنها موقع قريب من بلاد المغرب، فهي تشكل امتدادا طبيعيا له، لذا تؤثر وتتأثر بما يجري فيه، وهي في ذاتها شكل مثلث يحيط به البحر من جهاتها الثلاث ومقسومة في وسطها في الطول بجبل يسمى الشارات"[2] وهذا القطر هو شبه جزيرة تقع في الجنوب الغربي من قارة أوربا تطوف بها المياه من كل جوانبها، عدا جانبا واحدا هو الشمال الشرقي حيث تحدها جبال البرانس، أو جبال البرتات،

1-ينظر: محمد رضوان الداية: في الأدب الأندلسي، ص:28.

2-محمد بن محمد الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط1، 1989، ج2، ص525.

أو الأبواب كما تسمى في النصوص العربية، وهذه الجبال فاصلة بينها وبين فرنسا، ويحدها غربا المحيط الأطلسي، ومن الشرق البحر المتوسط، ويفصل الأندلس عن المغرب مضيق عرف منذ الفتح الإسلامي ببحر الزُّقاق لضيقه والذي يبلغ في بعض جوانبه نحو عشرة أميال، ويعرف أيضا بمضيق جبل طارق، ولولا هذا المضيق للاصقت إفريقيا من الشمال وأوربا من الجنوب.

ويؤلف سطح شبه الجزيرة عناصر أهمها: الهضبة الكبرى التي تسمى مسيتا Meceta وهي تشغل حيزا هائلا من مساحة شبه الجزيرة، وتأتي بعد تلك الهضبة سلاسل جبلية توشك أن تطوقها وهي جبال سيرّا مورينا Sierra morena التي تعرف بالجبال السمراء وسماها العرب جبال الشارات، ثم تأتي جبال سيرا نيفادا Sierra Nevada وسماها العرب جبال الثلج، وبين السلسلتين الجبليتين سهول منبسطة حتى أقصى الجنوب.

وترتفع في أقصى شمال الهضبة الكبرى جبال القنطبرية Cantabrica وتلي هذه الجبال بعض الأقاليم السهلية الضيقة. وتجري في الأندلس أنهار عديدة، أهمها نهر الوادي الكبير الذي يسميه الأسبان حتى اليوم بهذا الاسم الذي أطلقه العرب لكن مع تحريف يسير فيقولون: جواد الكبير Guadalquivir وهذا الوادي يروي أكثر أراضي السهل الجنوبي، ويمر بمدينتي قرطبة واشبيلية وغيرهما، ويصب في المحيط الأطلسي، ووادي يانّة Guadaiana ويأتي بعده شمالا نهر التاجه El Tajo تقع عليه مدينة طليطلة، وطلبيرة، وشنترين، ويصب عند أشبونة في المحيط، وهناك انهار أخرى تصب شرقا في البحر المتوسط . كما يلاحظ على شبه جزيرة أيبريا اختلاف درجات الحرارة اختلافا كبيرا بحسب الأقاليم كاختلاف أحوال الطبيعة، وأنواع المزروعات والأشجار والمحاصيل الزراعية، والمناخ يقترب من أوربا في الأقاليم الشمالية، ويقترب من المغرب في الأقاليم الجنوبية، وقد فضل العرب منذ الفتح النزول في الأماكن الخصبة الدافئة[1].

1-ينظر: محمد رضوان الداية: في الأدب الأندلسي، ص18، 19،20، وأحمد هيكل: الأدب الأندلسي، ص17،18.

من صور الشعر الأندلسي:

يقول ابن زيدون متغزلا في ولادة بنت المستكفي[1]:

إني ذكرتك بالزهراء مشتـــــاقا والأفق طلق ووجـه الأرض قد راقا

وللنسيم اعتلال في أصـــــائله كأنما رقّ لي فاعتلّ إشفـــاقا

والروض عن مائه الفضي مبتسمٌ كما حللت عن اللبات أطـــواقا

يوم كأيام لذات لنا انصـــرمت بتنا لها -حين نام الدهر- ســراقا

نلهو بما يستميل العين من زهـرٍ جال الندى فيه حتى مال أعنـــاقا

كأن أعينه إذ عاينت أرقـــــى بكت لما بي فجال الدمع رقــراقا

ورد تألّق في ضاحي منابـــته فازداد منه الضحى في العين إشراقا

سرى ينافحه نيلوفر عبـــــق وسنان نبه منه الصبح إشــراقا

كل يهيج لنا ذكـرى تشوقـــــنا إليك لم يعد عنها الصدر أن ضـاقا

لو كان وفي المنى في جمعنا بكم لكان من أكرم الأيام أخـــــلاقا

لا أسـكن الله قلبا عـقّ ذكركـــم فلم يطر بجناح الشوق خـــــفاقا

لو شاء حملي نسيم الريح حين هفا وافاكم بفتى أضـــــناه ما لاقا

كان التجاري بمحض الود من زمن ميدان أنس جرينا فيه إطـــلاقا

فالآن أحمد ما كنا لعهـــــــدهم سلوتم وبقينا نحن عشـــــاقا

وتبدو عاطفة الحب في غزل ابن زيدون قوية صادقة، عندما يقول في صاحبته ولادة بنت المستكفي، وقد كانا في مجلس سمر ثم افترقا[2].

ودّعَ الصـــبرَ محبٌّ ودّعَكْ ذائعٌ من سرِّه ما استودعَكْ

يقرعُ السِّنَّ على إنْ لم يكنْ زاد في تلك الخُطا إذْ شيَّعكْ

1-محمد عبد المنعم خفاجي: الأدب الأندلسي، ص341.

2-نوار بوحلاسة: محاضرات في الأدب الأندلسي، منشورات جامعة قسنطينة، دط، 2008، ص:164 .

يا أخَا البدرِ سناءً وسنًى حفظَ اللهُ زمانا أطلـــعكْ

إنْ يَطُلْ بعدك ليلِي فَلَكَم بِتُّ أشكو قِصَرَ اللَّيلِ مَعكْ

ولابن زيدون النونية المعروفة والتي عارضها الكثير من الشعراء في المشرق والمغرب، وهي قصيدة تعد انعكاسا حقيقيا لتجربة حب عاشها الشاعر بكل جوارحه، يقول فيها[1]:

أضحى التَّنائي بديلاً منْ تدانيــناَ وناب عن طيبِ لُقيانا تَجافيناَ

ألا وقد حان صُبحُ البَيْنِ صبَّحَنـا حينٌ فقام لنا للحِينِ داعيــناَ

من مُبلغِ الملبِسِينَا بانتزاحِـــهِم حزناً مع الدهرِ لا يَبْلى ويُبلِيناَ

أنّ الزمانَ الذي مازال يُضحِكــنا أنسًا بقربِهم قد عادَ يُبكـــيناَ

غِيظَ العِدا منْ تَسَاقينا الهَوى فدعُوا بأنْ نَغَصَّ فقال الدهرُ: آميناَ

فانْحَلَّ ما كان معقودًا بأنفســـنا وانْبَتّ ما كان موصولا بأيدِيناَ

وقد نكونُ وما يُخْشَى تَفرُّقُـــــنا فاليومَ نحن وما يُرجى تلاقيناَ

لم نعتقدْ بعدكم إلاَّ الوفاءَ لـــكُم رأياً ولم نتقلدْ غيرَهُ دِيـــــنَا

كنَّا نرى اليأسَ تُسَلِّينا عَوارضُـهُ وقد يئسنا فما لليأسِ يُغرِيــنا

بِنْتُمْ وبنَّا فما ابْتلَّتْ جَوانحُـــــنا شوقاُ إليكم ولا جفَّتْ مآقيــنا

موضوعات الشعر الأندلسي:

لما طاب للعرب العيش في الأندلس بعد تمكن سلطان بني أمية، ونقلت دواوين المشرق أخذوا يعنون بالشعر وبأغراضه التي شملت كل فنون الحياة، فنظم الأندلسيون في كل ما نظم فيه شعراء المشرق: من مدح وهجاء وفخر وحماسة وفخر وتهنئة ورثاء ووصف وغزل وخمر، وزهد وتصوف، غير أنهم فاقوا المشارقة في بعض أغراضه ونقصوا عنهم في أغراض أخرى لأسباب اقتضتها طبيعة إقليمهم ونظام معيشتهم وطريقة تثقيفهم. ومن الأغراض التي فاقوا فيها المشارقة: الوصف ولا

1-ابن زيدون: ديوان ابن زيدون ورسائله، تحقيف علي عبد العظيم، نهضة مصر للطباعة، القاهرة، مصر، دط، دت، ص:142.

سيما وصف مناظر الطبيعة وجمال الكون، فوصفوا الرياض والبساتين والأشجار والثمار والأزهار والطيور ووصفوا السحاب والرعد والبرق وقوس قزح والبرك والأنهار والبحار ووصفوا أساطيل البحر لكثرة اتخاذها لحرب العدو وسير الجيوش ونشوب المعارك والقصور والتماثيل والفوارات ومجالس اللهو وآلات الطرب والسمر[1]. ومن الأغراض التي قصر فيها الأندلسيون عن المشارقة، ولم يجاروهم فيها: شعر الزهد والحكمة، وشعر الآراء الفلسفية، وذلك لضعف ثقافة الفلسفة وعلومها في إقليمهم ومحاربة آرائها هناك، ومن الموضوعات الجديدة التي نظموا فيها نذكر مايلي:

1-رثاء الممالك الزائلة:

فعندما تقلص ملكهم واستولى أعداؤهم على مدنهم وحصونهم، رثى الشعراء تلك المدن والحواضر التي باتت في أيدي الأعداء، فقد جاءت مجموعة من القصائد صدى لنكبات متتالية لحقت بالبلاد، وكان لسقوط طليطلة عام 478هـ نكبة كبيرة اهتز لها العالم الإسلامي، وكان نذيرا بتساقط مدنا أخرى، الشيء الذي ترك الشاعر ابن العسال الطليطلي يدق ناقوس الخطر في قوله[2]:

يأهلَ أندلسٍ حُثُّوا مطيَّـكُمُ فما المقام بها إلا من الغلطِ

الثوبُ ينسل من أطرافهِ وأرى ثوبَ الجزيرةِ منسولا من الوسطِ

ومن أشهر القصائد في رثاء الممالك الزائلة قصيدة أبي البقاء الرندي التي يبكي فيها على مدن الأندلس، ومما جاء فيها[3]:

لكلِّ شيءٍ إذا ما تمَّ نُقصـانُ فلا يغرَّ بطيبِ العيشِ إنسانُ

هي الأمورُ كما شاهدْتُها دولٌ من سرّه زمنٌ ساءتهُ أزمـانُ

وهذه الدّارُ لا تُبقِي على أحـدٍ ولا يدومُ على حالٍ لها شـأنُ

1-ينظر: محمد عبد المنعم خفاجي: الأدب الأندلسي، ص308.

2-يوسف عيد: دفاتر أندلسية، ص292.

3-محمد رضوان الداية: في الأدب الأندلسي، ص 360.

يمزق الدهر حتما كلّ سابـغةٍ إذا نبت مشرفيات وخـرصانُ
وينتضي كل سيف للفنــاء ولو كان ابن ذي يزن والغمد غمدانُ
أين الملوك ذو التيجان من يمنٍ وأين منهم أكاليل وتيـــجانُ
فاسأل بلنسية ما شأن مرسـية وأين شاطبة بل أين جـــيان
وأين قرطبة دار العلوم فكـــم من عالم قد سما له شـــأن
وأين حمص وما تحويه من نزه ونهرها العذب فياض ومـــلان

2-الاستغاثة والاستنجاد بالنبي صلى الله عليه وسلم وكبار الصالحين:

لقد شاع في الأندلس شعر الاستغاثة والاستنجاد، وترغيب ملوك الإسلام في إنقاذ البلاد من الأخطار التي تهددها من غارات الإسبان، ومن ذلك ما جاء في قصيدة ابن الأبّار التي يخاطب فيها ملك المغرب[1]:

أدركْ بخيلِك خـيلِ اللهِ أنـــدلساً إنّ السبـــيلَ إلى مَنْـجاتِها دَرَسَا
وهَبْ لها من عزيزِ النّصر ما الْتمَسَتْ فلم يزلْ منك عَزُّ النصرِ ملتمسا
وحاشِ ممّا تُعانيه حُشاشَتَـــــــها فطالَما ذاقتِ البَلوى صباحَ مـــساَ
يا للجزيرةِ أضحى أهلُـها جَـــزَراً للحادثات وأمسى جَدُّها تَعَـسَا
في كُلِّ شارِقَةٍ إلْمَـــامُ بَائِقـــــةٍ يَعُود مَأتَمُها عِندَ العِـدَى عُرُسـا

1-ابن الأبار: الديوان، أبو عبد الله محمد القضاعي البلنسي، تعليق عبد السلام الهراس، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، دط، 1999، ص408.

كُلِّ غَارِبَةٍ إِجْـــحـــافُ نائِبَـــةٍ تَثْنِي الأَمَانَ حِذاراً والسرُور أَسَى

تَقَاسَمَ الرومُ لا نَالَتْ مَقَاسِمُـــهُم إلا عَقَائِلَها المِحْـجوبَةَ الأُنُسَا

وَفِي بَلَنْسِـــــيةٍ مِنْــها وَقُرْطُبَــةٍ ما يَنْسِفُ النَّفْسَ أَو ما يَنزِفُ النَّفَسا

مَدائِنٌ حَلَّـها الإشْرَاكُ مُبْتَسِـماً جَذْلانَ وارتَحَلَ الإيمانُ مُبْتَئِسـا

يَا أَيُّها المِلِكُ المِنْـصُورُ أَنْتَ لَـهَا عَلَيَاءُ تُوسِعُ أَعْداءَ الهُدَى تَعَسـا

وقَدْ تَواتَرتِ الأَنْبَـاءُ أَنَّكَ مَــنْ يُحْيِي بِقَتْلِ مُلوك الصُّفْرِ أَنْدَلُسا

طَهِّرْ بِلادَك مِنْـهُم إِنَّهُـم نَجَسٌ وَلا طَهَارَةَ ما لَمْ تَغْسِلِ النَّجَسـا

3–نظم العلوم والفنون: وذلك لشدة عنايتهم بالعلوم، وحرصهم على استظهارها.

مميزات الشعر الأندلسي:

أما مميزات الشعر الأندلسي من ناحية اللفظ والأساليب، فإنه يلاحظ في فيه سهولة في الألفاظ وسلاسة في التراكيب، ومردّ ذلك أن السر في السلاسة والعذوبة هي بساطة طباعهم ولين أخلاقهم المتساوق مع الفطرة، إضافة إلى ذلك رقة الطبيعة الأندلسية وجمالها الفاتن وأفقها العاطر الشفاف، وإرسال القول دون تكلف ولا تصنع، ودون تحميل الألفاظ ما لا تطيق من المعاني المزدحمة ، فجاء أكثره جاريا مع الطبع، ولم يبالغوا في الأخذ بفنون البديع من تورية وجناس وطباق وغيرها، وما كان منه في عبارات شعرهم فجميل مقبول، لأنهم كانوا يأخذون من الأنواع البديعية ما تجود به القريحة من غير إجهاد خاطر[1].

وأما معاني الشعر الأندلسي فهي واضحة جلية بعيدة عن تعمق الفلاسفة وتدقيق الحكماء لقلة المشتغلين منهم بالحكمة وبغض العامة لها، كما غلب على شعرهم الخيال البديع الذي نماه في

1–ينظر: محمد عبد المنعم خفاجي: الأدب الأندلسي، ص309، 310.

ملكات الشعراء ضروب الجمال المنتشرة في شبه جزيرتهم، وساعدهم ذلك على جودة التشبيه والإكثار من استعمال المجاز والكنايات في شعرهم، فقد كانت الأندلس مسرح الخيال بما حباها الله من طبيعة خلابة غامرة بفنون السحر والجمال، لذا أتى شعراؤهم بالعجب من التشبيهات البديعية والتوليدات العجيبة والأخيلة الرائعة، ومن روائع التشبيهات قول ابن خفاجة الأندلسي[1]:

ومفازة لا نجم في ظلمائـــها يسري ولا فلك بـها دوار
تتلهب الشعر بها وكـــأنها في كف زنجي الدجى دينـــار
لقد لفني فيها الظلام وطاف بي ذئب يلم مع الدجى زوار
والليل يقصر خطوه ولربـــما طالت ليالي الركب وهي قصار
وقد شاب من طرف المجرة مفرق فيه ومن خط الهـلال عـــذار

شعر الطبيعة:

من بين الموضوعات التي جدد فيها الأندلسيون، وأبدعوا فيها شعر الطبيعة، ولقد منح الله أرض الأندلس طبيعة فاتنة ،فكانت أغنى بقاع المسلمين منظراً وأوفرها جمالا، ترتفع فيها الجبال الخضراء وتمتد في بطاحها السهول الواسعة وتجري فيها الجداول والأنهار وتغرد على أفنان أشجارها العنادل والأطيار، وتنساب الماشية والأنعام في مراعيها الجميلة، ويعطر النسيم جوها المعتدل وبساتينها المشرقة، فتعلق بها الأندلسيون جميعا، وأقبلوا يسرحون النظر في خمائلها، ويستمتعون بمفاتنها، وأخذ الشعراء ينظمون دررا في وصف رياضها ومباهج جناتها، بعدما فتحت في نفوسهم قول الشعر، وأصبحوا يرون فيها جنة الخلد كما قال ابن خفاجة[2]:

يا أهلَ أندلـــسٍ لله دركـمُ ماءٌ وظلٌ وأنهارٌ وأشـــجارُ
ما جنّةُ الخلـــدِ إلا في دياركـمُ ولو تخيرتُ هذا كنتُ أختارُ
لا تختشُوا بعد ذا أن تدخلوا سَقرًا فليس تدخلُ بعد الجنّةِ النارُ

1-يوسف عيد: دفاتر أندلسية، ص285.

2-ابن خفاجة: الديوان، شرح وضبط عمر فاروق الطباع، دار القلم للطباعة، بيروت، لبنان، دط، دت، ص113.

ويقول ابن سهل الاشبيلي[1]:

الأرض قد لبست رداء أخضرا والطل ينثر في رباها جوهـــــرا
هاجت فخلت الزهر كافرا بـها وحسبت فيها الترب مسكا أذفرا
وكأن سوسـنها يصـافح وردها ثغر يقبـل منـه خـتدا أحمـــــرا
والنهر ما بين الريــاض تخــاله سيفا تعـلّق في نجــادٍ أخضـــــرا
وجرت بصفحته الصبا فحسبتها كفًّا تنمّق في الصــحيفة أسـطرا
وكأنه إذ لاح ناصع فضـــةٍ جعلته كف الشمس تبرا أصـفـــرا

وفي شعر ابن خفاجة(ت533هـ) إحساس خاص بالطبيعة الأندلسية في مختلف وجوه سحرها وجمالها، ففي شعره رائحة الأزاهير، وتغمره الألوان، ويتخلله فضاء من الخضرة والأشجار والروض والغدير، وكثيرا ما عطر النرجس والأقحوان والطيب جو الغزل والوصف في شعره. ومن أشهره في الطبيعة يقول: [2]

وجنيت روضا في قناعك أزهرا وقضيب بان في وشاحك أثمرا
ثم انثنيت وقد لبست مصندلا وطويت من خلع الظلام معنبرا
والصبح محطوط النقاب قد احتبى في شملةٍ ورسيَّةٍ فتـــــأزرا

ويقول في قصيدة أخرى يصف حديقة[3]:

والنّورُ عِــقدٌ والغصـونُ سوالــفٌ والجذعُ زَنَدٌ والخليجُ سوارُ
بحديقــة مثل اللّمى ظلاّ بـــــها وتطلَّعت شنبا بها الأنوارُ
رقص القضيبُ بها وقد شرب الثرى وشدا الحمامُ وصفّق التيّارُ
غنّاء ألحَفَ عِطفَها الورقُ النــديُّ والتفَّ في جنباتها النّوارُ
فتطلَّعتْ في كل موقع لحـظــةٍ من كلّ غصنٍ صفحةٌ وعذارُ

1-إبراهيم بن سهل: الديوان،، المطبعة الأدبية، بيروت، لبنان، دط، 1985 ص17.
2-يوسف عيد: دفاتر أندلسية، ص673.
3-المرجع نفسه، ص844.

المحاضرة الرابع عشر: نصوص من الشعر الجزائري القديم(بكر بن حماد التيهرتي).

الفتح الإسلامي للمغرب:

تعود محاولات الفتح الأولى إلى عهد الخليفة عمر بن الخطاب-رضي الله عنه- حين دخل المسلمون مصر فكان من الطبيعي أن يتطلع الوالي عمرو بن العاص إلى فتح افريقية بعد أن أتم فتح مصر سنة 20هـ ثم فكر عمرو بن العاص في متابعة الفتح لشمال افريقية فاستأذن الخليفة، فنهاه عن ذلك وامتثل الأمر وبقي واليا على مصر حتى مات عمر، وخلفه عثمان بن عفان-رضي الله عنه-[1] وبعد فتح مصر وطرابلس أخذ الخليفة عثمان في إتمام ما بدأه سلفه، فأمر عامله عبد الله بن سعد بن أبي سرح بمواصلة الفتح سنة25هـ. غير أن ما جدّ من حوادث في مركز الخلافة الإسلامية قد حال بين المسلمين وبين الاحتفاظ بما تم فتحه أو مواصلة الفتح، فقد عصفت بذلك الفتنة التي أحاطت بعثمان بن عفان، وتوقفت بسببها الفتوحات الإسلامية واستمر ذلك التوقف خلال فترة الخلاف بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان. ولما آلت الخلافة لمعاوية استخدم معاوية بن حديج الكندي على ولاية مصر سنة 45هـ[2] .

وحينما باشر ابن حديج مهامه بشأن الفتوحات وبلغ افريقية، واجه ثورة البربر الساخطين على العرب، وتمكن جيش ابن حديج من إخماد ثورة البربر، ودك حصون الروم وفتح حصن جلولاء، والانتصار على جيش البيزنطيين[3].

وما لبث معاوية بن أبي سفيان في سنة 50هـ أن عزل ابن حديج عن افريقية وعيَّن مكانه عقبة بن نافع الفهري، ولما وصل إفريقية علم أن كثيرا من أهل البربر ارتدوا ، فساءه ذلك وشمّر على

1-محمد بن عمرو الطمار: تلمسان عبر العصور، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1984، ص13.

2-ينظر: ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج .س . كولان و إ .ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان ، ط3 ،1983، ج 1، ص 16،17.

3-ينظر: المصدر نفسه : ص 16

ساعد الجد لإرجاعهم إلى الحق، وحملهم على الاهتداء برسالة الإسلام[1] فظهرت عبقرية عقبة بن نافع في أثناء حملاته على بلاد المغرب جلية في آرائه السديدة عندما رأى أن فتح تلك البلاد ينبغي أن يتم في إطار خطة تقوم على تأسيس قاعدة ثابتة يستقر فيها المسلمون، ثم يتابعون منها الفتح، وبعد مشاورة أهل الرأي وقع اختياره على مكان لهذه القاعدة سماها القيروان، وشرع في بنائها بعد قضائه على مقاومة البربر والروم سنة50هـ، واشتغل عقبة بن نافع بتأسيس القيروان أربع سنوات أو تزيد قليلا[2] . فتأسيس مدينة القيروان كان لهدف ديني ولهدف عسكري وحربي[3] وهذا ما يدل على نبل مقصد عقبة بن نافع في هذا السعي المحمود الذي كان يأمل بأن تكون القيروان مركزا علميا عامرا بالعلماء والفقهاء.

ولما توفي معاوية بن أبي سفيان سنة60هـ، أفضت الخلافة إلى ابنه يزيد فاستعمل عقبة ثانية على إفريقية. سار باتجاه المغرب الأوسط مندفعا بقواته يحرز النصر تلو الآخر حتى وصل إلى المغرب الأقصى بعد أن خاض معارك ضارية في باغاية، ولميس، والزاب، وتاهرت، ويرى بعض الدارسين أن عقبة لم يبدأ من حيث انتهى سلفه أبو المهاجر دينار في التقرب من البربر وملوكهم، وبذلك فقد عنصرا هاما من عناصر النجاح حيث أعطى تشدده مع البربر-وخاصة مع زعيمهم كسيلة- فرصة للروم البيزنطيين ليجددوا ما كان بينهم وبين البربر من تحالف ليصبحوا جبهة واحدة ضد المسلمين[4] .

وبعد أن تمت لعقبة هذه الانتصارات في بلاد المغرب أقام فيها ميزان العدل، وأذاق الأهالي الذين أنقذهم من سلطة الروم طعم الحرية، وأطلق ألسنتهم المعقدة بذكر الله وطهرها من الأوثان، فواصل السير إلى طبنة بالمغرب الأوسط وهي على ثماني مراحل من القيروان، وعندها توقف، وأمر

1-ينظر: عبد العزيز الثعالبي: تاريخ شمال إفريقية منذ الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية، جمع وتحقيق أحمد بن ميلاد ومحمد إدريس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1990، ص 43.

2-محمد عيسى الحريري: الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي، دار القلم، الكويت، ط3، 1987، ص 27.

3-محمد محمد زيتون: القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، دار المنار، القاهرة، مصر، ط1، 1988، ص 72.

4-محمد عيسى الحريري: الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي، ص30 .

الجنود أن يتقدموه إلى القيروان فوجا بعد فوج، وواعدهم بأن يلتحق بهم وهو مطمئن لولاء أهل المغرب له، وكان عقبة قد اصطحب معه كسيلة في حملته إلى المغرب ليستعين به فأضمر كسيلة الغدر[1] . وفي الطريق تيسر لكسيلة الفرار وتربص لعقبة بمكان قرب بسكرة يقال له تهودة، أين التحم القتال بين المسلمين والبربر، وقُتل عقبة بن نافع، وأبو المهاجر ومن كان معهما ولم يفلت إلا القليل وكان هذا سنة 64هـ[2].

كان لنبأ استشهاد عقبة وقع أليم في نفوس المسلمين، وفي خضم هذه الأحداث العصيبة رأى زهير بن قيس البلوي قائد القيروان أن كسيلة لن يلبث أن يهاجمه وأنه لن يستطيع له دفعا فانسحب ومن معه إلى جنوب طرابلس. وفي السنة التي استشهد فيها عقبة مات الخليفة يزيد بن معاوية وصار الأمر إلى مروان بن الحكم لمدة وجيزة، ثم آل الحكم إلى الخليفة عبد الملك بن مروان الذي تربع على العرش سنة 65هـ فصمم أن يأخذ بثأره من كسيلة، وأن يستعيد إفريقية، فأمر زهير ابن قيس البلوي الذي كان يراقب الأحداث من برقة بالتوجه إلى إفريقية، فزحف زهير للثأر بدم عقبة سنة 67هـ.

جمع كسيلة سائر البربر، واشتد القتال بين الفريقين وانهزم البربر وقُتل كُسيلة وعدد كبير منهم، وفي هذه المعركة خضع البربر وفنيت فرسانهم ورجالهم وخضدت شوكتهم واضمحل أمر الفرنجة[3] وظن زهير أن الخطر قد زال، وأن الأمن قد استتب فزهد في الإمارة وارتحل من القيروان مشرقا فاستشهد ببرقة مقاتلا للروم[4] وما إن بلغت الأنباء أسماع الخليفة عبد الملك بن مروان بمقتل

1- ينظر: محمد عمرو الطمار: تلمسان عبر العصور، ص 16.

2-عبد العزيز الثعالبي: تاريخ شمال إفريقيا من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية، ص 54 .

3-ينظر: أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم الرقيق: قطعة من تاريخ افريقية والمغرب، تحقيق عبد الله العلي الزيدان وعز الدين عمر موسى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1،1990، ص20. وعبد العزيز الثعالبي: تاريخ شمال إفريقيا، ص57،58.

4-مبارك بن محمد الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح محمد الميلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1976، ص 30 .

زهير بن قيس البلوي حتى جد في تجهيز جيش كبير قوامه أربعين ألف مقاتل ووضعه تحت قيادة حسان بن النعمان الغساني وسيّره إلى إفريقية، فدخل القيروان وغزا قرطاجنة وافتتحها عنوة[1] .

ثم بلغه أن امرأة تدعى الكاهنة تكنّ العداء للمسلمين، وقد بسطت نفوذها بناحية الأوراس بالمغرب الأوسط، يطيعها البربر ولا يخالفون أمرها، فهمَّ حسان بن النعمان إلى لقائها، واتجه إلى المكان الذي تجمعت فيه جيوشها قرب نهر مسكيانة، وعند احتدام القتال، فانهزم حسان ومن معه من المسلمين، وقتلت الكاهنة كثيرا من العرب وأسرت ثمانين رجلا[2] ولما علم عبد الملك بخبر الهزيمة فكر في الأمر، واستشار فيمن يخرجه إلى إفريقية فلم يجد بديلا عن حسان، فوجه إليه عسكرا عظيما ومالا وسلاحا وأمره بإعادة الكرة ثانية، فزحف إليها وأفلح في التخلص منها سنة 84هـ، وبموتها أذعن البربر، وعمل حسان على نشر العلم والمعرفة وأشرك البربر في الحكم، وعقد لأكبر ابني الكاهنة على جبل أوراس، وجنّد من البربر الآلاف ممن أجابوا دعوته وأسلموا على يديه، وانصرف حسان إلى القيروان ودانت له إفريقية، فدون الدواوين ونظم الخراج، وقد استقامت له البلاد فلا يغزو أحدا ولا ينازعه أحد[3] .

ويمكن القول: إنه على يد القائد حسان بن النعمان تم الفتح الإسلامي لديار المغرب عسكريا وسياسيا ودينيا، ولما أكمل المهمة تم عزله وارتحل إلى المشرق، لم يستقر الوضع بالمغرب قليلا حتى اضطرب حبل الأمن وكثرت الفتن، وكادت جهود القائد السابق تذهب هباء لولا أن تداركها الله بمجيء موسى بن نصير[4] الذي تقلد الولاية في أوائل خلافة الوليد بن عبد الله سنة 88هـ، فعمل أيضا على نشر العلم وأشرك البربر في الحكم والجيش، وطلب من الفقهاء نشر التعليم وشرح مبادئ الإسلام، ثم قام بفتح المغرب الأقصى حتى شواطئ المحيط، فكان الانعطاف التاريخي

1-ينظر: ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب، ج1، ص 16. وعبد الرحمن بن محمد الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، دار مكتبة الحياة ، بيروت، لبنان، ط2، 1965، ج1، ص179، 183.

2- المصدر نفسه، ج1، ص25.

3- ينظر: أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم الرقيق: قطعة من تاريخ إفريقية والمغرب، ص 34.

4- ينظر: مبارك محمد الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ص 34.

الذي تغير به المجتمع اجتماعيا وثقافيا وسياسيا ودينيا، وأصبحت بلاد المغرب جزءا لا يتجزأ من دولة الإسلام.

وكان من نتائج الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، تطور المجتمع المغربي وتغير عاداته وتقاليده بعد اندماج أهله بالوافدين، وبدأت حركة الاستعراب وانتشار اللغة العربية لغة شعائر الدين الجديد، وانتشر الإسلام بين البربر بعد توطيد العلاقات، وكان لإرسال الخلافة في المشرق بعثات الفقهاء والعلماء مساهمة كبيرة في نشر روح الإسلام ومبادئه السمحة التي أحدثت تطورا في حياة الناس، فقد أحدث الفتح تغييرا شاملا في المجتمع المغربي، فأسلمت المنطقة وانتشرت العربية واندمجت عقليات البربر والعرب، وظهر فيهم فقهاء وشعراء وخطباء.

الحياة الأدبية والثقافية في المغرب الأوسط غداة الفتح الإسلامي:

كانت بلاد المغرب الأوسط غداة الفتح ضئيلة الحظ من الناحية الثقافية والأدبية، فقد اجتهد الفاتحون في تلقين أهل البلاد أصول الدين كخطوة أولى في إرساء مبادئ الدين، وما إن حل القرن الثاني الهجري حتى نبغ الكثير من أهل المغرب في العربية وأتقنوها حديثا وكتابة، وكانت عنايتهم منصبة على علوم الشرع، وعلوم اللغة والنحو، فعكفوا على دراستها حتى تفوقوا فيها، ووجدوا في العربية مرتعا خصبا للتعبير عن خلجات نفوسهم، والتأليف في الفقه، وتطور كل ذلك مع مرور السنين، ويمكن القول: إن انتشار العربية في الجزائر وشيوعها بين السكان كان في أواخر النصف الأول من القرن الثاني للهجرة، وذلك حين تأسست الدولة الرستمية التي آثرت لغة الدين الإسلامي والقرآن لسانا لها لاتفاق الجزائريين يومئذ عليها، ويذكر عبد الملك مرتاض بعض العوامل التي أدت إلى انتشار العربية أهمها: هجرة بعض الفرق الإسلامية إلى بلاد المغرب، وتأسيس الدولة الرستمية بالجزائر، والرحلات العلمية إلى المشرق، ولعل أهم رحلة احتفظ بها التاريخ هي رحلة بكر بن حماد الذي باكر إلى النهوض بهذه الرحلة وهو في سن السابعة عشر ربيعا، فذهب إلى بغداد مرورا بالقيروان، فجالس أدباء بغداد ومفكريها وفقهائها ومحدثيها، وفرض نفسه على النوادي

الأدبية هناك، وهجا دعبل الخزاعي(ت220هـ) في زمن الخليفة العباسي المعتصم[1] وبعد ذلك ظهرت أجيال جديدة نشأت نشأة عربية، وتعلمت تعليما عربيا كاملا، فتفتقت القرائح والأذهان وبدأ يظهر الشعراء والكتاب[2] ولا شك أن اهتمام أهل المغرب بالعلوم الشرعية واللغوية قد هيأ لهم الفرصة للاتصال بالشعر العربي القديم؛ لأن الشواهد الشعرية في هذا المجال كانت تؤخذ من الشعر الجاهلي خاصة أو من الشعر الإسلامي والأموي، فنقل المغاربة من هذه النماذج ضمن ما تلقوه من دروس اللغة والنحو والفقه لما بين هذه العلوم والشعر القديم من وشائج، ولأجل هذا انكبّ أهل المغرب على التراث الشعري القديم دراسة ونقلا حتى تفتحت مواهبهم وجرى الشعر على ألسنتهم، فعالجوا الشعر في أغراضه التقليدية المعروفة من مدح وهجاء ورثاء ووصف وغزل وزهد[3].

ارتبطت الحياة الفكرية في الدولة الرستمية ارتباطا كبيرا بالمذهب الإباضي، وإذا كان الإباضي الأول مسلمة بن سعيد قد تمكن من اختيار أربعة من معتنقي أفكاره الإباضية، وأطلق عليهم اسم حملة العلم، إلى وفدت إلى البصرة على شكل بعثة علمية لتتلقى العلم وتأخذ أصول المذهب وفروعه من مصادره المشرقية الأصلية، وحين عادت هذه الجماعة إلى المغرب بدأت في نشر ثقافة المذهب بواسطة حلقات، كانت تعقد في عدة أماكن من ربوع المغرب، وهذه الحلقات كانت تهتم بتدريس علم الأصول والفروع، والسير والتوحيد، والشريعة وآراء الفرق، وعلوم اللغة والرياضيات[4] فكانت هذه الحلقات كالمدارس تلقّن طلبتها العلوم النقلية والعقلية كما كانت مركزا لتعليم الناس، وأثّرت هذه الحلقات في سكان بلاد المغرب الأوسط، وخلقت منبرا للتنافس بين أتباع المذهب الإباضي وبين الفرق والمذاهب الأخرى كالسنة المالكية والمعتزلة والشيعة التي

1-ينظر: عبد الملك مرتاض: الأدب الجزائري القديم دراسة في الجذور، دار هومة، الجزائر، دط، 2003، ص31.
2-عبد الله شريط: تاريخ الثقافة والأدب في المشرق والمغرب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط3، 1983، ص127.
3-ينظر: محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 2016، ص59.
4-ينظر: محمد عيسى الحريري: الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي، ص235، 236.

كانت هي الأخرى تحاول نشر أفكارها[1]. وقد أفسح الرستميون المجال لهذه الفرق والمذاهب لعقد المناظرات وجلسات الجدل الطويلة، وغالبا ما كان أئمة الإباضية طرفا في هذه اللقاءات، وتذكر المصادر تلك المناظرة التي امتدت فترة طويلة، وكان الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الإمام الثاني طرفا في إحدى مساجلاتها.

تعدّ تاهرت عاصمة الرستميين الحاضرة الأبرز في عصرهم، كان تأسيسها بالمكان الذي نزل به عبد الرحمن بن رستم في سفح جبل قزول وهو مكان طيب الهواء غزير المياه كثير الأشجار ذات الثمار المتنوعة، تجري من تحتها العيون المتدفقة، الشيء الذي ساعد على بناء مدينة جديدة عامرة بأسواقها ومساجدها ودورها[2] يصفها البكري في مسالكه فيقول: "ومدينة تاهرت مسورة لها أربعة أبواب، باب الصفا وباب المنازل وباب الأندلس وباب المطاحن، وهي على نهر يأتيها من جهة القبلة يسمى نهر مينة... وهي شديدة البرد كثيرة الغيوم والثلج"[3] هذا النهر الذي هو من روافد وادي الشلف العريق، استفادت منه المدينة بإجراء المياه فيها وإحاطتها بالبساتين الفيحاء والرياض الغناء، خاصة على ضفتي النهر الذي يمر على جنوبها، ولشدة برودة جوها وصفها الشاعر بكر بن حماد في قوله[4] :

مَا أخْشَن البَرْدَ وَرَيعَانــَهُ وأطرَفَ الشَّمسَ بتيهرتِ
تَبدُو مِنَ الغَيمِ إذَا مَا بَدَتْ كأنَّهَا تُنْشَر مِن تَخْــتِ

تذكر المصادر أن رجلا من أهل تيهرت نظر إلى توقّد الشمس بالحجاز فقال: أحرقي ما شئت فو الله إنك بتاهرت لذليلة[5] ولجمال المدينة وتوفر أسباب الراحة بها قصدها الناس من كل

1-ينظر: المرجع السابق: ص 236.

2-ينظر: محمد بن رمضان شاوش: الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد، ص21،22.

3-أبو عبيد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري :المسالك والممالك ،ج2، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، ط1، 2003، ص248.

4-محمد بن رمضان شاوش: الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد، ص 61.

5-ينظر: أبو عبيد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري: المسالك والممالك، ج2، ص 249.

حدب وصوب، وازدهرت في كل الميادين، وبذل الرستميون جهودا كبيرة في تشجيع الحياة الفكرية والثقافية، فكانت تاهرت ونواحيها مهدا لفرق عديدة ومذاهب مختلفة كالمذهب الإباضي الذي هو المذهب الرسمي الدولة، ومذهب الصفرية ومذهب الواصلية المعتزلة، وكانت تجري بينهم المجادلات والمناظرات بحرية وتسامح كبيرين، ولكل فرقة مسجدها وحلقاتها وعلماؤها، ويعتبر هذا الاحتكاك الحضاري عاملا مهما في تلقيح الأفكار وخدمة للغة والآداب، وفي نفس هذا الوقت كانت حاضرة القيروان تشهد حركة علمية نشيطة وظهر بها عدد من العلماء والمفكرين والأدباء، فكان من الطبيعي أن يتم الارتباط بينهما، والتأثر والتأثير المتبادل، ورحلة العلماء والتجار والحجاج لا تنقطع، مما ساعد ذلك على التزاوج الحضاري، فتاهرت كانت بمثابة العاصمة العالمية للخوارج يقصدونها من كل جهة، وغدت بذلك مركزا ثقافيا يضاهي المراكز الأخرى. ازدهرت دولة بني رستم ثقافيا حتى أصبحت تيهرت عاصمة للمذهب الخارجي، يقصدها الخوارج من جميع الأرجاء، وغدت بذلك مركزا ثقافيا يضاهي بغداد وقرطبة، فعرف أهل المغرب الأوسط الثقافة ونبغوا فيها خصوصا الثقافة الدينية[1] . كان الأئمة الرستميون علماء دين ورؤساء مذهب، يتطلب منهم ذلك أن تكون لهم ثقافة واسعة، وبذلك انتشر التعليم، وقامت المساجد بدورها الحضاري بإلقاء الدروس في التفسير والحديث والفقه والكلام والآداب ومختلف العلوم، الشيء الذي أسهم في حفظ الثقافة الإسلامية وعمل على توجيه الناشئة، ولا غرابة أن يكون عبد الرحمن بن رستم مفسرا لكتاب الله، وله في ميدان التأليف، ومن بعده ابنه عبد الوهاب له أثر بارز في العلوم الدينية، ونبغ كذلك أفلح بن عبد الوهاب في الأدب، وكانت المدينة بها مكتبة كبيرة تسمى المعصومة فيها الآلاف من المجلدات[2] .

وقد كان بالمغرب الأوسط في ذلك الوقت علماء وأدباء زانوا عصرهم، وسموا به بين الحواضر ومن هؤلاء نذكر أبي الفضل أحمد التاهرتي، وسعيد بن واشكل التاهرتي، وبكر بن حماد الشاعر المطبوع الذي نتناول بعض النماذج من شعره . وكان من العلماء والأدباء الذين انتقلوا من تاهرت إلى

1-محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري، ص 73.

2-ينظر: المرجع نفسه: ص 73.

القيروان ثم إلى البصرة، والتقى هناك بكبار الأدباء والشعراء واستطاع أن يثبت وجوده في بلاط العباسيين في عهد الخليفة العباسي المعتصم، ومدحه، وعاد إلى القيروان حاملا معه هذه المؤثرات الثقافية المشرقية، وكانت ثقافة القراءة والكتابة منتشرة في نفوس المجتمع بصفة عامة حكاما ومحكومين، وللولاة عناية كبيرة بجمع الكتب النادرة وجلبها من أماكن بعيدة كما فعل ذلك الإمام الثاني عبد الوهاب، الذي كان تواقا للعلم محبا له حيث تروي المصادر أنه: "أرسل ألف دينار إلى إخوانه بالمشرق بالبصرة ليشتروا بها الكتب، فلما وصلهم المبلغ اشتروا بها رقّا، فنسخوا له فيها حمل أربعين جملا كتبا، فلما بلغته تشمَّر وجَدَّ لقراءتها"[1].

من شعر بكر بن حماد التاهرتي:

الشاعر هو أبو عبد الرحمن بكر بن حماد بن سهل(قيل بن سهر) بن إسماعيل الزناتي أصلا التاهرتي نشأة ودارا ووفاة، ولد حوالي سنة 200هـ وتلقى بها دروسه الأولى على يد مشاهير علمائها وفقهائها وكبار محدثيها، في سنة 217هـ هاجر إلى القيروان وتزود بديارها علما وأدبا، ومنها رحل إلى المشرق للغرض نفسه، ومر على مصر وأقام ببغداد واتصل بخليفتها العباسي المعتصم ومدحه، واحتك بشعرائها، عاد إلى القيروان سنة 274هـ وتصدر بها التدريس، وظل يتردد بين القيروان وتاهرت، وقد مدح الأمراء والخلفاء في المشرق والمغرب وأغدقوا عليه الصلات حتى سنة 295هـ أين خرج من القيروان بسبب وشاية منافسيه لدى أمير بني الأغلب، فرجع إلى تاهرت وفي الطريق اعترض سبيله اللصوص وقتلوا ابنه عبد الرحمن وجرح هو جراحا أودت به بعد ذلك سنة 296هـ بمسقط رأسه. ترك مجموعة شعرية جمعها الأستاذ محمد بن رمضان شاوش في كتاب بعنوان الدر الوقاد في شعر بكر بن حماد، في هذه القصائد مدح الإمام علي-كرم الله وجهه- وهجا عمران

1-بحاز إبراهيم بكير: الدولة الرستمية، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، ط2، 1993، ص237.

بن حطان، وعبد الرحمن بن ملجم، ودعبل الخزاعي، ورثا ابنه الفقيد رثاء حارا[1]. له قصيدة يمدح فيها أحمد بن القاسم بن إدريس يقول فيها[2]:

إنَّ السماحةَ والمروءَة و النَّدى جُمِعُوا لأحْمَدَ مِنْ بَنيّ القاسمِ

وإذا تفاخَرَتِ القبائلُ وانْتَمتْ فافْخَرْ بِفضْلِ مُحمّدٍ و بِفاطِم

وبجعفر الطيَّارِ في دَرَجِ العُلا وعَليٍّ العَضْبِ الحُسامِ الصَّارِم

إنِّي لمشتاقٌ إليك وإنَّما يَسْمُو العُقابُ إذَا سَمَا بِقوادِم

فابْعثْ إليَّ بمَرْكبٍ أسْمُو بِهِ عليَّ أكُونُ عَليكَ أوَّل قَادِم

وأعْلمْ بأنَّك لَنْ تنالَ مَحبَّةً إلاَّ ببعضِ ملابسٍ ودراهِمِ

يثني بكر بن حماد في هذه المقطوعة على جود وسخاء الممدوح، ويشير إلى منزلته وكرم نسبه، وهذا إعلاء لشأنه وطمعا في العطاء الجزل، وهذا ما ظهر واضحا في البيت الأخير، كما يستثمر الموروث الديني والتاريخي بما يحقق غايته، فيجعل ممدوحه الذي هو من أسرة الأدارسة التي ينتهي نسبها إلى علي بن أبي طالب وفاطمة -رضي الله عنهما- وإلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فهذا الفضل والكرم الفياض إنما هو من كرم سيد المرسلين وآل بيته. ويقول بكر بن حماد في مدح أحمد بن القاسم بن إدريس صاحب مدينة كُرت[3]:

وإذا تفاخَرتِ القبائلُ وانْتمَتْ فافخرْ بفضلِ مُحمَّد وبفَاطِمِ

وبجعفر الطيَّارِ في دَرَجِ العُلاَ وعليٍّ العَضْبِ الحسامِ الصارمِ

1-ينظر: ابن عذارى: كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، وكتاب الدر الوقاد في شعر بكر بن حماد، وكتاب تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ، وكتاب تاريخ الأدب العربي الجزء الخاص بعصر الدول و الإمارات لشوقي ضيف) .

2-محمد بن رمضان شاوش: الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد، ص72 ،73.

3- محمد بن رمضان بن شاوش: الدر الوقاد، ص 72، 73.

فقد الشاعر ابنه عبد الرحمن عندما كان راجعا من القيروان على يد جماعة من قطاع الطرق سنة 295هـ فأثّر ذلك فيه مما جعله يتفجع تفجعا عميقا، ويندبه ندبا ويبكيه بدموع مذرفة قائلا[1] :

بكيتُ على الأحبَّةِ إذْ تولَّوا ولَوْ أنِّي هلَكْتُ بَكَوا عَليَّا
فيَا نَسْلي بَقاؤُك كَان ذُخْرًا وفَقْدُكَ قد كَوَى الأَكْبَادَ كيَّا
كفَى حُزْنًا بأنَّني مِنكَ خلْوٌ وأنَّك ميِّتٌ وبَقيتُ حَيَّا
ولمْ أكُ آيسًا فيئِسْتُ لمَّا رميتُ التُّرْبَ فوقك منْ يَديَّا
فليتَ الخَلْق إذا خُلِقُوا أطاعُوا وليتَكَ لمْ تَكُ يَا بَكْرُ شَيَّا
تُسَرُّ بأشهرٍ تمضِي سراعًا وتُطْوى في ليَالِيهِنَ طيَّا
فلا تفرحْ بدُنيَا ليسَ تبقَى ولا تأسَفْ عليهَا يا بُنيَّا
فقد قَطعَ البَقَاءَ غُرُوبُ شَمْسٍ ومَطلعُهَا عليَّ يَا أُخيَّا
وليس الهمّ يَجْلُوه نهارٌ تدورُ له الفراقدُ والثُّريَّا

ولعل أهم ما في ما في مرثيات بكر زيادة على المعاني المشتركة، نلمس تأملات الشاعر في الوجود وموقفه من الموت، فإذا الحياة قصيرة والدهر قاس والنعم زائلة والموت حتم على النفوس، وأكثر ما تكون هذه المعاني في مراثي الأبناء الذين ماتوا صغارا ولم يخلفوا مآثر تذكر لهم، ولا فضائل يمجدون بها ولذلك يلجأ الشعراء إلى الأساليب الحِكمية على نحو ما هو موجود في هذه المرثية، وقد أكثر الشاعر من العبارات الحكمية ما يخفف به وقع المصاب ويدفع إلى الاعتبار. ولا تقلُّ مقطوعة الشاعر الثانية التي اختار لها روي اللام جودة عن السابقة بل تعد من روائع شعره، فبعد البكاء والندب، هاهو بكر بن حماد يعزي نفسه وفيها يقول في قصيدة يرثي فيها ابنه[2]:

وهوَّنَ وجْدِي أنَّنِي بك لاحِقٌ وأنَّ بقَائِي في الحيَاةِ قليلُ

1- محمد بن رمضان شاوش: الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد، ص 87،88.
2-المصدر نفسه، ص 89.

وأنْ ليسَ يبْقى للحَبيبِ حَبيبُهُ ولَيسَ بِبَاقٍ للخليلِ خَليلُ

ولوْ أنَّ طُولَ الحُزْنِ مِمَّا يَرُدّهُ للاَزمَنِي حُزْنٌ عليهِ طَويلُ

فالقصيدة نفثة حزينة لقلب عامر بالإيمان، يدرك أن لا خير من الصبر ما دامت النهاية أن ليس يبقى للحبيب حبيب، وأن متاع الدنيا قليل، وأن الدنيا دار فراق لا دار بقاء، وأن كل نفس ذائقة الموت وليس أمام الإنسان إلا التسليم بقضاء الله تعالى، فالبكاء لا يرد هالك، والمقطوعة عبارة عن نظرة تأملية في حقيقة الموت والحياة.

وفي شعره أحاديث ومعان كثيرة عن الموت والآخرة، وتذكير الإنسان بنهايته المحتومة، وتقلبات الأحوال في الدنيا، كما دعا الإنسان إلى الإنابة إلى الله قبل فوات الأوان والتزود للآخرة وما إلى ذلك من المسائل التي تحدث عنها الزهاد.

ومن أهم قصائده قصيدة يدعو فيها إلى الوقوف أمام القبور لإدراك حقيقة الإنسان ومصيره المحتوم، وما آل إليه هؤلاء الناس بعد أن سقاهم الدهر كأس الحمام، فوسدوا التراب وابتعدوا عن عالم الأحياء، كما راح الشاعر يذكّر بالموت ويعظّم الآخرة، ويدعو إلى التقوى والصلاح والابتعاد عن المعاصي والإسراع إلى التوبة قبل فوات الأوان، وهي معان دأب عليها الشعراء الزهاد من قبل وتضمنتها قصائدهم الزهدية، وفي هذه المضامين يقول بكر بن حماد[1]:

قِفْ بالقُبُورِ فَنَادِ الهَامِدينَ بهَا مِنْ أعْظُمٍ بُلِيَتْ فِيهَا و أجْسَادِ

قومٌ تقطَّعتِ الأسْبابُ بينَهُمْ من الوِصَالِ وصَارُوا تَحت أطْوادِ

راحُوا جميعًا على الأقدامِ وابْتَكَرُوا فلنْ يرُوحُوا ولنْ يَغْدُو لهم غادِ

واللهِ لو رُدّوا ولو نَطقُوا إذًا لقالُوا :التُّقَى من أفضل الزَّادِ

فبرَزَ القومُ و امتدَّتْ عساكرُهم كمَا يوافُوا لِميقات ومِيعادِ

ما بالقلُوبِ حياةٌ بعد غفلتِهَا واللهُ سبحانهُ منهَا بمِرْصَادِ

1-المصدر السابق، ص 80،81.

أين البقاءُ وهذا الموتُ يطلبُنا هيهاتَ هيهاتَ يا بكرَ بْنَ حَـمَّادِ

بيْنَا نرى المرءَ في لَهْوٍ وفي لعـبٍ حتَّى نراهُ على نَعْشٍ وأعْـــــوَادِ

وله أيضا في هذا الغرض أيضا أبيات يقول فيها[1]:

لقد جَمحَتْ نفسي فصدَّتْ وأعرضتْ وقدْ مَرقَتْ نفسي فطال مُروقُـــهَا

تجهَّمْتُ خَمْسًا بعد سبعينَ حِجَّةً ودَامَ غُروبُ الشّمسِ لي وطُلوعُهَا

وأيدي المنَـايَا كلُّ يـــومٍ وليـلةٍ إذا فُتِقَتْ لا يُستطَاعُ رُتوقُـــهَا

يصبّحُ أقوامًا علـى حـينِ غفـلةٍ ويأتيكَ في حينِ البياتِ طُروقُهَا

وللشاعر أيضا أبيات في هذا الموضوع يقول فيها[2]:

لقد جفّتِ الأقلامُ بالخَلقِ كلِّهِم فمنهُم شقيٌّ خائبٌ وسعيدُ

تمرُّ اللـيالي بالنُّفـوسِ سريـعةً ويُبدئُ ربّي خَلقهُ و يُعيـدُ

أرى الخيرَ في الدُّنيا يَقِلُّ بكثرةٍ ينقُصُ نَقْصًا والحديثُ يَزِيدُ

فلو كانَ خيرًا قَلَّ كالخيرِ كُلِّهِ وأحْسبُ أنَّ الخيرَ منه بَعيدُ

ولبكر بن حماد قصيدة يقول فيها[3]:

نَهَارٌ مُشْرِقٌ وظلامُ ليـلٍ ألحَّا بالبياضِ وبالسوادِ

هما هَدَمَا دَعائمَ عُمْرِ ثـوحٍ ولُقمان وشدّاد وعَـادِ

فيا بكر بْنَ حمَّاد تعجَّـبْ لقومٍ سافرُوا من غيرِ زادِ

تبيتُ على فراشكَ مطمئنًّا كأنَّكَ قد أَمِنْتَ مِنَ المِعادِ

فيا سُبحانَ من أرْسَى الرَّواسِي وأوتَدَهَا معَ السَّبْعِ الشِّدادِ

1-المصدر السابق، ص 78،79.

2-المصدر نفسه، ص 75.

3-المصدر نفسة، ص 76.

يقلب الشاعر صفحات التاريخ العربي والإنساني، ثم يخاطب ذاته علها تتعظ، ويذكر الزمان والموت في زهديته، فكل الزهاد يجمعون على أن الموت ينغص على الإنسان حياته ويقهر كبرياءه ويجعل فرحه مشوبا بالحزن والبؤس، وأن لا أمان في هذه الأولى مهما عمّر الإنسان، كما لم تخل هذه الأبيات من التوظيف التاريخي إشارة من الشاعر إلى التأسي بالأقوام التي عمّرت طويلا، ثم صغرت الدنيا في أعينهم وكانت الموت كنهاية ومصير محتوم لهم. وله في الاعتذار ما كتبه إلى الأمير أبي حاتم الرستمي قائلا[1]:

ومؤنسَةٍ لِي بالعِــراقِ تركـتُـهَا وغُصْنُ شَبابِي في الغُصــونِ نَضيرُ
فقالتْ كمَا قالَ النَواسيُّ قبْلـهَا عزيزٌ علينَا أن نَـراكَ تَسِيــرُ
فقلتُ جَفانِي يُوسفُ بنُ محمَّدٍ فطالَ عليَّ اللَّيلُ وهوَ قَصِــيرُ
أبَا حَاتِمٍ ما كانَ ما كان بُغْضَـةً ولكنْ أتَتْ بعد الأمُورِ أمُـــورُ
فأكْرَهني قومٌ خَشيتُ عقابَهُم فدَارَيْتُهم والدَّائِـراتُ تَـــــدُورُ
وأكْرَمُ عفوٍ يُؤْثِرُ النَّــاسُ أمـرَهُ إذا ما عَفَا الإنسَانُ وهو قَديــــرُ

اعتذار ورجاء وطلب العفو من الأمير أبي حاتم يوسف بن أبي اليقظان حول اتهامه بالمشاركة في الفتنة التي أثارها عمه أبو يعقوب بن أفلح الرستمي، كما أجاد الشاعر مخاطبة الحس الديني والإنساني في الحاكم سعيا للتأثير على المخاطب، وفي هذه القصيدة أيضا سجل الشاعر فرحته بعودة الأمير إلى منصبه والقضاء على رؤوس الفتنة ودحر معارضيه وفك خيوط المؤامرة التي حيكت ضده، فقال فيها[2]:

ماذا يدبّــرُ رَبُّنا في أمـــــرِهِ سُبحانهُ في أرضِهِ وسَمَائِهِ
ردَّ المَلوكَ إلى مَحَــلِّ قرَارِهِـــم مُسْتبشِرينَ بفَضلِهِ وعَطَائِـهِ
فتبارَكَ اللهُ اللطيــفُ بصُنعــهِ ما أغْفَلَ الثَّقلينِ عنْ نَعْمَائِهِ

1-المصدر السابق، ص 84،83 .
2-المصدر نفسه، ص 86،85 .

رفعَ السَّماءَ بلاَ عِمَادٍ بَيِّـــنٍ والبَّحرُ أمْسَكهُ على أرْجَائِهِ

لولاَهُ فاضَ علَى العبادِ بمَوجِـهِ وعلىَ الجِبَالِ الرَّاسياتِ بمَائِهِ

أخذَ البلادَ بسَيفِهِ فاسْتسْلَمَتْ وبعَدْلِهِ وبفضْلِهِ وسخَـائِهِ

يحرص الشاعر على نقل القيم والفضائل التي كان يثني بها الأوائل على الممدوح في القصيدة العربية كالشجاعة والقوة والسخاء والعدل، كما نوه الشاعر بانتصار الأمير على أعدائه، وكان ذلك بعون الله الذي منّ عليه بالنصر المؤزّر على خصومه، وأخرج الأمة من الفتنة بسلام جاعلا ذلك كله بقوة الحاكم وما يتصف به من صفات الحكمة والعدل.

تراجم بعض الشعراء الجزائريين:

-ابن قاضي ميلة.

هو أبو عبد الله بن محمد التنوخي المعروف بابن قاضي ميلة، ولد في شمال قسنطينة وجنوب شرق بجاية بمنطقة تسمى ميلة، ونشأ بها في بيت مشهود له بالعلم والأدب، وكان أبوه قاضي البلاد ولذلك اشتهر بهذا الاسم، عاش في القرن الرابع الهجري وهو شاعر لسن مقتدر يؤثر الاستعارة ويكثر الزجر والعيافة، ويسلك طريق ابن أبي لربيعة وأصحابه في نظم الأقوال والحكايات[1].

-عبد الكريم النهشلي

هو عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي ولد بالمحمدية (المسيلة) وقضى بها أيام شبابه وأخذ منها مبادئ العلوم الأولى، ثم تاقت نفسه للمزيد من الدراسة والتخصص، فهاجر إلى القيروان، وكانت آنذاك حاضرة العلم والثقافة والأدب ومركز الإمارة، فوجد بها ترحيبا من شيوخها وأمرائها، وسطع نجمه في الشعر والأدب والنقد، فقال في مختلف الأغراض الشعرية وكان محترما بين أصحابه، وإن دلت بعض الروايات بأن فيه شيئا من الغفلة والبله، تولى التدريس في القيروان، ونهل شبابها من علمه وأدبه وثقافته باستمرار، وخلف لنا آثارا كثيرة لكنها ضاعت مع ما ضاع من تراث الأدب

1-ينظر: أنموذج الزمان في شعراء القيروان لابن رشيق، وكتاب الذخيرة في محاسن الجزيرة لابن بسام الشنتريني، وكتاب تاريخ الأدب العربي القسم الخاص بعصر الدول والإمارات لشوقي ضيف.

المغربي القديم، ولم يسلم منها سوى كتابه النقدي الموجود الآن في المكتبة العربية بعنوان: اختيار الممتع يقول فيه ابن رشيق: كان شاعرا مقدما عارفا باللغة خبيرا بأيام العرب وأشعارها بصيرا بوقائعها وآثارها توفي سنة 404هـ[1].

-ابن الرّبيب التاهرتي.

هو الحسن بن محمد التميمي القاضي التاهرتي المعروف بابن الربيب وأصله من مدينة تاهرت، طلب العلم بالقيروان على أيدي علمائها وكبار محدثيها وكان أبو عبد الله بن جعفر النحوي معينا ومحبا له فبلغ به النهاية في الأدب وعلم الخبر والنسب، وكان خبيرا وعالما باللغة، شاعرا مقدما، قوي الكلام يتكلفه بعض التكلف، توفي بالقيروان سنة 420هـ وقد جاوز الخمسين من عمره[2].

-عبد الله الجراوي

هو عبد الله بن محمد الجراوي نسبة إلى جراوة، وجراوة مكان حدده ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان بالموضع الموجود بافريقية بين قسنطينة وقلعة بني حماد القريبة من المحمدية (المسيلة) داخل أرض المغرب، قدم الشاعر إلى حاضرة القيروان سنة407هـ و كان شاعرا فحلا قويا وصافا دربا بالخبر والنسب، جيد الفكر والخاطر يجيد فن الترسل ينحدر كلامه كالسيل، توفي مقتولا سنة 415هـ وسنه لا يتعدى الأربعين[3].

-ابن أبي الرجال:

هو أبو الحسن علي بن أبي الرجال ينسب إلى القيروان ويرجع نسبه إلى أشراف مدينة تاهرت، هاجر إلى القيروان وعاش فيها زمنا في بلاط المعز بن باديس الصنهاجي، وكان عنده

1-ينظر:كتاب أنموذج الزمان في شعراء القيروان لابن رشيق، وكتاب الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي لبشير خلدون، وكتاب اختيار الممتع النهشلي، وكتاب تاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف.

2-ينظر:كتاب أنموذج الزمان في شعراء القيروان لابن رشيق، وكتاب تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ.

3-ينظر كتاب أنموذج الزمان في شعراء القيروان لابن رشيق، وكتاب معجم البلدان لياقوت الحموي، وكتاب تاريخ الأدب العربي القسم الخاص بعصر الدول والإمارات لشوقي ضيف.

وزيرا، ومنزلته لديه سامية، ونفوذه في البلاط عظيما، فتقرب إليه العلماء والأدباء أهدى إليه ابن رشيق كتابه المشهور العمدة، كما أهدى إليه ابن شرف القيرواني كتابه رسائل الانتقاد، وكان شاعرا أديبا ناثرا مجيدا يميل إلى العلوم الرياضية توفي سنة 425هـ[1].

–ابن رشيق القيرواني.

هو أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، شاعر وناقد ومصنف وأديب فاضل، ولد سنة 390هـ بالمحمدية (المسيلة) كان أبوه روميا من موالي الأزد فنسب إليهم، قرأ القرآن والشعر وبعض علوم عصره في مدارس وكتاتيب المحمدية، واحتك بأبيه فتعلم منه حرفة الصياغة وهو صغير السن، ولما رغب في التزيد في العلم والأدب يمم وجهه شطر القيروان مقصد العلماء والطلاب، فتقرب من البلاط، ومدح المعز بن باديس الصنهاجي، وعندما تعرضت القيروان لمحنة قبائل بني هلال الذين استباحوها وخربوها انتقل ابن رشيق إلى المهدية حيث الأمير تميم بن المعز، ومكث عنده إلى حين وقع بينهما خلاف غادر على إثره المهدية، وقصد جهة البحر، وأبحر نحو جزيرة صقلية، وأقام هناك بمازر إحدى مدنها إلى أن وافته المنية بها سنة 456هـ. أثرى المكتبة العربية بعدة مؤلفات في مختلف الاختصاصات من الأدب والنقد والشعر واللغة، واشتهر عموما بكتاب العمدة في محاسن الشعر ونقده، وكتاب قراضة الذهب، وكتاب الشذوذ في اللغة، وكتاب أنموذج الزمان في شعراء القيروان[2].

1–ينظر:كتاب أنموذج الزمان في شعراء القيروان لابن رشيق، وكتاب تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ.

2–ينظر: قاموس تراجم أشهر الرجال والنساء لخير الدين الزركلي، وكتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني، وكتاب خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء المغرب والأندلس للعماد الأصفهاني الكاتب.

الخاتمة

الشعر العربي القديم شعر غزير المادة ثر الموضوعات ممتد في عصور أدبية مختلفة، وهذه المحاضرات لا تكفي لعرض مادته ونصوصه بل نكتفي بأخذ بعض النماذج من كل عصر أدبي.

-تتطرق نصوص الشعر الجاهلي إلى موضوعات متنوعة تعكس الحياة العربية في العصر الجاهلي التي سادت في شبه الجزيرة العربية، هذا الشعر الذي نشأ وتطور في شبه الجزيرة العربية قبيل ظهور الإسلام لذلك يعد الشعر الجاهلي مصدر من مصادر هذه الحياة العربية الحافلة بالأحداث المختلفة.

- قصائد المعلقات وعلى الرغم مما أثير حولها من جدل في نسبتها لعصرها أو لمبدعيها فهي تعد من أجود القصائد الشعرية التي وصلتنا من العصر الجاهلي، وهي أنموذج حي لإبداع الشاعر العربي بما تتضمنه من لغة فصحى ومتانة أسلوب وما تمثله أيضا من قيمة تاريخية ...
- يعد شعر الصعاليك واحد من النماذج الشعرية التي عالجت جانبا اجتماعيا من حياة الإنسان العربي في العصر الجاهلي، وصورت الحياة الطبقية والظروف القاسية التي دفعت إلى التمرد عن القبيلة والخروج عن أعرافها، ولشعر الصعاليك خصائص تميزه عن غيره من شعر الجاهليين.
- سجل شعر الفتوحات أحداث صدر الإسلام وما بعده وصور أهم المعارك التي قادها المسلمون دفاعا عن دينهم وتمكينا له في الأرض، تضمن هذا الشعر شحنات حماسية تنافح عن قيم الدين الجديد وتصف استبسال الفرسان في مختلف الوقائع، وصورت مخلفات هذه الحروب وما تبعها من آهات الأسرى وآلام السجناء.
- المرثيات النبوية قصائد قيلت في عصر صدر الإسلام تتطرق إلى سجايا وخصال الرسول-صلى الله عليه وسلم- بعد وفاته وما تركه رحيله من فراق وأسى في نفس الصحابة والمسلمين جميعا، وما يميز هذا العصر كثرة المدائح والمراثي النبوية وشعر الفتوحات الإسلامية.
- شعر النقائض واحد من مظاهر شعر بني أمية، وهو لون شعري يعتمد على فن الهجاء، ازدهر وتطور في هذا العصر واتصف بحمولة معرفية وقيمة تاريخية لأيام وأحدث العرب منذ العصر

الجاهلي، فسجلت بذلك كل ما له علاقة بالصراع بين القبائل العربية، خاصة مابين الأمويين والعلويين، ومن أشهر أعلامه المثلث الأموي جرير والأخطل والفرزدق.

- غرض الغزل من الأغراض الشعرية الأساسية عند العرب، ارتبط بالقصيدة العربية منذ نشأتها وهو أحد مكونات مفاصلها ترجم إلى اتجاهين: اتجاه عذري عفيف شعاره العفة والحياء والشعور الصادق، وآخر إباحي يجهر بالمتعة الحسية ويصورها.
- شاع شعر الزهد وشعر التصوف في العصر العباسي وشكلا مظهرا من مظاهر الحياة العربية، وهو يمثل الشعر الملتزم الإصلاحي في مقابل تيار اللهو والمجون الذي ذاع في هذا العصر.
- كان من نتائج الاحتكاك العربي بغيره من الأمم وبعد التثاقف الذي شهده العرب في العصر العباسي ظهور شعر الحكمة والفلسفة، والنظرة التأملية في الكون والحياة والإنسان، فكان لهذا الشعر أعلام كالمتنبي والمعري الذين اتسم شعرهم بالجدل، والنظرة التأملية في الكون والحياة والإنسان.
- سجلت الكتب الأدبية والتاريخية نماذج من الإبداع الشعري الجزائري القديم كما حفظت لنا الكثير من الأسماء التي وسمت الأدب الجزائري بميسم الإبداع، وكان لهم شعر حافل بمختلف الموضوعات وفي مختلف المراحل التاريخية التي شهدتها الجزائر بدءا من الدولة الرستمية بتيهرت إلى الدولة الصنهاجية بقسميها الحمادي بالقلعة وبجاية، والزيري بالقيروان حتى زمن الدولة الزيانية.

هذه مجموعة من المحاضرات التي تختصر قرونا من الزمن للشعر العربي القديم، وهي في الحقيقة دروس مختصرة لأننا لا نستطيع- مهما اجتهدنا- أن نقدم هذا الثر الغزير من الشعر العربي في هذه الصفحات المعدودات. فإن أصبت فمن الله تعالى وحده، وإن جانبت الصواب فحسبي أني اجتهدت وبالله التوفيق والصلاة والسلام على رسول الله-صلى الله عليه وسلم-.

المصادر والمراجع

المصادر:

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

1-الأصفهاني أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد: الأغاني، تحقيق إحسان عباس وإبراهيم السعافين، وبكر عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ط2، 2004.

2-ابن الآبار أبو عبد الله محمد بن عبد الله: الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، مصر، ط1، 1963.

3-الأبشيهي شهاب الدين محمد بن أحمد: المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق محمد خير طعمة الحلبي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط5، 2008.

4-الإدريسي محمد بن محمد: نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط1 ،1989.

5-البحتري أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحي: الحماسة، تحقيق محمد إبراهيم حور وأحمد محمد عبيد، المجمع الثقافي أبو ظبي، أبو ظبي، الإمارات العربية، 2007.

6-البصري صدر الدين علي بن أبي الفرج بن الحسن: الحماسة البصرية، تحقيق عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط1، 1999.

7-البغدادي إسماعيل باشا: هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

8-البيهقي أحمد بن الحسين بن علي بن موسى: دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت.

9-البكري أبو عبيد الله بن عبد العزيز بن محمد :المسالك والممالك، ج2، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2003.

10-ابن بسام الشنتريني أبو الحسن علي: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ق4، ط1، 1979.

11-ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق جمال الدين أبو المحاسن الأتابكي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1992.

12-ابن خلكان أبو العباس شمس الدين: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، دط، 1977.

13-ابن خلدون عبد الرحمن: مقدمة ابن خلدون، ضبط ومراجعة خليل شحادة وسهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، دط، 2001.

14-الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر: كتاب الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط2، 1965.

15-الجراوي أبو العباس أحمد بن عبد السلام : الحماسة المغربية، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق، سورية، ط1، 1991.

16-ابن الجوزي جمال الدين أبو الفرج: صفوة الصفوة، تحقيق محمود فاخوري، دار الوعي، حلب، سورية، ط1، 1969.

17-الحصري القيرواني أبو إسحاق إبراهيم بن علي: زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر، ط1، 1953.

18-ابن حزم الأندلسي أبو محمد علي بن أحمد: جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط5، 2001.

19-الخطيب البغدادي أحمد بن علي بن ثابت: تاريخ بغداد، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 2002.

20-الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان: سير أعلام النبلاء، تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط3، 1985.

21-ابن رشيق القيرواني أبو علي الحسن: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2001.

22-ابن رشيق القيرواني: أنموذج الزمان في شعراء القيروان، جمع وتحقيق محمد العروسي المطوي وبشير البكوش، الدار التونسية للنشر والتوزيع، تونس والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1986،1.

23-الرقيق أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم: قطعة من تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق عبد الله العلي الزيدان وعز الدين عمر موسى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1990.

24-أبو زيد القرشي محمد بن الخطاب: جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، تحقيق علي محمد البجاوي، نهضة مصر للطباعة، القاهرة، مصر، دط، دت.

25-الزوزني عبد الله الحسن بن أحمد: شرح المعلقات السبع، تحقيق محمد عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، لبنان، دط، 2007.

26-الزركلي خير الدين بن محمود بن محمد بن علي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط4، 1986.

27-ابن سلام الجمحي أبو عبد الله محمد: طبقات الشعراء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، 2001.

28-السيوطي جلال الدين عبد الرحمن: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار الفكر، دمشق، سوريا.

29-ابن الشجري هبة الله: الحماسة الشجرية، تحقيق عبد المعين الملوحي وآخرون، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سورية، دط، دت.
30-الصولي أبوبكر محمد بن يحي: أخبار أبي تمام، تحقيق خليل محمد عساكر ومحمد عبده عزام ونظير الإسلام الهندي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط3، 1980.
31-ابن طباطبا العلوي محمد بن أحمد: عيار الشعر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2005.
32-العسكري أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل: الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، 1952.
33-العماد الأصفهاني محمد بن صفي الدين الكاتب: خريدة القصر وجريدة العصر،قسم شعراء المغرب، تحقيق محمد المرزوقي ومحمد العروسي المطوي والجيلاني بن الحاج يحي، الدار التونسية للنشر، دط، 1986.
34-عبد العزيز الثعالبي: تاريخ شمال إفريقية منذ الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية، جمع وتحقيق أحمد بن ميلاد ومحمد إدريس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1990.
35-ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج .س.كولان و إ .ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان ، ط3 ،1983.
36-أبو عبيدة معمر بن المثنى: كتاب النقائض نقائض جرير والفرزدق، تحقيق محمد أحمد عبد العزيز سالم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2007.
37-القلقشندي شهاب الدين أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المطبعة الأميرية، القاهرة، مصر، دط، 1915.
38-ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم: عيون الأخبار، دار الكتب والوثائق القومية، ط1، 1930.
39-ابن القيم الجوزية أبو عبد اله شمس الدين: مدارج السالكين، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، دط، 1339هـ.
40-المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهر: دار الأندلس، بيروت،لبنان، ط5، 1982.
41-المقري أحمد بن محمد: نفح الطيب من غصن أهل الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، دط، 1998.
42-المرزوقي أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن: شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، تحقيق غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2003.
43-المفضل الضبي المفضل بن محمد: المفضليات، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف،القاهرة، مصر،ط6، دت.

44-المبرد أبو العباس محمد بن يزيد: التعازي والمراثي والمواعظ، تحقيق إبراهيم محمد حسن الجمل، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، دط، دت.
45-النهشلي عبد الكريم القيرواني: الممتع في صنعة الشعر، تحقيق محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، دط، دت.
46-ياقوت الحموي شهاب الدين أبي عبد الله: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، دط، 1977.
47-مقدمة الحماسة البصرية، تحقيق عادل سليمان جمال، مطبعة الأهرام، القاهرة، مصر، ط1، 1978.

المعاجم اللغوية:

1-إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2، 1980.
2-الجواهري إسماعيل بن حماد: تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، دط، دت.
3-ابن سيدة أبو الحسن بن إسماعيل المرسي: المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2000.
4-الفيروز آبادي مجد الدين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، دار نوبلس، بيروت، لبنان، ط1، 2006.
5-الفراهيدي الخليل بن أحمد: كتاب العين، تحقيق محمد المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2003.
6-ابن منظور محمد بن مكرم: لسان العرب، دار الحديث، القاهرة، مصر، دط، 2003.

الدواوين:

1-امرؤ القيس: الديوان، ضبط وتصحيح مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،ط5، 2004.
2-إبراهيم بن سهل: الديوان، المطبعة الأدبية، بيروت، لبنان، دط، 1985.
3-أبو البقاء الرُّندي: الديوان،تحقيق ودراسة حياة قارة، مركز البابطين لتحقيق المخطوطات الشعرية، ط1، 2010.
4-الأخطل: الديوان، شرح مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1994.
5-الأعشى الكبير ميمون بن قيس: الديوان، شرح وتعليق محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز، المطبعة النموذجية، دط، دت.
6-بشر بن أبي خازم: الديوان، شرح مجيد طراد، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط، 1994.
7-ابن الأبار أبو عبد الله محمد القضاعي البلنسي: الديوان، تعليق عبد السلام الهراس، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، دط، 1999.

8-تأبط شرا: الديوان، تحقيق علي ذو الفقار شاكر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1984،1.
9-جميل بن معمر: الديوان، دار صادر، بيروت، لبنان، دط، دت.
10-جرير: الديوان، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، دط، 1986.
11-حسان بن ثابت: الديوان، شرح وتقديم عبدا مهنّا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1994.
12-ابن خفاجة: الديوان، شرح وضبك عمر فاروق الطباع، دار القلم للطباعة، بيروت، لبنان، دط، دت.
13-ديوان الهذليين: تحقيق أحمد الزين ومحمود أبو الوفاء، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، دط، 1965.
14-ابن رشيق : الديوان، شرح صلاح الدين الهواري وهدى عودة، دار الجيل، بيروت، لبنان، دط، دت.
15-ذو الرمة: الديوان، شرح أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1995.
16-زهير بن أبي سلمى: الديوان، شرح علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1988.
17-ابن زيدون: ديوان ابن زيدون ورسائله، تحقيق علي عبد العظيم، نهضة مصر للطباعة، القاهرة، مصر، دط، دت.
18-الشنفرى عمرو بن مالك: الديوان، تحقيق إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1996.
19-طرفة بن العبد: الديوان، شرح محمد مهدي ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 2002.
20-عنترة بن شداد: الديوان، تحقيق محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، القاهرة، مصر، دط، دت.
21-عروة بن الورد: الديوان، تحقيق أسماء أبو بكر محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، 1998.
22-عمر بن أبي ربيعة: الديوان، شرح فايز محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1996.
23-أبو العتاهية: أشعاره وأخباره، تحقيق شكري فيصل، دار الملاح للطباعة، دط، دت.
24-أبو العتاهية: الديوان، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، دط، 1986.
25-أبو العلاء المعري: اللزوميات، تحقيق أمين عبد العزيز الخانجي، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، دط، دت.
26-أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمي: ديوان النقائض، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1998.
27-ابن عربي: ديوان ترجمان الأشواق، عناية عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 2005.
28-ابن عربي: الديوان، شرح أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، ط1، 1996.
29-الفرزدق: الديوان، شرح علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1987.
30-ابن الفارض: الديوان، تحقيق درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، دط، 2008.
31-أبو فراس الحمداني: الديوان، شرح خليل الدويهي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1941.
32-قيس بن الملوَّح مجنون ليلى: الديوان، يسري عبد الغني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1999.

33-كعب بن زهير: الديوان، تحقيق علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، 1997.
34-محمد بن رمضان شاوش: الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد، المطبعة العلوية، مستغانم، الجزائر، ط1، 1966.
35-المتنبي: الديوان، شرح أبي البقاء العكبري، ضبط وتصحيح مصطفى السقا، مطبعة البابي الحلبي وأولاده، مصر، دط، 1936.
36-المتنبي: الديوان، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، دط، 1983.
37-أبو مدين شعيب: الديوان، جمع وترتيب العربي بن مصطفى الثوار، مطبعة الشرق، دمشق، سورية، ط1، 1958.
38-المعتمد بن عباد: الديوان، تحقيق رضا الحبيب السويسي، الدار التونسية للنشر، تونس، دط، دت.
39-مهلهل بن ربيعة: الديوان، شرح وتقديم طلال حرب، الدار العالمية، بيروت، لبنان، دط، دت.
40-النابغة الجعدي: الديوان، تحقيق واضح الصمد، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1998.

المراجـع:

1-أحمد مطلوب: معجم مصطلحات النقد العربي القديم، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، دط، 2001.
2-أحمد الشايب: تاريخ الشعر السياسي، دار القلم، بيروت، لبنان، ط5، 1976.
3-أحمد الشايب: تاريخ النقائض في الشعر العربي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، ط4، دت.
4-أحمد إبراهيم هبو: تاريخ العرب قبل الإسلام السياسي والحضاري، منشورات جامعة حلب،سورية، دط، 2004.
5-أحمد هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، دار المعارف، القاهرة، مصر،ط14، 2004.
6-أحمد الحوفي: الغزل في العصر الجاهلي، دار القلم، بيروت، لبنان، دط، 1961.
7-أنيس المقدسي: أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط13، 1980.
8-إحسان النص:العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط2، 1973.
9-إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، دارالثقافة، بيروت، لبنان، ط8، دت.
10-بحاز إبراهيم بكير: الدولة الرستمية المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، ط2، 1993.
11-بشير خلدون: الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر،دط، 1981.

12-بطرس البستاني: أدباء العرب في الأعصر العباسية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة،مصر،ط1، 2014.
13-جودت ناصر عاطف: الرمز الصوفي عند الصوفية، دار الأندلس، بيروت، لبنان، دط، دت.
14-حسن جاد حسن: الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام، دار العرب، دمشق، سورية، ط1، 2012.
15-حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي، دار الجيل، بيروت، لبنان، دط، دت.
16-رجاء أحمد مصطفى المبلغ: نداء المؤمنين في القران الكريم، المكتبة الأكاديمية للنشر، ط1، 2003.
17-الرافعي: تاريخ آداب العرب، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، دط، 2012.
18-رئيف خوري: حصاد السجن، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط2، 1961.
19-شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط6، 1977.
20-شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط12، دت.
21-شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط24، 2003.
22-شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي، دار المعارف، القاهرة، ط8، 1987.
23-صلاح رزق: الأدب الأموي، مكتبة القاهرة، مصر، ط1، 1995.
24-صلاح الدين الهادي: اتجاهات الشعر في العصر الأموي، دار الثقافة العربية، القاهرة، مصر، دط، دت،
25-طه نعمان أمين: جرير حياته وشعره، دار المعارف، القاهرة، مصر، دط، دت.
26-طه حسين: الأعمال الكاملة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، دط، 1974.
27-عبد الرحمن عبد الحميد علي: تاريخ الأدب في العصر الجاهلي،دار الكتاب الحديث، القاهرة،مصر،دط، 2008.
28-عبد الرحمن بن محمد الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، دار مكتبة الحياة ، بيروت، لبنان، ط2، 1965.
29-عبد الرحمن لوصيفي: النقائض الشعرية في الشعر الجاهلي، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط1، 2003.
30-عبد الملك مرتاض: الأدب الجزائري القديم دراسة في الجذور، دار هومة، الجزائر، دط، 2003.
31-عبد الله شريط: تاريخ الثقافة والأدب في المشرق والمغرب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط3، 1983.
32-عبد القادر القط: في الشعر الإسلامي والأموي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، دط، 1987.
-عبد البديع محمد عراق: دواوين الحماسة دراسة تاريخية فنية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1998.
33-عبد الرحمن بدوي: شهيدة العشق الإلهي رابعة العدوية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، ط2، 1962.

34-عاطف جودت نصر: شعر عمر بن الفارض دراسة في الفن الصوفي، دار الأندلس للطباعة، بيروت، لبنان، ط1، 1981.
35-عبد الله التطاوي: حركة الشعر بين الفلسفة والتاريخ، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، دط، 1992.
36-عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي الأعصر العباسية، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1981،4.
37-عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي الأدب القديم من مطلع الجاهلية إلى سقوط الدولة الأموية، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط4، 1981.
38-محمد صبري الأشتر: العصر الجاهلي الأدب والنصوص المعلقات، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، جامعة حلب، حلب، سوريا، دط، 1994.
39-محمد عيسى الحريري: الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي، دار القلم، الكويت، ط3، 1987.
40-محمد محمد زيتون: القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، دار المنار، القاهرة، مصر، ط1، 1988.
41-محمد بن عمرو الطمار: تاريخ الأدب الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 2016.
42-محمد بن عمرو الطمار: تلمسان عبر العصور، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1984.
43-محمد رضوان الداية: في الأدب الأندلسي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط1، 2000.
44-محمد عباسة: الموشحات والأزجال الأندلسية وأثرها في شعر الترابادور، دار أم الكتاب للنشر، مستغانم، الجزائر، ط1، 2012.
45-محمد عبد المنعم خفاجي: الأدب الأندلسي التطور والتجديد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1992.
46-محمد عبده: رسالة التوحيد، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، دط، 1979.
47-محمد شمس عقاب: المراثي النبوية في أشعار الصحابة توثيق ودراسة، مكتبة دار البخاري، الإسماعيلية، مصر، ط1، 2013.
48-محمد مصطفى أبو شوارب: أدب العصر الأموي دراسات ونصوص، دار الوفاء، الإسكندرية، مصر،ط1، 2002.
49-محمد الطاهر العلاوي: العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب، دار الأمة للطباعة، الجزائر، ط1، 2004.
50-محمد العمري: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، إفريقيا للشرق الأوسط، الدار البيضاء،المغرب، ط2، 2010.
51-محمد مصطفى حلمي: ابن الفارض والحب الإلهي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2، 1971.
52-مصطفى الشكعة: مناهج التأليف عند العلماء العرب، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان،، ط4، 1982.

53-مصطفى أمين الرفاعي: المتنبي وشوقي، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، دط، 2002.
54-مصطفى هدارة: الشعر في صدر الإسلام والعصر الأموي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، دط، 1995.
55-مصطفى عبد الرحمن إبراهيم: النقد الأدبي عند العرب، مكة للطباعة، القاهرة، مصر، دط، 1998.
56-مصطفى السيوفي:تاريخ الأدب في صدر الإسلام،الدار الدولية للاستثمارات الثقافية،القاهرة،مصر،ط1، 2008.
57-مصطفى عوض الكريم: فن التوشيح، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط2 ، 1974.
58-مبارك بن محمد الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث،تقديم وتصحيح محمد الميلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دط،1976.
59-مارون عبود: أدب العرب مختصر تاريخ نشأته وتطوره وسير مشاهير رجاله وخطوط أولى من صورهم، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، دط، 2014.
60-مجدي كامل: أحلى قصائد الصوفية، دار الكتاب العربي، القاهرة، مصر، ط1، 1998.
61-منال عبد المنعم جاد الله: التصوف في مصر والمغرب، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر،دط، دت.
62-نوار بوحلاسة: محاضرات في الأدب الأندلسي، منشورات جامعة منتوري قسنطينة، دط، 2008.
63-واضح محمد: أدب صدر الإسلام، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1994.
64-يحي الجبوري: الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط5، 1986.
65-يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار غريب للطباعة، القاهرة، مصر، دط، دت.
66-النعمان عبد المتعال النعمان: شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، دط، 1965.
67-يوسف خليف: تاريخ الشعر في العصر العباسي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة،مصر،دط، دت.
68-يوسف خليف: تاريخ الشعر العربي في العصر الإسلامي، دار الثقافة للطباعة، القاهرة، مصر، دط، 1976.
69-يوسف خليف: في الشعر العباسي نحو منهج جديد، دار غريب، القاهرة، مصر، دط، دت.
70-يوسف عيد: دفاتر أندلسية في الشعر والنثر والنقد والحضارة والأعلام، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، دط، 2006.

دوريات ورسائل علمية

1-محمد علي أبو الحسن: سلطان العاشقين ابن الفارض وخصائصه الشعرية إضاءات نقدية، مجلة فصلية، جامعة دهاقان، العدد3، 2011.

2-عبد المحسن علي وهبة: الزهد عند الصوفية بين الاعتدال والغلو، المجلة العلمية بأسيوط، كلية اللغة العربية، العدد33، ج1، 2014.
3-الخصائص الأسلوبية في شعر الحماسة بين أبي تمام والبحتري(شعر الفخر والحرب أنموذجا) أطروحة دكتوراه، إشراف محمد إبراهيم شادي، إعداد أحمد صالح محمد النهمي، جامعة أم القرى، السعودية.
4-الحياة الأدبية والثقافية في المغرب الأوسط حتى نهاية القرن الخامس الهجري، أطروحة دكتوراه، إشراف الطاهر توات، إعداد محمد إحدادن ، جامعة الجزائر، 2006 .
5-النزعة الفلسفية في الشعر العباسي العصر الثاني رسالة دكتوراه، إشراف محمد عباس، إعداد بوزيزة علي، جامعة تلمسان، 2013.

فهرس الموضوعات

مقدمة.....أ-ب-ج

المحاضرة الأولى: الشعر العربي القديم تاريخيا وجغرافيا.....1

المحاضرة الثانية: المعلقات مضامينها وأساليبها 13

المحاضرة الثالثة: شعر الصعاليك.....23

المحاضرة الرابعة: الشعر في صدر الإسلام، شعر الفتوحات 33

المحاضرة الخامسة: المراثي النبوية 44

المحاضرة السادسة: شعر النقائض 51

المحاضرة السابعة: الشعر العذري والشعر العمري.....65

المحاضرة الثامنة: شعر الزهد والتصوف 73

المحاضرة التاسعة: شعر الحماسة.....86

المحاضرة العاشرة: الشعر السياسي في المشرق والمغرب.....99

المحاضرة الحادي عشر: الشعر الفلسفي وشعر الحكمة.....112

المحاضرة الثاني عشر: الموشحات والأزجال.....124

المحاضرة الثالثة عشر: الأدب الأندلسي 137

المحاضرة الرابع عشر: نصوص من الشعر الجزائري القديم 147

الخاتمة 165

المصادر والمراجع 168

فهرس الموضوعات 179